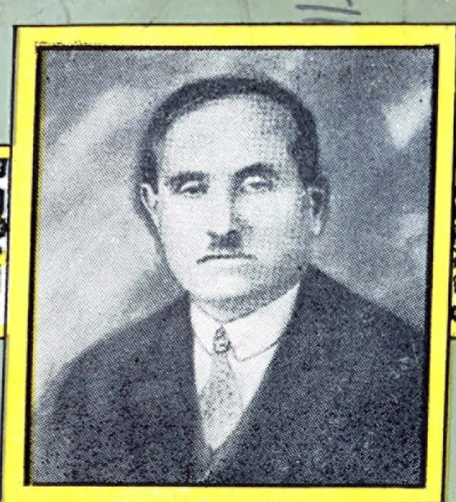
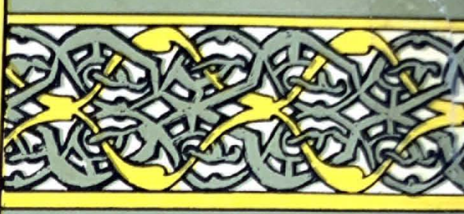



مذكرات

عبد الرحمن الشهبندر





دار الإرشاد

مُذكرات

الدكتور عَبد الرحمن الشهبندر

الطبعة الأولى
١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م

مذكرات

الدكتور عبد الرحمن الشهبندر



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عبد الرحمن الشهبندر

١٢٩٩ - ١٣٥٩ هـ

١٨٨٢ - ١٩٤٠ م

عبد الرحمن بن صالح شهبندر : طبيب ، خطيب ، من أهل دمشق، مات والده وعمره ست سنوات ، فربته أمه ، وتخرج من الجامعة الاميركية ببيروت ، طبيبا ، سنة ١٩٠٤ م. وكان ممن دخل في جمعية « الاتحاد والترقي » بعد الدستور العثماني ، فلما اتجهت سياستها الى « تتريك » العرب ناوأها .

ونشبت الحرب العامة (١٩١٤) فتوارى ، متنقلا الى العراق فمصر ، واقام في القاهرة الى ما بعد الحرب ، وعاد الى سورية سنة ١٩١٩ م. وعين وزيرا للخارجية فيها سنة ١٩٢٠ . واحتلها الفرنسيون بعد وقعة ميسلون (في السنة نفسها) فغادرها الى مصر فاقام نحو عام، ورجع الى الشام، فاشترك في حفلة للمستر كراين (Charles Crane) الاميركي، فاعتقله الفرنسيون وسجن في قلعة دمشق وبيت الدين ثم في جزيرة أرواد سنتين وبضعة اشهر واطلق سراحه ، فشارك في انشاء حزب « الشعب » بدمشق ، وثارت سورية (سنة ١٩٢٥ م) وهم الفرنسيون بالقبض عليه ، ففر الى جبل الدروز معقل الثورة ومنه

الى شرقي الاردن ثم الى القاهرة سنة ١٩٢٧ واختلف فيها مع اكثر العاملين لاستقلال سورية من اصدقائه الاقدمين ، فتناولت الصحف موقفه ، له وعليه ، وانصرف الى الاشتغال بالطب زمنا ، ثم اراد الاستقرار في دمشق ، فعاد اليها سنة ١٩٣٨ ، فبينما كان في « عيادته » دخل عليه ثلاثة اشخاص فقتلوه ، واعتقلوا واعدموا .

وكان يحسن الترجمة عن الانكليزية ، ونقل عنها الى العربية كتاب « السياسة الدولية » طبع لدليزل بورنس ، وكتب مقالات في مجلتي المقتطف والهلال ، جمع بعضها في كتاب سماه : القضايا العربية الكبرى ـ طبع ـ وكان قد حاول قرض الشعر في صباه فنشر له المستشرق الالماني « كمبفمير » في مجموعته بعض ما نظم ، وليس بشاعر .



الاعلام لخير الدين الزركلي ج ٤ ص ٨٠ . ط ـ ٢ ـ

نقلا عن : مذكرات المؤلف وجريدة الفيحاء الدمشقية ١١ شوال سنة ١٣٤٢ وجريدة الوفد المصري ١ جمادى الثانية ١٣٥٩ والاعلام الشرقية ١ : ١٤٥ .

واقرأ ما كتبه عنه محمد كرد علي في « المذكرات » ٢ : ٤٤٤ ـ ٤٥٠

يشتمل هذا الكتاب على الاقسام التالية :

القسم الاول : مذكرات الشهبندر في السجن عام ١٩٢٢ وهي تتعلق بقدوم لجنة كراين الى سوريا والاحداث التي جرت عقب ذلك في البلاد .

القسم الثاني : مذكرات الشهبندر عن الثورة السورية عام ١٩٢٥ عواملها ، وقائعها ، ونتائجها

الملحق : مذكرة الدكتور شهبندر التي قدمها الى وزارة الخارجية الفرنسية يبسط فيها اسباب الثورة واغراضها .

القسم الأول

مذكرات الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في السجن عام ١٩٢٢

مقدمة

انتهت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) بانتصار الحلفاء على المحور فكان الفرح العظيم في البلاد المنتصرة بمقـــدار لا يوصف ، على انه كان بالنسبة للعرب الذين ساهموا مع الحلفاء في تلك الحرب يوما مشهودا طافحا بكبار الآمال ، ذلك لانهم كانوا لا يزالون مؤمنين بالعهود والوعود التي قطعها لهم حلفاؤهم ، ولا يفتأون يؤملون ادراك الاستقلال والوحدة .

ولكن فرحهم بيوم النصر لم يلبث الا قليلا حتى انقلب الى خيبة ووجوم ، فما ان كشفت روسيا السوفياتية عن الاتفاقات الدولية السرية حول البلاد المنفصلة عن السلطنة العثمانية ، وفي مقدمتها اتفاقية سايكس ـ بيكو ، وعلموا بوعد بلفور حتى ساورهم القلق واصابهم الالم ، ولا سيما عندما اخذ حلفاؤهم يطبقون تلك الاتفاقات على اساس تقسيم البلاد وتوزيع الانتدابات عليها .

وابان ما اجتمعت الدول المنتصرة منذ حزيران ١٩١٩ في مؤتمر الصلح بباريس اوفد الدكتور وودرو ويلسن رئيس الولايات المتحدة الاميركية الى سوريا لجنة كينج ـ كراين لاستفتاء اهلها قصد تنوير افكار المؤتمرين في باريس . فطافت هذه اللجنة في لبنان وسوريا وفلسطين ووضعت تقريرا لم يأبه به الحلفاء ، وانما وضع

بين المحفوظات في واشنطن لان كثرة السوريين اعلنت رفضها لكل انتداب وتقسيم . ثم اسفرت تلك المفاوضات الدولية في مؤتمر سان ريمو بمنح عصبة الامم في ٢٠ نيسان ١٩٢٠ الجمهورية الفرنسية الانتداب على سوريا ولبنان ، ثم عهدت اليها في ٩ ايلول ١٩٢٣ القيام بهذا الانتداب . وكانت الفترة التي تخللت هذين التاريخين تعرف بعهد الاحتلال العسكري . وخلال هذا العهد وقعت احداث كبرى في انحاء سوريا داخلها وساحلها رافقتها احتجاجـــات ومظاهرات وثورات وقيام دولة فيصل بن الحسين الذي بويع ملكا على سوريا . ولكن الدولة المنتدبة استطاعت ان تذللها بالمال والحسام بيد انها لم تستطع ان تستأصل الروح القومية ، والاماني الاستقلالية ، ولا ان تنتزع الالام المبرحة التي كانت تكمن في النفوس .

وفي هذه الفترة من الزمن شاء المستر كراين الذي كان رئيسا للجنة كينج ــ كراين ان يزور سوريا وكان يعطف عليها ، فجاءها في غرة نيسان ١٩٢٢ بصورة خاصة لتفقد اصحابه فيها ، فكانت هذه الزيارة لدمشق مشجعة أهلها لاستئناف المظاهرات ، وللاعراب عن شكاويهم من الوضع ، وللمطالبة بالاستقلال وذلك بعد ان كان الركود قد سيطر عليهم مذ دخل الفرنسيون بلادهم بالقوة فاتحين ، وازاحوا عنها الدولة العربية الشريفية ، وعلى هذا الاعتبـــار تعد هذه الانتفاضة اولى الانتفاضات السورية بعد الاحتلال .

وما ان غادر المستر كراين دمشق حتى اقبلت السلطة على معاقبة رؤساء هذه الحركة فالقت القبض عليهم ، وساقتهم في ٦ نيسان ١٩٢٢ الى المحاكمة امام المحكمة العسكرية . وقد صدر الحكم عليهم . وهو يقضي بالسجن على مدد متفاوتة على الوجه التالي : السادة :

الدكتور عبدالرحمن شهبندر ٢٠ سنةبكثرة اصوات اعضاءالمحكمة
حسن الحكيم ١٠ سنوات بكثرة الاصوات .

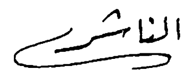
سعيد حيدر ١٥ سنة بكثرة الاصوات
منير شيخ الارض ١٠ سنوات باتفاق الاصوات
عبد الوهاب العفيفي ٢٠ سنة بكثرة الاصوات وهو مصري
الدكتور خالد الخطيب ١٠ سنوات باتفاق الاصوات
توفيق الحلبي ٥ سنوات بكثرة الاصوات

هذا وما ان صدر حكم المحكمة العسكرية بدمشق على السادة المشار اليهم وسيقوا الى سجن القلعة حتى انتفض الشعب ، واقفلت المدينة في ٢٠ نيسان ١٩٢٢ ، واستمر الاقفال اسبوعا كاملا .

وقد ساقوا هؤلاء السادة المحكومين الكرام الى سجن بيت الدين . وهناك كان الدكتور شهبندر يختلس الفرص لتدوين القسم الاول من مذكراته هذه التي هي من اثمن ما دون هذا الزعيم وكانت بلاغته في وصف الاحداث تأتي احيانا على سجيتها وصفا عاليا في بعض الاحيان ، وتتدنى احيانا اخرى بتأثير الوضع ، وخوف المراقبة .

وقد وقعت هذه المذكرات الثمينة بين ايدينا فرأينا من الواجب نشرها لانها جزء من سجل النضال الوطني من اجل الاستقلال .

واضفنا اليها مذكراته عن الثورة السورية كتبها تلبية لطلب الجمعيات العربية في الولايات المتحدة الاميركية ونشرت تباعا في بعض الصحف العربية آنذاك وأفردنا لها القسم الثاني من هذا الكتاب ، وادرجنا بعد ذلك ملحقا يتضمن المذكرة الهامة التي قدمها الدكتور شهبندر الى وزارة الخارجية الفرنسية يبسط فيها اسباب الثورة السورية واغراضها .



كراين في سورية

الحالة العامة قبل وصوله :

كانت البلاد السورية تتمخض بالحوادث ، بالنظر للخيبة التي اصابت الناس من جميع الطبقات والمذاهب ، من جراء سوء الادارة الداخلية ، وزوال القومية ، واتساع الضائقة المالية والاقتصادية ، وانتقال عدوى الوطنية في عامة انحاء المشرق . وكان اكثر الناس تنتظر التطورات والحوادث بين عشية وضحاها خصوصا والحالة الدولية لم تستقر بعد على شكـــل ، الا ان الخاصة الذين كانوا يدرسون الامر درسا دقيقا لم يكونـــوا يتوقعون حصول هذه التطورات والحوادث الا بعد اشهر ، ومن كان منهم يتوقع حصولها كان يود تأخيرها كي يكون الشعب اكثر استعدادا بالروح القومية ، فاذا تحرك انما يتحرك بنظام لغاية محدودة وهدف معين .

كانت الاحوال على هذا المنوال من الاضطراب وتبلبل البال ، ولكنها في الظاهر كانت هادئة ساكنة بحيث كان الاستعماريون يظنون الامور جارية مجراها ، ولم يخطر في بالهم قط ان هذا السكون انما هو السكون الذي يسبق العاصفة . كنت في مكتبي في صباح السبت الواقع في ١٦ نيسان سنة ١٩٢٢ اذ تناولت رسالة عليها طابع بريد يدل الختم عليه انه صادر من مدينة دمشق ففضضته فوجدته من الاستاذ نيكولي رئيس الجامعة الاميركية وتاريخه ٢٩ مارس ١٩٢٢ وفيه يقول لي :

انه تناول برقية من المستر كراين يقول فيها انه قادم في اول نيسان سنة ١٩٢٢ الى دمشق لرؤية اصحابه الذين عرفهم فيها عام ١٩١٩ ، وهو يرجو من الدكتور شهبندر مقابلة المستر كراين ومساعدته على تحقيق غايته بالاجتماع الى هؤلاء الاصحاب وانه سيحل في فندق داماسكوس بالاس .

فقرأت من بين السطور ما سمحت لي مخيلتي ان اقرأ ، وعجبت من صدور الرسالة عن دمشق في حين ان كاتبها موجود في بيروت ، وقلت في نفسي على كل حال هذه فرصة لا يسمح الزمان بمثلها ، وان الحكيم لا يتحين الفرص فقط بل يخلقها ، وان سلاحا تعلق به الولايات المتحدة ولو من طرف بعيد ، هو سلاح قاطع ومشجع .

وصول كراين الى محطة الحجاز :

ركبت سيارتي في المساء الى نزل داماسكوس بالاس ، فسألت عن المستر كراين فقيل لي انه قادم في قطار حيفا وان الحجرة رقم ٢٣ والحجرة التي بجانبها محجوزتان لامره ، ولما رايت ان مجيء القطار قد حان ذهبت الى المحطة ، وما كدت اضع رجلي على سلمها حتى سمعت صفير القطار فدخلت فوجدت المستر كراين نازلا ومعه المستر برودي كاتم سره ، فتقدمت اليه وحملقت في وجهه فوجدت نفس الرجل الذي كنت رأيته في يونيو سنة ١٩١٩ ولكني رأيت وجهه اكثر تجعدا وقامته اشد اعوجاجا ، وتقدمت اليه وناولته بطاقتي وقلت له ان الاستاذ نيكولي كلفني ان اقابلكم ، فلما نظر الى المسيو برودي التفت اليه وذكره في اجتماعاتنا الماضية فهش كثيرا وقال لي مبتسما هل تستطيع ان تقابلني بهذا المساء الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين فأجبته بالايجاب .

لقاء في الفندق :

نقرت باب الحجرة الثالثة والعشرين في الوقت المعين فسمعت صوتا هادئا يقول تفضل فدخلت

واذا بالمستر كراين واقف يأكل شيئا من السكاكر الاجنبية فدعاني فأكلت معه ثم باداني الحديث بالطريقة الانكليزية الساكنة المتروية التي تكاد تكون همسا كما يأتي :

انني قدمت الى هنا بقضية التحقيق ، وذلـــك ان مجرى السياسة يتطلب اظهار تقريرنا المشترك الذي كتبناه مع اخواننا اعضاء اللجنة الاميركية التي استفتت بلادكم عام ١٩١٩ فهل كانت استخباراتنا صحيحة يا ترى ؟

اريد منك أن تجمعني مع أهل هذه البلاد ولا سيما العلماء « المشايخ » منهم ، لارى هل حصل شيء من التبدل في آرائهم ، وهل كنا مصيبين في اخبارنا التي جمعناها في تقريرنا ، فوعدته بأن أجمعه في اليوم التالي بنخبة من الاهلين بالساعة الثالثة زوالية ، ثم سألته هل هو بحاجة الى من يلازمه في الصباح فقال كلا لانه عازم على صلاة الاحد في الكنيسة الساعة العاشرة حيث يجتمع ببعض المسيحيين ممن يود استطلاع رأيهم واستكشاف فكرهم . وقد كنت في جميع اسئلتي حريصا على الالتقاط من فمه كل ما يهمني امره من المجريات المتعلقة بتقريره الذي (وضع) في وزارة الخارجية الاميركية ، وعلى ان اعلم ماذا فعل الله بمساعيـــه التي تحاول السياسة الغاشمة اخفاقها ، وكأنني رأيت على وجهه من امارات التعب من وعث الطريق ما حدى بي الى مفارقته على امل اللقاء في اليوم التالي واستيعاب سائر اخباره . وعلى كل حال قنعت من مجرى الحديث بحدوث بعض الطوارىء المهمة في مجاري السياسة المشعبة المتعقدة التي لا تستقر على حال . ودعته وانصرفت وما حططت رجلي في المركبة الا واخذت انظم جدولا للاعمال ، وافكر في مواجهة الاتقياء من رجال الكنيسة قبل ان يلتقي بهم وتهيئة الاجتماع المعين والتنقيب عن رجال فيهم الكفاءة لقرع الطبول الخفية على الآذان الحساسة بحيث يتسنى لنا اجتماع الكفاية وزيادة .

اتصالي بالوطنيين :

لم ارجع الى داري بل سرت توا الى دار محمد بك اسماعيل الطباخ قائد فرقة حلب ايام الحكومة السورية فلم اجده ، فذهبت منها الى دار ياسين باشا الهاشمي فلم اجده ايضا ، فطلبت دار السيد عثمان الشرباتي التاجر الوطني المعروف المتحرك فقيل لي انه في دار البسام ، طرقت باب دار البسام فخرج لي الخادم فقلت له بلغ السيد عثمان ان بشيرا ينتظره في الباب ، فحالما رآني السيد عثمان عرف عن امر ذي بال جرى في تلك الليلة ، فاخذني الى دار (زوج) اخته السيد رشيد بقدونس حيث قضيت ساعة شرحت لهما فيها حديث المستر كراين وبينت لهما الواجب المحتم عليهما بتلك الليلة ، بحيث كلفت السيد عثمان ان لا ينام حتى يهيىء خطة الاجتماع ، ووعدت السيد رشيد ان يصاحبني الى باب توما لمواجهة احد الذين يذهبون الى الكنائس في الآحاد عادة فقام ، واذ كنت في المركبة خطر في بالي ثلاثة اسماء : عبده الكحيل والسيد انيس سلوم والسيد فارس الخوري على قلة صلواته إلا للضرورات.

مع فارس الخوري في منزله :

وصلت الى دار الاخير منهم فطرقتها فوجدت الجميع نائمين، ولكن ما زلت اقرع الباب حتى انتبهت الخادمة فأخبرتني انه مع اخيه فائز بك يقضي السهرة في النادي ، فكلفتها ان توصل اليه الرسالة الآتية : « اخي العزيز فارس بك اتيتك للمشاركة بشأن احدى المسائل المهمة المتعلقة بمهنتك السياسية بالطبع فلا تؤاخذني على اقلاق راحتك وانا انتظرك في البيت سيدي » . وبعد بضع دقائق عادت الخادمة وقالت الان يأتي ، ولكن الذي اتى هو فائز بك فسألناه عن فارس بك فقال انه نائم في حجرته ثم دخل عليه فأيقظه ، ودخل علينا بقميص نوم وعليه عباءة بنية ولم يخف تعجبه من هذه الزيارة الغير منتظرة ، فلما فاتحته بحديث رسالة الاستاذ

نيكولي اخذ يبتسم واظهر انه عرف كل شيء من الاسرار واخذ يأتي بالحجج الدامغة (القانونية) على تصنع تلك الرسالة بداعي انه كان قد تناول رسالة مثلها وانها كذبة نيسان ، منها ان التوقيع لا يشبه توقيع الاستاذ ، وان لغتها الانكليزية فيها من العبارات ما لا يقوله الانكليز ، وان الطابع البريدي مدموغ في الشام فقط مع ان الرسالة صادرة من بيروت (هذا بالعكس مما يدعو الى النظر بشدة والاهتمام) . احببت ان اكتم ملاقاتي للمستر كراين في المحطة حتى نهاية الحديث لارى نتيجة البحث مع النظريات المجردة التي لا يحتاج تحقيقها الا الى جهد قليل او ذهاب الى المحطة او زيارة في النزل . ولما اعيتني الحيلة قلت يا سيدي انني رأيت المستر كراين بعيني في المحطة وان الرجل مقيم في الحجرة ٢٣ من نزل داماسكوس بالاس ، وما عليك اذا كنت لا تزال على نظرية كذبة اول نيسان الا ان تذهب معي الى النزل لتحقق بنفسك ، فأظهر بعد العناء الشديد شيئا من الايمان على قواعد الشك ، وهكذا ودعته وانصرفت وانا اقول بنفسي (حتى انهم يستبعدون زيارة المستر كراين لربوعك في هذه الايام العصيبة !) .

خلاصة المطالب الوطنية :

عدنا في نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل الى الصالحية حيث اوصلت السيد رشيد بقدونس الى داره . وفي صباح اليوم الثاني جاءني محمد بك اسماعيل فقصصت عليه ما جرى ، وطلبت اليه ان يواجه حسن بك الحكيم مدير البريد والبرق في الحكومة الوطنية ومحي الدين بك صادق قائد الموقع ويطلب معونتهما في العمل والمجيء الى الاجتماع في النزل في الوقت المعين ، وبعد نحو ساعة جاءني محي الدين بك صادق وهو يخشى ان تكون لعبة نيسان ايضا . فطلبت منه ان يذهب الى النزل ويرى المستر كراين بعينه ، فذهب وبعد هنيهة عاد ومعه السيد حسن الحكيم فذكرت لهما انني افضل ان يكون الاجتماع في حديقة الشرباتي في زقاق الحيات على

طريق الصالحية بدلا من ان يكون بالمنزل خشية مفاسد الجواسيس ودسائس الحكومة ،فاستحسنا هذا الرأي . واخيرا اتفقنا على ان ندعو افاضل البلدة على اختلاف المذاهب والمشارب ولا سيما رجال العلم منهم ، فودعاني وانصرفت وعلمت بعدئذ انهما ذهبا توا الى دار السيد تاج الدين الحسني فواجهناه بعد عناء ، ومن ثم اجتمعنا بكثير غيره من الرجال المعروفين بوطنيتهم ، فوعـــدوا جميعا ان يحضروا بالوقت المعين . اما انا فقد ذهبت الى حديقته لارى تهيئة الاجتماع بنفسي فاجتمعت هناك بالشيخ كمال يحيى والشيخ عبد الحميد العطار والشيخ عبد الله الكزبري وصاحب الحديقة السيد عثمان الشرباتي ، فتذاكرنا بالمطالب التي يجب عرضها على المستر كراين واظهار رغائبنا بصورة جلية ، فاتفقنا علــى النقط الثلاثة الآتية : الاستقلال التام ــ والوحدة السورية العربية ــ وترك الخلافة في بني عثمان .

هذه الرغائــب كانت ولا شــك ضالــة الجميــع ولــم يختلفوا الا قليلا في مسألة الخلافة لانهم يريدون ان تكون في حرز من اخطار الغرب ، وهم يعلمون حــق العلم ان البــلاد التي يكون رئيسها آلة بيد دولة غربية تتصرف به كما تشاء وان مملكة مؤلفة من قرى لا تتجاوز عدد الاصابع لا تستطيع ان تمثل الاسلام وان يكون خليفة لثلاثمائة مليون من المسلمين . والمسألة من اولها الى آخرها مسألة قوة وعظمة واستقلال ، فحيثما وجدت دولة اسلامية قوية عظيمة مستقلة عربية كانت ام اعجمية ، فـــان انظار الدول الاسلامية التي هي اضعف منها تتجه نحوها ويكون الرئيس عليها بطبيعة الحال موضع آمال الاسلام ومحط ثقته .

اجتماع كراين بالوطنيين في منزل عثمان الشرباتي :

عــدت الــى بيتــي وفي الــوقت المعــين ذهبت الــى النــزل فبينت للزائر الكريــم فكــرة الاجتماع في الحديقة بــدلا

من الحجرة الضيقة فقبل مع السرور فنزلنا الى المركبة ووصلنا الى الحديقة ببستان الحيات بعد الساعة الثالثة حيث وجدنا لفيفا كبيرا من العلماء والادباء والتجار والاعيان وارباب الاموال والمزارعين فلما رأونا استقبلونا بالتصفيق والهتاف فقعدنا بينهم وكان مع المستر كراين كاتم اسراره المستر برودي .

سأل المستر كراين المجتمعين عن صحتهم وهل هم لا يزالون على الآراء التي اطلعوه عليها يوم اتى مع اخوانه عام ١٩١٩ لاستفتائهم فأجابوه كلهم بصوت واحد ، لانهم لا يستحون ان يعترفوا بأنه حدث تعديل مهم فيها بعد هذه الاختبارات العظيمة التي عانوها منذ بدء الاحتلال ، وهذا التعديل والتطورات تجمعه جملة واحدة مختصرة وهي التشدد بكل الوسائل بالمطالبة بتلك الرغائب .

الشيخ احمد الصاحب يتكلم عن مقبرة البرامكة :

ومما يحسن قوله ان الذي فتح باب الحديث شيخ مشهور في دمشق الشام له اداور في السياسة معروفة منذ الايام الحميدية ، واعظم دور لعبه في اواخر الحكومة العربية اذ وضع يده بيد الفرنسيين فخدمهم اجل الخدمات واظهر من التسامح معهم على مركزه الديني والارشادي ما صار مثلا مشهورا في انكار الذات وهذا المتسامح هو الشيخ احمد افندي الصاحب شيخ طريقة النقشبندية .

اخرج من جيبه اوراقا فقرأناها فاذا هي وثائق رسمية مرت على الحكومة وفيها التشكي من امر فظيع حدث في مقبرة البرامكة المشهورة ، حيث دفن كلب لضابط افرنسي بقبر احد ائمة المسلمين ، وبنيت مراحيض للجنود السنغالية قبل ان اخرجتهم فتأثر المستر كراين تأثرا كليا ... ثم أمر كاتم اسراره ان يدون هذه الملاحظة في مذكرته فدونها ، وانا تناولت الوثيقة وحفظتها له في جيبي الى يوم سفره فقدمتها له ثم قلت ان الجبانة ليست بعيدة

كثيرا واقترحت عليه ان يذهب اليها بعد انفضاض المجلس ليرى بعينه صحة الخبر المؤلم فقبل مع الشكر .

حسام العمري يشكو من الضرائب :

ثم جرى ذكر الضرائب فانبرى حسام الدين افندي العمري احد التجار المعروفين فذكر ان والده كان تاجـــرا منذ عشرات السنين في دمشق ، وانه في مدة ثلاثين سنة لم يـؤد للحكومة من ضريبة التمتع ما تجاوزت قيمته كل سنة خمسماية قرش ولكن ابنه (اي هو) ادى هذه السنة سبعة عشر الف غرش باسم هذه الضريبة . وقال : اذا دام الحال كذلك ، على هذا المنوال من استيفاء الضرائب الباهظة مع وقوف دولاب التجارة والعمل ، فان البلاد سائرة الى الخراب لا محالة .

واردف قائلا :

« اذا رأيت ايها الزائر الكريم بعضنا لابسا اردية هذه السنة فان الزمن الذي نبيع فيه هذه الاردية ليس بعيدا ... واضاف الى ذلك قوله : ومما اقصه عليكم الان ، ما جرى معي وانا قادم الى هذا الاجتماع ، اذ بينما كنت ماشيا على الرصيف مع اخي حسني تسترا من الرذاذ المنهمر ، اذ شعرت بصفعة علـــى ام رأسي من ورائي ، فالتفت ، فاذا بضابط افرنسي يقول لي :

« لماذا لا تنزل الى قارعة الطريق كي امر انا على الرصيف ؟ الم تعلم اننا ما اتينا هذه البلاد الا لنعلمكم الادب » .

فصمت هنيهة وانا انظر اليه بترفع ، واخيرا قلت له :

« بورك لكم هذا الادب ، وانصرفت في طريقي » .

قام بعده السيد عثمان الشرباتي وبين الاضرار البليغة التي اصابت البلاد من وضع الحواجز الجمركية ، وذكر ان هذه الحواجز ستحمل قسما كبيرا من اصحاب الحرف كالحياكة والصباغة على

الانتقال من البلاد الى الجنوب حيث سيجدون لمصنوعاتهم سوقا لا يزاحمهم فيها احد بسبب تلك الحواجز .

انور البكري يتحدث عن الزراعة :

وقال انور افندي البكري من كبار المزارعين :

ان ايرادنا لا يكفي لتأدية الضرائب الموضوعة علينا ، وهذا حال سائر المزارعين ايضا في هذه البلاد . واننا نخشى اذا سارت الامور على هذه الحال واضطررنا لبيع املاكنا لا يبقى معنا بعد حسم الاموال الاميرية منها ما يكفي لنؤسس عملا جديدا لنا في البلاد التي نأمل فيها الراحة . فرغبتنا اليك ايها الزائر الكريم والسيد الجليل بصفتك من اهل المكانة السياسية في بلادك ان ترجو لنا بلساننا من حكومة الولايات المتحدة ان تسهل لنا منذ الان سبل الهجرة وتفتح لنا بابها كي نعجل في الجلاء ونصل الى العالم الجديد وفينا رمق .

حسن الحكيم يشرح سوء الاوضاع المالية والاقتصادية :

ثم تناول الحديث السيد حسن الحكيم من الوجهة المالية وافاض وابدع ولم يترك زيادة لمستزيد . ومما قاله : تكلم كثير من اخواني الحاضرين بشأن الضرائب التي اثقلت كاهل الاهلين واتوا بالامثلة الكثيرة على سابقها وحاضرها وبالنظر لما تيسر لي من الوقوف على ميزان حكومة دمشق عام ١٩٢٢ فسأعرض على مسامع المستر كراين الدواعي التي سببت تلك الزيادة الفاحشة في الضرائب :

من القواعد المقررة في العلم ان تراعى اثناء تنظيم الميزانية الاحوال المالية والاقتصادية والسياسية خصوصا متى كانت في دور التأسيس اما الميزانية التي نظمها المستشار المالي وقدمها الى مجلس المديرين فصادق عليها والتي ارسلت بواسطة البعثة الى المفوضية العليا لاجل التصديق ايضا فأنها لم تنظم على الاسس المذكورة بل

بنيت على غايات الحكومة المغتصبة واغراضها ومصالحها ، لذلك تضمنت ارقام الخرج فيها فكانت سببا لتزييد منابع الدخل بزيادة الضرائب سدا لتلك النفقات التي تنمو ليحملها اليوم هذا الشعب الفقير وعلينا الان أن نورد الامثلة المثبتة بالارقام القطعية الدالة على ما ذكر من الاسراف والتبذير وهي كما يأتي :

اولا ـ رأت الحكومة الغاصبة ان تحول دون فكرة الجامعة العربية فمزقت وحدة البلاد التي هي من عرق واحد ولغتة واحدة ولها اخلاق وعادات واحدة وعـددت الادارات المركزية والمصالح الخاصة في المقاطعات ، ومثلها الفروع التي تتألـف منها الحكومة المذكورة فكان ذلك سببا كبيرا في زيادة النفقات في كل منها، وحسبنا ان نقول في هذا المقام على سبيل المثل ان راتب الحاكم في دمشق ٣٩٠ ليرة سورية مشاهرة وراتب كل من مديـري الداخلية والمالية والعدلية والاشغال والمصارف ٢٦٠ ليرة وكل من مديري الصحـة والشرطة ١٦٠ و١٤٠ ليرة سورية على ان هذه الحكومة سعتها في الاراضي اليوم لا تكاد تبلغ نصف ولاية سورية ايام الحكومة العثمانية وهي تلك الولاية التي كان يديرها وال لا يتجـاوز راتبه الشهري ١٥٠ جنيها عثمانية ، معه رقيم (دفتر دار) راتبه من ٤٠ الى ٥٠ جنيها ومديرو دوائر تتراوح رواتب الواحد منهـم بين عشرين وثلاثين جنيها فقط .

ثانيا ـ عرفت الحكومة الغاصبـة ان الطبقة المنورة التي تستطيع الدفاع عن حقوق البلاد والاهلين بالطرق القانونية واحداث الضجة الضرورية لدى الامم المتمدنة هي الفئـة المتعلمة اجمالا ، والموظفون بطبيعة الحال ، فسعت لكم افواه هؤلاء بالرشوة المستورة والتحبب اليهم بطريقة الكرم الكاذب ، لذلك فتحت لهم باب الحكومة على مصراعيه فاحدثت للادارات والمصالح المتقدمة ما شاءت من دواوين وفروع ومجالس ، وهكذا الفت حكومة تقرب في مظاهرها من الحكومات الكبرى التي لها من الاراضي ما لا يحد والنفوس ما لا

يعد والموارد ما لا ينضب ، وخصصت للموظفين الرواتب الباهظة التي لا يتيسر لهم الحصول عليها في اي عمل آخر ، ومما ساعد التجاء الناس الى الوظائف مع كرههم للادارة وقوف الحال وكساد التجارة وبوار الزراعة بسبب تمزيق وحدة البلاد واقامة الحواجز الجمركية والسفرية بينهـا

ثالثا ـ لم تكتف الحكومة بتعيين الرواتب الباهظة للحاكم والمديرين فحسب ، بل خصصت لكل واحد منهم وللمتصرفين في الولاية ايضا سيارة تبلغ نفقاتها السنوية نحو الفي ليرة سورية كما يتضح من الارقام الاتية :

ل.س.	
٨٠٠	ثمن سيارة ونفقات تصليح .
٤٠٠	ثمن بانزين .
٧٢٠	راتب السائق السنوي .
١٩٢٠	ليرة سورية في السنة .

هذا عدا نفقات الكاراج ، ورئيس الكـاراج وحده يتناول ١٢٠٠ ليرة ، وقد خصصت الى الحاكم علاوة على ما تقدم ٨٥٠٠ ليرة باسم نفقات السفر والانتقال و ٤٠٠ باسم نفقات الاشتراك بالجرائد مع انه لا توجد حكومة في العالم تقدم على مثل هذا الاسراف الغريب من تقديم سيارات ، دع عنك بدلات الاشتراك في الصحف . وحسبنا ان نقول في هذا الصدد ان نفقات السيارات بلغت نيف وثلاثين الفا من الجنيهات السورية ، على ان الانصاف يقضي علينا بالاعتراف بأن هذه السيارات وان كانت في المظهر هي للمديرين والمتصرفين الا انها في الواقع وقفا للمستشاريـن يستعملونها ان شاؤا وحيثما ارادوا .

رابعا ـ وضعت كمية كبيرة من المال باسم اعمال عمومية مثل

تعبيد الطرق وبناء ثكنات للدرك وإنشاء تلغراف لاسلكي في تدمر وغير ذلك من الاعمال التي ظاهرها الثمرة للحكومة والشعب وباطنها نفع الحكومة المغتصبة واملاء جيوب ممثليها وجيوب الوطنيين الذين لا يعرفون الوطن الا بقيمة ما يدخل في الجيوب .

وبخلاصة ان البلاد اليوم سائرة نحو الخراب والدمار لان ثروة الامة تذهب خسارة استهلاكا في سبيل الضرائب لا محالة .

وقام السيد عثمان الشرباتي وتكلم عن الاضرار التي اصابت البلاد من الوجهة التجارية ، وقام السيد انور البكري وبين احوال الزراعة المتأخرة فقام بعد ذلك المستر كراين وقمنا معه والناس بين صامت من شدة تأثره من الاحاديث التي جرت وبين مشيع ومودع ، ولما خرجنا الى الجادة وجدنا على الرصيف ثلاثة من الجواسيس فروا عند رؤيتنا بعدما عرفوا وجوهنا .

اخبرت الحوذي ان يسير الى البرامكة لزيارة مقبرتها ، وعند بلوغنا تكية السلطان سليم طلب المستر كراين ان يزور هذا الاثر النفيس فنزلنا ، وبعدما متع نظره برؤية الصحن والرواق المعمد الذي يحيط به وحرمها ومنارتيها الرفيعتين القائمتين على جانب قبتها والمائلتين من تصرفات الزمن بعض الميل ، رجعنا الى المستشفى الوطني حيث دخلنا الحديقة التي كانت في الاصل جبانة البرامكة : وحديث هذه الجبانة انها كانت مأوى لاشهر رجالنا في القرون الوسطى فمن دفن فيها من اهل العلم ابن عساكر صاحب التاريخ الكبير وابن الصلاح والعز بن عبد السلام وابن تيمية وغيرهم ممن كانوا نورا للهدى ايام كان الغرب يتخبط في داج من الظلم . فلما باشرت السكة الحديدية بين بيروت والشام اعمالها في اواخر القرن الماضي اصبحت هذه الجبانة طريقا عاما ، والقبور التي فيها عرضة للمركبات والنقالات فقام استاذنا العلامة الشيخ طاهر

الجزائري وقعد لهذه الاهانة واحتج على الحكومة لسوء تصرفها ، وذكرها ان اوروبا التي اصبحت نورا في هذا العصر ما اهملت قبور رجالها . بل كثيرا ما جعلت هذه القبور اثرا تستنهض به همم الاحياء وتستحثهم بالمكافأة كمثله بعد الممات . وبعد اخذ ورد جاءت الاوامر من الاستانة بصيانة تلك الجبانة ، فقام بهذا العمل ناظم باشا الوالي فبنى لها حائطا من الحجر الابيض الصلب واحدث بجانبها المستشفى المذكور وجعلها حديقة من اجمل الحدائق .

زيارة ضريح ابن تيمية :

دخلنا الجبانة والحديقة من غير ان يشعر بنا احد ، وسرنا بالمستر كراين الى جهة ضريح ابن تيميه ، فرأيت ولدا صغيرا يعرف الحديقة ، فقلت له : اين القبر ؟ فقال من نفسه : قبر الكلب ؟ فقلت : نعم ، فاشار بيده وقال : هناك ، فترجمت للمستر كراين ما ذكره الولد وقلنا له سر معنا للتفرج عليه فسار ولما صرنا بجانب القبر شعرت بهزة تمشت في جسمي ، وقرأت على الشاهدة هذه الكلمات : (شيخ الاسلام تقي الدين احمد بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨) . هنا يرقد النابغة الذي تقلبت عليه السياسة والحسد والجمود فزجت به في سجن قلعة دمشق حيث مات بعد بضعة اشهر . وعلى قيد شبر في ضريح آخر لعالم كبير اسمه ابن كثير دفن الافرنسيون كلبهم بعد ان نبشوا قبر المؤمن وبعثروا عظامه فاصبحت كالهشيم تذروه الرياح . هل ضاقت دمشق على رحبها حتى اضطر المغتصبون الى اغتصاب قبور الائمة لتكون مثوى الكلاب ؟! رأى المستر كراين تلك المناظر المؤلمة وسمع بأذنه شرح الطفل وكيف دفنوه في القبر المنبوش واظهر اشمئزازا عظيما وطلب من المستر برودي ان يقيد جميع تلك الملاحظات . ومن ثم خرجنا واجمين صامتين ، فودعته وانصرفت بعدما تواعدنا للقاء في النزل في الساعة الثامنة من اليوم الثاني .

زيـارة الميتم الســوري :

لم يحدث يوم الاثنين ٣١ نيسان ما يستحق الذكر سوى اننا ذهبنا الى الميتم السوري ، الذي كانت مديرته المسز فيشر وهي سيدة اميركية اهتمت بالمسألة السورية كثيرا ، وكانت تعطف على الامــير فيصل واخيه الامــير زيد عطفا صميميا ، وبعد الاحتلال الافرنسي اشار عليها القنصل الاميركي بمغادرة البلاد لما قد يضمره عليها الفرنسيون من البغضاء . ومما يسجل لها انها شوقت الناس الى لبس الالبسة المزركشة والمزينة على الطريقة الوطنية . وبعد سفرها تسلمت الانسة اليس قندلفت وظيفتها فقامت بخدمة الميتم احسن قيام . وقد شاهدت مع المستر كراين عملها فشكرنا لها اهتمامها ونشاطها والنظافة البادية على تلميذاتها . ويضم الميتم السوري البنات اليتيمات اللاتي تتراوح اعمارهن بين الخامسة والثانية عشرة وهن يصرفن جل اوقاتهن في تعلم القراءة والكتابة والتطريز وعمل السجاد على الطريقة العجمية . وقد وجدنا بينهن بعض بنات كن في مدرسة بنات الشهداء فأظهرن لنا عطفا عظيما على تلك المدرسة ورئيستها نازك العابد ثم قمن امامنا يعملن الرياضة البدنية علــى ايدي طبيب روسي اتى دمشق هو وزوجته الطبيبة ايضا فرارا من البولشيفك ، فكانت المدرسة مع ما تحدثه بالنفس من بهجة النجاح تعيد الى الذاكرة الحوادث المؤلمة التي جرتها الحرب الغاصبة على البلاد . وقد تواعدنا بعد ذلك والمستر كراين على اللقاء في اليوم التالي الساعة الثالثة وهو موعد اجتماع الميدان .

كراين يزور حــي الميدان :

في ٤ نيسان سنة ١٩٢٢ و في صباح الثلاثاء أتاني بعض أهالي الميدان وكلفوني أن أدعو لهم المستر كراين للاجتماع به ، ومحادثته ، فكلفته في الصباح ، فقبل ان يذهب الساعة الثالثة بعد الظهــر ، وكان عنده السيد ابو الخير الموقع فقال : انه مكلف المستر كراين الى

دعوة غداء في بستان القصاع في حي الزينبية فلم يقبل ، فقلت له : انظر قليلا حتى ادعوه انا ، فلما دعوته سألني هل هذا الوجيه من المعروفين في دمشق ؟ فشهدت له الشهادة اللائقة به فقبل وتواعدنا على أن آتيه في اليوم التالي الساعة الثانية عشر للذهاب معا . وقد اقترحت أن يكون الاكل وطنيا أما الاجتماع في حي الميدان فقد جرى كمـــا يلي :

وهو انني ذهبت واياه في الساعة الثالثة الى بوابة مصر حيث كان بانتظارنا على الجادة حسن بك الحكيم وغيره من اخواننا ، فدخلنا في طريق ضيقة حتى وصلنا الى بستان الاخ المذكور فوجدنا بانتظارنا نحو مائة من الاعيان والادباء ورجال الفضل وقليـــلا من عامة الشعب على الحالة الفطرية الساذجة وجل الموجودين هم من أهل الميدان ، فلما رأوا المستر كراين استقبلونا استقبالا شائقا جدا بالاهازيج القومية والاناشيد الوطنية والتصفيق المتواصل ولما استقر بنا المقام أخذ الجلوس يقصون عليه طرفا مما يعانون ، وابتدأ الكلام سعيد بك حيدر بحديث ممتع قانوني مستندا الى الوثائق وخلاصة قوله : « لانني محام فسأبدا كلامي بما يتعلق بمهمتي من الامور الحقانية . ان من اهم دعائم الحكومات هي الادارة العدليـــة اذ عليها يتوقف توزيع العدل بين الناس ولقد حدث بهذه الادارة بعهد الافرنسيين امور يحذرهـــا القانون » . وأتى بأمثلـــة كـثيرة منها مسألة القتيل عمدا في حمص وتبرئة القاتل من قبل البعثة ومسألة الجامع وتخليصه من الاوقاف بأمر من المستشار في حمص ومسألة ثالثة تتعلق بالبدوي والحضري في لواء حماه وذلك لمصالح الحكومة الافرنسية فقط لتقترب من مشايخ وأمراء العرب منهـم امير السعود . ولمـــا اخبرناه أن سعيد بك من بعلبك قال : « أنت بنيت حيطان القلعة ؟ ووضعت ذلك الحجر الكبير ؟ » . . . ثم تكلم بعده السيد عبد الغني افندي الحسن احد تجار الطحين فأظهر الخطر الذي يهدد أهل حرفته وذكر أنه يوجد في دمشق الشـــام

احد عشر معملا للطحين مع نحو مائتي مطحنة حجر وطنية . والان اذنت الحكومة الافرنسية لشركة افرنسية ان تؤسس معمــــلا (فابريكة) فمتى انتهى بناؤه ماذا يكون مصير أهل حرفة الطحين والبوايك والعمال وغيرهم ؟ ثم تكلم بعده أبو راشد حافظ من بني الحكيم بخصوص الوعود التي قطعت للعرب ، ثم الخيانة الكبرى بعد ان تم للحلفاء النصر فثنى على كلامه السيد صادق الرجال أحد التجار النبهاء . ثم نهض الدكتور خالد الخطيب أحد الاطباء النابهين وابن المرحوم محمد بك الخطيب المعروف بوطنيته الصادقة فالقى بعض الكلمات بين فيها مطلب الامة وهي تختصر في المــواد الثلاثة الاتية :

١ ـ الاستقــلال .
٢ ـ وحدة سورية في حلف عربي .
٣ ـ ترك البت في الخلافة للمسلمين .

فهي من شؤونهم الخاصة . وبعده قام السيد عبد اللــه النجار أحد اعضاء الرابطة الادبية في دمشق فألقــى بعض كلمات بالانكليزية لا تخرج عما تقدم . وهنا انفض المجلس بين تصفيق المصفقين وهتاف الهاتفين الذين حملوا المستر كراين على الاكتاف وطافوا به في الحديقة . ولما خرج ودعوه الى الطريق حيث وجدوا زمرة من الجواسيس فروا عند تعارف الوجوه . ولكن السيد حسن الحكيم تقدم اليهم وقرعهم على هذا العمل المشين . وقال لهم لماذا لم تدخلوا لتروا بأعينكم وتسمعوا بآذانكم الاحاديث التي جرت وبذلك تتمكنون من القيام بوظيفتكم الجاسوسية بصورة صادقة لا غبار عليها ؟ فانهزموا من وجهه متظاهرين بالحياء والخجل ولكن بواطنهم لا يعلمها الا الله .

اجتماع كراين بنساء الشهداء :

خرجنا من الميدان توا الى المهاجرين حيث خرجت نســاء

الشهداء للاجتماع بالمستر كراين في بيت المرحوم السيد شكري العسلي . فاجتمع بهن وطيب خاطرهن وسمع منهن مرة ثانية تلك الرغائب الوطنية والآمال القومية التي بذل الشهداء انفسهم على اعواد المشانق في سبيلها ، فكان اجتماعا مهما تجلت فيه تلك النهضة الشريفة المباركة في نسائنا ، وقد تقدمت زوجة المرحوم رشدي بك الشمعة شهيد القضية العربية الى الزائر الكريم بوجه وشفتين مرتجفتين من فرط التأثر وهي تقول : لم يمت رشدي بك الا لاجل سلامة الوطن وان هذه المحن التي تئن منها توجعه في جدسه فان لم تترفقوا بالاحياء ياسيدي بالله ترفقوا بالأموات ولا توجعوهم في مضاجعهم . تأثر المستر كراين من هذه الجمل جدا ، وزادفي تأثره السكوت العميق الذي اعقب ذلك بحيث كان يقرأ على الوجوه الصامتة ما تعانيه الانفس من الآلام . ومن قرأ اخبار الاستفتاء عام ١٩١٩ يوم سمع المستر كراين نفسه ما جاءت به عواطف الامة السورية يذكر ولا شك تلك الجلسة الرنانة التي عقدتها حرم الشهداء وكان لعقيلتي الشرف أن تكون بينهن ، فأبدين من الوطنية الصادقة ما يبقى مسجلا بتاريخ سورية بمداد من الفخر . قالت احداهن يومئذ : « لاتحرمونا من صوت الحرية وتلقونا في مهاوي الاستبعاد ، ان حياتنا تكون عبئا ثقيلا اذا كان رجالنا ارقاء ، لأن زوجة الرق لا يحق لها ان تكون سيدة في بيتها . »

زيارة مصطفى باشا العابد وابنته نازك :

خرجنا من بيت العسلي وكنا على موعد مع الآنسة نازك العابد في بيت والدها فذهبنا اليه توا حيث وجدناها ووجدنا والدها واخاها وابن عمها بانتظارنا . وقد سألها المستر كراين عن مدرسة بنات الشهداء التي كانت رئيستها ما فعل الله بها . فقصت عليه طرفا مما أجراه مدير المعارف محمد افندي كرد علي يوم اغلقها قالت : باغت رجال المعارف في العشرين من شباط سنة

١٩٢١ الساعة التاسعة ليلا مدرستنا (نور الفيحاء) ومعهم رجال الشرطة وطلبوا تسليم المدرسة بما فيها من أثاث وأدوات وذلك بتحريض محمد كرد علي وأمر الحاكم حقي العظم ، فتوسلت المديرة السيدة صبيحة التنير بجميع الوسائل لتأجيل هذا العمل الى الصباح فلم يمهلوها وأخيرا ارسلت الى حقي العظم مع احدى المعلمات تقول له : ان عصابة الاشقياء الموجودة على طريق الصالحية عند عرنوس تسترحم من مكارمكم ان تمهلوها الى الصباح ريثما تتمكن من جمع سلاحها وتسليمه فقال : وأي عصابة تعني ؟ قالت : تلك العصابة التي قطعت السابلة وأخلت بالامن العام عصابة بنات الشهداء ومعلماتهن ومديرتهن فخجل حقي بك وارسل معها امرا يقضي بالامهال الى الصباح .

وقد اخبرتني في صباح اليوم الثاني بما جرى ورغبت الي بالمجيء الى المدرسة قبل وصول الشرطة فأقمت آسفا وأمرتها بتسليم جميع ما يطلب منها وارسلت معها الكلمات الآتية الى التلميذات : (أن جمعية نور الفيحاء قد بذلت منتهى جهدها زهاء سنتين حتى بلغتن هذا المبلغ من العلم والتربية وهي ترجو من الله ان تكن خير مثال لبنات قومكن ، بيد ان الحكومة رغبت أن تنتزع روح الوطنية من نفوسكن وثمرة العلم من ادمغتكن ، ولنا وطيد الامل أن تحافظن على مبدئكن القومي ، فلربما يأتي يوم نجمع فيه شملنا) . (خلاصة وثيقة أخذت من السيد توفيق الحلبي في أرواد ٢٢ تموز سنة ١٩٢٢ وهي توافق كلام السيدة نازك العابد .)

ولما انتهى الحديث أظهر المستر كراين من الاستياء ما لا يوصف وقال انه ارسل الى المدرسة بمعرفة المسز فيشر بعض الهدايا المدرسية اشتراها من باريس بقيمة عشرة الاف فرنك اخذا بناصرها وهو غريب عن البلاد ، فهل يعقل ان يقدم أحد لا سيما اذا كان من الوطنيين على اغلاقها ؟ . فقالت : ان الهدايا لم تصل

ولكن بلغها من بعض القناصل انهاضبطت. وجرى في اليوم السابق ان المستر كراين بعد زيارته الميتم السوري فاتحني في عزمه على انتقاء آنستين من أوانس سورية للذهاب الى امريكا للتعلم على حسابه ، فاستحسنت هذا الرأي وشكرت له عواطفه الشريفة وذكرت له اسم الآنسة أليس قندلفت واسم الآنسة نازك العابد ليكون حظ المسلمين والمسيحيين من معونة أهل الفضل واحد . فقبل اقتراحي وفي المساء فاتح الآنسة نازك بالامر فأظهرت رغبة شديدة ولكن والدها اظهر شيئا من التردد واستمهلها في اعطاء الجواب القطعي بضعة ايام . ربما كان للتقاليد الاسلامية الشرقية الشأن الاكبر في التردد . واما السيدة أليس فانها قبلت الاقتراح هي ووالدها مع الشكر ، وقد قال المستر كراين انه يصعب عليه ان لا يرى بين العرب من تضارع تلميذته التركية خالدة أديب خانم، ثم ودعت المستر كراين .

كراين في بستان القصاع :

وفي ظهيرة اليوم التالي وهو يوم الاربعاء في ٥ نيسان صحبته الى بستان القصاع لحضور دعوة الغداء فكان البستان روعة غناء تخلب الانظار . وبعد هنيهة قال ليس شيء في الدنيا يشبه حدائق بخاري مثل هذا البستان والدكوك الترابية من حوله . انه يعيدني طرا الى ذكرى الماضي وعهد الصبا يوم زرت تلك المدينة منذ ٤٥ سنة وتعرفت على علمائها واطلعت على فضائلهم الفريزية ثم انحنى فاقتطف زهرة من بين رجليه وشمها وقال أريج زكي وتربة صالحة . دخلنا الدار . فاستقبلنا لفيف من افاضل القوم وعليتهم يتجاوز عددهم الخمسين منهم الحافظ المشهور ، الشيخ محمد الحلواني ، والشيخ عبد القادر الاسكندراني ، الداعية المعروف ، ويحيى حياتي ، قائد منطقة حمص (وكان اركان حرب في الجيش العثماني) وياسين باشا الهاشمي رئيس ديوان الشورى الحربي ، وعبد الحميد باشا

وزير الحربية السابق ، وعادل بك العظمة من المحامين المعروفين ، وزكي بك الحلبي قائمقام ومفتش الدرك في حوران ، وغيرهم من رجالنا المشهورين .

اقترحت ان تبدأ الحفلة بتلاوة عشر من القرآن الكريم فأخذ الحافظ الشيخ محمد الحلواني يتلو علينا ونحن سكوت سورة مريم فترجمت للمستر كراين عباراتها الفصيحة ومعانيها البليغة ثم بينت له كيف ان المسلمين لم يحتفظوا فقط بكلمات القرآن واعرابها وعدد السور والآيات وترتيبها وبحيث لا يوجد اقل اختلاف بالمصاحف في عامة أنحاء الدنيا بل قد احتفظوا بالالفاظ والتجويدوالقلقلة ايضا فترى الفاظ التاليفي دمشق مثلالفاظ التالي في القاهرة أو تونس على اختلاف الدار وبعد المزار واختلاف النطق بالكلام ، وهذه الالفاظ منقولة بطريق المنعنة عن عصر الصحابة فقد كتبه الخليفة الثالث وفرقه على الانحاء الاسلامية الاربعة وكان لدمشق الشام الحظ أن حصلت على نسخة من هذه المصاحف العثمانية ، ولكنها يا للأسف أتلفتها النار في الحريق الذي التهم الجامع الاموي منذ ثلاثين سنة .

ظهر المستر كراين لذة عظيمة بهذه الفزلكة المجملة والح علي ان انقل له صحيفة من صحائف ما تلاه الشيخ فوعدته . وذكر لي انه رأى شيئا من هذه المحافظة على هذه التلاوة عند الصينيين البوذيين وعنده صفائح مغولية اخذها في بكين ترجع الى الوف من السنين .

ثم انبرى بعد ذلك الاديب الخطيب السيد محمد الشريقي فألقى خطابا ممتعا بناه على ثلاثة احاديث أحدها : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » . وقد كانت علائم التأثر بادية على وجهه ويديه ولكن صوته كان جهوريا حسنا فتأثر المستر كراين من كلامه ورغب اليه

أن يعطيه هذا الخطاب اللطيف ، وتكلم الضيف بنهاية الامر بكلام لا يختلف كثيرا عن الكلام الذي فاه به في حفلة الميدان . ثم قمنا الى المائدة فوجدنا الطعام هو ما يقدم في دمشق عادة في فصل الربيع يعني الارز بالفول مع اللبن الرائب والقطايف العصافيري . فقال المستر كراين طعام صحي جامع مانع فيه الخضرة واللحم فملأ منه طبقه مثنى وثلاث ورباع ولكن لم يحفل كثيرا بالحلوى . أما المستر برودي فانه كان على العكس من ذلك اذ أكل من القطائف مع القشطة ماشاءت معدته ان تأكل وتتحمل ، وقد ترك المائدة وبوده لو يملؤ جيبه منه ليأخذ معه هدية الى الولايات المتحدة . انتهينا من الاكل فشربنا القوة البدوية مع الهال ، فكان لها نشوة في النفس ، واخيرا ودعنا القوم وانصرفنا .

طلاب الحقوق يلتفون به :

بعدما سرنا في المركبة بضع خطوات التقينا بتلامذة معهد الحقوق فتقدموا الينا وعرضوا على المستر كراين مطالب البلاد وهي لا تخرج عن المطالب الثلاثة العامة التي تقدمت في الاجتماع الاول فطيب خاطرهم وانا قلت لهم حافظوا على العهود التي عاهدتم عليها بلادكم وثقوا بأنفسكم ومستقبلكم . والظاهر أن أحد الجواسيس وما أكثرهم بيننا شوه هذه العبارة ونقلها على صورة تذكار بعهود سرية سابقة لهم معي فأتت في ورقة الاتهام في المحكمة بهذا المعنى .

ودعت المستر كراين وانصرفت الى اعمالي بعد ان وعدته ان الاقيه في النزل في الساعة التاسعة والدقيقة ثلاثين . ولكنني لما رجعت الى بيتي في المساء علمت انه اتى الى زيارتي وطلب ان يكون مجيئي قبل الموعد بساعة فحضرت له جميع المذكرات والاوراق التي تهمه وقد اتاني بعضها من فلان و . . . و . . . وكلها تتعلق بالشكاوى التي ذكرها له الاهلون بيد انني

في آخر الامر فضلت أن لا اسلمه شيئا منها الا في الساعة الاخيرة لاني كنت اخشى ان يسرقها منه احد من التراجم الذين كانوا معه ، خصوصا بعدما بلغني ان الجواسيس الذين كانوا يحيطون به من كل جانب حاولوا بالاغراء ان يأخذوا طرفا من اخباره فلم يفلحوا .

كراين يخبرني بعزمه على زيارة جزيرة العرب :

ذهبت اليه في المساء في الوقت المعين فوجدت بانتظاره السيد منير شيخ الارض وابن عمه فؤاد افندي فعرفته بهما فذكرا له مطلب الامة السورية واستماتتها في سبيل حريتها واستقلالها ، ثم ودعاه وانصرفا اما انا فبقيت لأذكره بالشؤون فقدم لي قدحا من الشاي الصيني الأصلي لم أذكر انني ذقت ما هو الذ منه ، وبعد ذلك فاتحني بالموضوع الاتي الذي كان يذكره لي عرضا بالتلميح في الاجتماعات الماضية : وهو انني عازم على زيارة جزيرة العرب من العسير فبلاد الامام فنجد فالعراق في الخريف الآتي ، وقد ذاكرت فتحي باشا وزير الاوقاف في مصر في هذا الامر فاستكتب احد اصحابه من اليمانيين في القاهرة كتابا الى حد اصحابه في عدن رغب فيه اليه ان ينتظرني في تلك الجزيرة في نوفمبر القادم لنذهب معا الى جهبا مقر الادريسي وصنعاء مقر الامام يحيى بعد ان يهيأ لنا حاجاتنا جميعا فيما رأيك في هذا الطريق ؟ فقلت له : اذا كنت عازما على زيارة شمال الجزيرة فلم لا تعكس القضية فتسافر من هنا الى العراق فنجد اولا ، ثم من نجد الى اليمن فالعسير ثانيا ؟ خصوصا وقد بلغني منذ نحو اسبوعين ان السيد محمد البسام التاجر المعروف سافر على سيارته الخاصة مع سيارة اخرى استأجرها لوضع الذخيرة والزاد الى بغداد بطريق الحجاز ، وانه ربما وصل اليها بمدة ثلاثة ايام . فاخرج المستر كراين من جيبه خريطة بلاد العرب ورغب الي ان ادله على طريق الحجاز فدللته عليه وقلت له انه يكاد يكون خطا مستقيما الى الشرق اتجاها مضبوطا ، وان هذا هو الطريق الذي كان يسلكه الساعي أيام

الحكومة العثمانية . فكان يخرج من الشام فيصل الى الكبيسة على ابواب بغداد في مدة اسبوع، وذكرت له ما حدث معي وهو انني لما سافرت الى العراق في نوفمبر سنة ١٩١٥ اوصلتني القافلة بطريق العراق الى الهيت بعد ثلاثة وثلاثين يوما حيث اجتمعت بنجابة خرجوا من الشام بعد سفري بخمسة وعشرين يوما فسافروا بطريق الحماد هذه فالتقينا في الهيت بيوم واحد .

استحسن المستر كراين اقتراحي هذا ودعاني ان اكون رفيقه في هذه السفرة العجيبة فقبلت بعد تردد لاسباب سأبينها . ثم اخرج من محفظته حوالة فأملاها باسمي على مصرف نيويورك بمبلغ ١٠٠٠ دولار (ريال اميركي) وقال اعط منها خمسماية ريال الى الانسة قندلفت . واذا ما سافرت الانسة نازك (واظنها غير مسافرة) ارجو منك ان تشتري لي بالمبلغ الباقي الحاجات الضرورية لاسفار الصحراء . وفي اواخر سبتمبر القادم اوصي لنا على ثلاث سيارات فورد جديدة سأقدم لك قيمتها من نيويورك وستكون غايتنا العراق اولا اذ نبقى هناك اسبوعا كاملا للراحة ، ومنها نسافر الى نجد فاليمن لدرس القضية العربية في موضعها . ولكن ارجو منك ان تنتبه كثيرا الى ضرورة التكتم بشأن هذه السياحة التي ستكون لها من الرنة اضعاف ما لهذه .

عرفت غيرة المستر كراين على الامم المستضعفة وبعده عن خدمة المعسكرين على اختلافهم اذ تجلى لي ذلك في سنة ١٩١٩ ورأيت امامي فرصة سانحة لزيارة بلادي ومهد الجنس العربي مرة ثانية فقبلت منه على كثرة مشاغلي الخاصة وما يتطلب مني في مهبط رأسي . وهكذا ودعته وانصرفت على امل اللقاء لوداعه في الصباح . واذ كنت خارجا من حجرته التقيت بالمستر آلن قنصل اميركا في دمشق وقد اتى لوداعه كأنه اراد ان يشير بها الى ما في زيارة المستر كراين من المرامي السياسية .

تجميع الناس لوداع كراين :

اسرعت الى داري لان العمل امامي شاق تلك الليلة وهو اذاعة سفر المستر كراين بين الناس لكي يتجمع له في الصباح من المودعين عدد يستطاع تحويله الى مظاهرة سياسية يتشجع بها الناس على حذو الامم الراقية الطامحة الى خلع نير الاستعباد ، ويتخذون منها حجة يهدمون بها كل الاعمال المأجورة التي كان يقوم بها المستعمرون بواسطة اذنابهم امثال بديع المؤيد ومحمد كرد علي وحقي العظم من اذاعة رضاء السوريين عن الانتداب وما يتبعه من تلك الحكومات السورية المحلية التي هي آلة عبادة للتخريب ومحق الروح الوطنية ، مررت بطريقي على ثلاثة من انشط الشباب فاسرعت اليهم بقصد ، ومن ثم ذهبت الى داري فوجدت بانتظاري لفيفا من العلماء والافاضل منهم الشيخ اديب تقي الدين والشيخ توفيق المنيني والسيد عبد الستار السندروسي ، ثم اتى بعدهم فوزي بك الغزي وعادل بك العظمة فرجوت منهم جميعا ان يسرعوا حالا الى طرق الابواب المغلقة واعلان سفر المستر كراين عند اصحابها . وقد كانت غايتي من هذا التأخير في اذاعة السفر مفاجأة الحكومة كي لا تستطيع ان تأخذ اهبتها وتحبط العمل . ودعني هؤلاء الاخوان وانصرفوا بالعمل الذي اودع اليهم ، اما انا فتناولت من الطعام ما سد الرمق واسرعت الى بيوت النشيطين من بقية الاخوان فأيقظت أصحابها وبينت لهم شأن الوداع وعدت الى بيتي افكر في اتمام العمل ولكنني كنت على كل حال قانعا بأن تشبثي سيأتي بالنتيجة القطعية .

سعيد حيدر يبين له نسبة ارتفاع الضرائب :

قمت باكرا صباح الخميس في ٦ نيسان سنة ١٩٢٢ فجمعت الوثائق المهمة التي اعطانيها اصحابها باسم المستر كراين ، وبعد ان افطرت وضعتها في جيبي وتدرجت نحو النزل . وما بلغت نصف

الطريق الا ووجدت الشيخ اديب تقي الدين في الترمواي مع مجموعة من المشايخ فتركهم ونزل فسار معي ولما بلغنا النزل وجدت كثيرين من الوطنيين يروحون ويغدون فأشرت الى الشيخ والسيد عثمان الشرباتي والى غيرهما ان يجمعوا الجموع ويهيئوا للساعة العظيمة.
ثم صعدت الى حجرة المستر كراين فوجدت عنده سعيد بك حيدر يذاكره ببعض الشؤون، وفي نهاية الامر اخرج من جيبه وصلا ماليا من الحكومة لاحد الاعيان بالضريبة المالية على مركبة وقد دلت الارقام على ما يأتي :

على الاصل التركي

١٥٠

٤٥٠ الرقم التحويلي للغروش السوري
١٥٠ الضريبة المتحولة واصلها ٥٠ تركيا

٦٠٠
٦٠٠ ضمائم عجز الميزانية مائة في المائة

١٢٠٠
١٢٠ حصة البلدية في الـ ١٠٠/١٠
٥ ١٩ تذكرة
٥ ضبط كسور

١٣٤٠

وضع المستر كراين هذه الوثيقة الرسمية في حقيبته وعجب كثيرا من تزايد الضرائب بهذه السرعة النادرة ، خصوصا بعدما علم ان اعظم دعوى كان بينها الجنرال هي تعهده للاهلين بمناشير القاها من الطيارات قبيل موقعة ميسلون انه سينزل نسبة الضرائب ويرفع شأن الحرية ؟... وهل أعظم من هذا التأثير في الضرائب الى اعلى واشد من هذا الرفع في الحرية الى اسفل (١٥٠ غرشا) ايام الحكومة العربية الفقيرة ضريبة على مركبة لاحد الاعيان اصبحت

١٣٤٠ غرشا ايام الحكومة الفرنسلوية المساعدة؟ ... وحرية مطلقة في الكتابة والخطابة والاجتماع ايام الادارة البدوية الظالمة أضحت عشرين سنة في اعماق السجن للهتاف للحرية امام الادارة الاوروبية؟

منير شيخ الارض يقدم مذكرة المعهد الطبي :

وبعدما انهى حديثه سعيد بك دخل منير افندي شيخ الارض وبيده ملف ناوله للمستر كراين . وقال هذه مذكـرة من تلاميذ المعهد الطبي فيها الرغائب القومية التي عرضتها على مسامعكم البارحة بحضور خالي الدكتور فتناولها منه شاكرا ووضعها في الحقيبة ثم ودعه وانصرف .

كراين يستعد لمغادرة البلاد :

ازفت الساعة التاسعة ولم يعد لموعد السفر الا قليلا فقام المستر كراين ولبس ثيابه السفرية وانا ناولته جميع الوثائق التي جمعتها له فوضعتها في حقيبته ثم دخل المستر برودي وقال كل شيء جاهز يا سيدي فنزل ونزلنا معه ولما اطللنا على بهو النزل وجدناه مملوءا بالمودعين فذهب المستر كراين لوداعهم وهناك قال : « ما اشد سروري برؤيتكم واسفي لاضطراري الى مغادرة مدينتكم وسيكون الدكتور كنج مسرورا جدا من نتيجة تحقيقي » فهتفنا للدكتور ، ثم قال : وستكون عقيلتي مسرورة ايضا فهتفنا : فلتحيا المسز كراين . ثم علا الهتاف من كل جانب للمستر كراين . ثم قال «اتيت لهذه البلاد في وقت لا يسمح لي سني بنظرها للسفر لكي ارى البلاد التي زرتها مع اصدقائي سنة ١٩١٩ ، ولا يمكنكم ان تقدروا السرور الذي يصيبها من نتيجة هذه التحقيقات البديعة .. تمسكوا بقضيتكم فانها عادلة وتوسلوا اليها بالوسائل العصرية لا بالطرق القديمة » .

فتعالت الاصوات ايضا ودوى النـــزل من كثرة الهتاف

وتساقطت الدموع على الخدود من شدة التأثر فلفت نظره الى ذلك بالاشارة الى الشيخ اديب تقي الدين ، كان واقفا ورائي وكانت خدوده مبللة من كثرة البكاء ، ثم هتفنا للاستقلال السوري والاستقلال العربي والدكتور ويلسون والامة الاميركية .

وداع كراين وانقلاب المسيرة الى مظاهرة :

وبعدذلكنزل فنزلت الجموع ورائه واسرعت انا الى الاحاطة بالسيارة ودعوت بالتلميح والاشارة الى مشاركتي في هذا العمل فكان الاستعداد شاملا ولربما كان اكثر الواقفين يتوقعون مثل هذا الوداع . ركب المستر كراين السيارة وبجانبه المستر برودي وامامهم التراجمة فصاح الناس من كل جانب بالسلامة وعلى الطائر الميمون ، فلم يبق احد داخل المنازل الا وخرج الى الشرفات لرؤية هذا الجمع الحافل وكانت دائرة حصر الدخان خاصة مكتظة بالناس من غربيين وشرقيين ، فأخذتهم الدهشة واعتراهم الذهول من هذا المنظر الغريب : عمائم وطرابيش وجبب واردية تتعالى اصواتها فلا يكاد يفهم المستمع من تلك الضوضاء الا ما تشير به الانظار المتجهة من كل حدب وصوب نحو قبعة في السيارة من علائم الاجلال والاحترام .

اراد السائق ان يسير على بركة الله ولكن الحماس عند المودعين اعتوره ووقف في سبيله فمنعه من السرعة اين كان يتوخاها، والتي كان ربما يتوخاها المستر كراين ، وهكذا نفذ السهم وخرجت القنبلة من المدفع فلم يعد القياد بأيدي احد بل الجميع استدارتهم العاصفة وحولت وجوههم نحو الشارع المؤدي الى ساحة الشهداء فساروا وسرنا معه وما كدنا نقطع بضع خطوات الا وقد انتصب امامنا على مقدم السيارة رجل اسمر اللون بثياب سوداء تدل ملامحه واهتزازات جسمه على الانفعال ، فأشار بيده اشارة سكوت فسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير ثم صاح بنبرة مصرية فصيحة لا شائبة فيها :

بين مصر ونيلهـــا والشام عهد صدق ووحـــدة ووئـــام
وابن مصر وسورية اخـــوان رغم انف الاعـــادي الطغـــام

فدوى الشارع من كل جانب بالهتاف لمصر ولاستقلال مصر ولسعد زغلول فاجاب على ذلك بالهتاف لاستقلال سورية وصاح باعلى صوته : « فليسقط الانتداب الافرنسي » فكأنما زادهم بذلك لهبا على لهب بحيث اخذ المنشدون بطبيعة الحال يعيدون الاناشيد الوطنية التي تعودنا على سماعها ايام حكومتنا الوطنية ، ولما وصلوا الى القطعة المعروفة :

نحن لا نرضى الوصاية لا ولا نرضى الحماية
نحن اولى بالرعايـــة لبني العرب الكرام

نشر الناس مناديلهم البيضاء في الهواء واخذوا يعيدون من هذا النغم طول طريقهم وانا كنت واقفا على رف السيارة اترجم للمسافر معنى النشيد ، ولفت نظره الى العدد العظيم من المودعين الذي كان يتزايد مع كل خطوة يخطوها اضعافا مضاعفة ، ولما صرنا على مقربة من دائرة الاوقاف خرج الى شرفاتها لفيف كبير مـــن المشايخ تهتف وتصفق للاستقلال . وكان الباعة من الجانبين يرشون علينا ماء الزهر وينثرون على السيارة والمحيطين بالسيارة الزهور والرياحين . ولما صرنا امام الحمام الناصري سرت عدوى المظاهرة جماعة من المتبرنطين فرفعوا قبعاتهم اجلالا واحتراما وصاحوا مع الصائحين . ولما وصلنا الطريق التي تحاذي سوق علي باشا التحق بالسيارة ووقف على رفها سيدتان متقنعتـــان احداهما عقيلتي والثانية شقيقة شهيد العرب شكري بك العسلي حيتا المستر كراين وهتفتا هتافا عاليا للاستقلال ، فأثر هذا المشهد في الناس تأثيرا يعجز القلم عن وصفه بحيث كانت الدموع تنهمـــر على الخدود كالسواقي فكنت ترى الجموع تموج كالبحر وهي تتهادى في سيرها وتتمايل كالسكران من خمرة النصر وجيشان الصدر ، والخلاص

من الاسر وراء تلك اليقظة ضرب من الاحلام ألهذا الحد بلغ الشعور الوطني حتى صارت المسلمات المخدرات تشارك الرجال في حمل علم الثورة ؟ ام هل دار الزمان دورته فعادت خولة من مرقدهــا لتجاهد في سبيل الحق واعلاء كلمة الله ؟ واذا كان هناك علامة ثانية على دبيب الحياة في اجسام اقوام الشرق فهــي اشتراك المرأة المسلمة في اظهار العاطفة الوطنية بعدما كانــت في خدرها لخدمة منزلها فقط فالاستانة والقاهرة وقازان ودمشق ايضا والحمد لله تساوى الجنسان فيها في طلاب العز وغلاب الضيم .

ثم ان المودعين رأوا ان لا يفوت المستر كراين شيء من تفاصيل هذا الوداع الحافل فأوقفوا السيارة واستأذنوا فكشفوها وانزلوا ستائرها . لفتنا لفتة السنجقدار ودخلنا في اول ساحة الشهداء فوجدنا ضابطا افرنسيا واظنــه الرئيس موبسان فصاح المودعون في وجهه بصوت واحد وعلى رأسهم منير افندي شيخ الارض لتحيا الحرية فأطرق ولم ينبث ببنت شفة ، ثم ما زلنا نسير حتى صرنا بجانب المجلس البلدي فأشرت الى عقيلتي ان تهتف للامة العربية فاستعلت على السيارة ورفعت يدها وما كادت تصيح « فلتحيــا الامة العربية » حتى دوت الساحة بالهتاف من كل جانب ، فكنت ترى الناس على الشبابيك والشرفات والبيوت واللوكندات من هذا المنظر الغريب ما تمالك بعض الموظفين على شرفة دائرة الحكومة وهم بجانب الحاكم العام من التصفيق والهتاف لهذه الحياة الجديدة التي تأخذ بمجامع القلوب . وكان من جملة هؤلاء الموظفين وفي مقدمة المتحمسين زكي بك الخطيب مدير رسائل ديوان الحاكم فكان جزاؤه ان الغيت وظيفته عقيب الحادث فورا . ومن الغريب ان احدهم صاح « هنا فليسقط الخائنون » فأجابه الناس من غير اختيــار فليسقط الخائنون مشيرين بأيديهم الى دائرة الحاكم والى المتربعين فيها على مدافن الامة السورية ، وما زالوا يرددون هذا الهتــاف

السلبي . وهم كلما تقدموا خطوة ازدادوا حماسة وتضاعفوا عددا حتى صاروا على مقربة من دائرة الشرطة . هنالك اشتد الهيـاج وتعالت الاصوات الى عنان السماء بالدعاء على الخائنين اعداء الوطن والشرف فانبرى للناس رفيقنا في الحكم والسجن الاستاذ العفيفي واعتلى السيارة وهو يصيح باعلى صوته « لا يوجد في سورية خائن بل الكل وطنيون مخلصون » فأجبته ان الذي ينشق عن الجماعة ولا ينزل على حكم الامة ولا يطلب ما تطلبه من الخير هو خليق بأن يسمى خائنا ، ثم انني لاحظت وانا انطق بهذه الكلمات ان مفوض المركز واسمه حسني افندي المأمون من حمص وقف على رأس سلم الدائرة وصاح بالناس ان يتفرقوا ودل اصفرار وجهه وتلعثم لسانه وارتجاج يديه واهتزاز بدنه على شدة خوفه وما تعانيه نفسه من الاضطراب ، ولكن اين من يسمع واين من يبصر واين من يلتفت الى كلام تتفجر منها الحمم ؟. لفتنا لفتة الجسر على نهر بردى ومـا زلنـا نسير بركاب المسافر حتى بلغنـا نزل فكتوريا فأشرت الـى السائق ان يقف لاجل الوداع فوقف وسكت الناس وسكنت الحركة فقلت بالانكليزية للمستر كراين التفت الى ورائك يا سيدي واحفظ هذه الصورة بقلبك ، وستمر على اوروبا واميركا فترى فيها وهي ما تعانيه من الطمع الاشعبي وحب المادة القتالة أفرادا بضمائر حرة لا يزالون يحيون الانسانية ويغارون على الحرية فاذكر لهم هذا المنظر الغريب واشرح لهم المعاني التي تقرأها ، ثم قلت له بالعربية فليحيا الاستقلال ولتحيا شجرة الحرية التامة والى الملتقى ايهـا الرسول الكريم « اشارة الى ما ذكره عن نفسه في بستان الحكيم من انه اتى رسولا امينا وسيعود رسولا امينا » ثم اشرت الى الناس ان ينفضوا من حوله فما ابتعدوا حتى رفع قبعته وانحنى للجمـوع فصفقوا له جميعا وحينئذ ارخى السواق للسيارة العنان فطار يطوي الطريق طيا وآخر ما كنا نراه فيها المستر برودي واقفا وبيده

آلة التصوير يصور بها المناديل المنشورة والايدي المتموجة في الهواء.



العمل الشعبي بعد سفره :

سافر المستر كراين ولما عجزت الاجسام عن مجاراة سيارته سابقتها الآمال واكتنفتها الاحلام وطوقتها القلوب وهي تنادي من أعماقها على الطائر الميمون ، ولا يعلم احد منا ما كتب للبلاد في اللوح المقدور اللهم الا ان هناك شعبا حيا وشاهدا عادلا والها له حكمة ستحققها الايام رغم انف الفجار . ولما اردنا العود من حيث اتينا التف حولي لفيف من الشبان الناهضين وحملوني على الاكتاف وهم يصيحون ليحيا الشهبندر ، فكنت اقول لهم ليحيا الشعب الذي ما داخله القنوط وما خامره الريب . ودعت الجمهور وسرت في طريقي نحو بيتي في الصالحية فتبعني محمد بك اسماعيل وثروت بك الجعفري ، فصرنا نتحادث عن هذه الروح الشريفة في الشعب التي بدت للعيان وليس باستطاعة المستعمرين سترها .

قضيت مصالحي في بيتي وكنت على موعد يتعلق بمصلحة أهلية وصلح بين أقرباء فصلت بينهم الدنيا حينا من الزمن كما هي عاداتها ، فضمنا مجلس قصصت فيه ما حدث لنا في يومنا ووصفت ذلك الانفجار الطبيعي وصفا دقيقا ، فكانت دموع السيدات تسبح على الخدود وكان جميل بك الالشي رئيس مجلس الوزراء في اول العهد الافرنسي حاضرا فاعترته الدهشة ، ولولا ما رأى في وجهي الجد لظنني اهزل ، ثم التفت الي وقال : الآن انقضت ايام الحكومة الوطنية وربما اضطر الفرنسيون في القريب العاجل الى مذاكرتي واخذ رأيي في الشؤون الحاضرة فماذا ترى ؟. فقلت له ان كل حكومة تتخذ على عاتقها تبعة الاعتراف بالانتداب ستسقط لا محالة لان هذه الكلمة اصبحت بنظر الشعب ادنى من كلمة الاستعمار ، ولا

توجد طريقة من الطرائق التي سلكها الفرنسيون في تونس والجزائر الا وهم آخذون في تطبيقها في سورية تحت سر هذه الكلمة البراقة التي تخدعنا بها اوروبا ، فالشعب يفضل كثيرا انه اذا كان يقتل ويمثل فيه من ان يقال له انت بين براثن الوحوش الكاسرة وتحت انياب الثعابين ، لا في احضان امك الحنونة ، واقل ما يقال في هذه الحالة انه لا يكلف بتقديم الشكر منها ..

اجراءات الحكومة بشأن المظاهرة وبداية توقيفي :

ثم ودعت الحاضرين وانصرفت الى بعض اعمالي الخاصة ، وحينما كنت عائدا الى بيتي قبيل العصر واجهني علي آغا العسلي عند الجسر الابيض ، فقال لي : ان الحكومة قررت اتخاذ الاجراءات بشأن المظاهرة التي حدثت اليوم ، فقلت له ان لا يكترث لاعمال الظلام والبلاد تئن من الجور وتسعى لخلع نير الاستعباد ، ولا بد لها من البذل والمفاداة ، واننا ما اقدمنا على عملنا الا ونحن مستعدون لتحمل الكوارث .. أتاني لزيارتي الشاب ... رابطا فكه الاسفل ومتظاهرا بمرض اضطره لمراجعتي فقال لي ان مأمور التحري واقف في الباب ينتظرك وان الشرطة اخذت امرا بالقبض عليك وذلك بعد أن قررت البعثة اليوم ابعادك مع حسن بك الحكيم وسعيد بك حيدر ومنير افندي شيخ الارض والشاب المصري الذي هتف للاستقلال عند باب النزل مدة ثلاثة شهور ، وبعدما ودعني وانصرف أتاني زكي بك الخطيب فقال ان الحكومة اليوم بحثت بعد المظاهرة بحثا دقيقا في تطبيق قانون التجمع العثماني عما حدث ، ولكنها في آخر الامر لم تجد بابا تؤاخذكم به فاطمئنوا . وعقيبه اتاني ياسين باشا الهاشمي فذكر لي مثل ذلك فأخبرته بما كان من أمر الشرطة ومأمور التحري الواقف في الباب ، وقلت له: ان الاضطهاد سيزيد في ايامنا ولا اعتقد ان احدا من اخواني المطلوبين يحجم عن تحمل تبعة اعماله . وبعد ذلك دخل

المفوض وقبل ان أرافقه الى الدائرة اخذت القلم وكتبت الى الرئيس ويلسن ما معناه :

رسالة الى الرئيس ويلسن :

« لي الشرف ان اقص على مسامع حضرة الرئيس السابق للولايات المتحدة واذكره انني احد السبعة الذين وقعوا على المذكرة التي قدمت اليه بواسطة المعتمد السياسي السابق لحكومته في القاهرة سنة ١٩١٧ ، وفيها رغائب الامة العربية . ومن دواعي اغتباطي وتعزيتي ان الايام قد دلت بأفصح دليل رغم انف الدسائس على ان تلك الرغائب هي رغائب أمتنا المستضعفة ، ثم قلت له ان العهود الشريفة التي اقتطعها للناس على جبل فرنون والمبادىء السامية التي نشرها بجانب مرقد واشنطون ، لا تزال مصدر الهام المظلومين في الشرق والغرب . وان الكارثة التي سعينا جهدنا لتجنبها فرت كالصاعقة على رؤوس امتنا فأخذت تسحقها تحت اقدامها ، ويكفي أن أقول أن هتفة واحدة للحرية والاستقلال وللمبادىء السامية التي انطق الله بها الامة الاميركية على لسان رئيسها الكريم ادت بالحكومة المستعمرة الى اتخاذ قرار بتوقيفي وتوقيف بعض اخواني ، وربما نفينا جميعا بعد ذلك ، وسيقص على حضرته المستر كراين صديقه الامين ما رأى بعينه وسمع بأذنه في سورية من المظالم والمغارم التي بلغت ضجتها عنان السماء » .

ولولا الشرطي المفوض المأمور بالقبض علي ونقره على بابي يستبطئني ويستحثني الى مغادرة داري لكتبت له من تفاصيل امورنا ما يدله على ان البذور التي زرعها في العالم الجديد نبتت او كادت تنبت في العالم القديم ولا سيما في الشرق حيث المظالم على أتم مظاهرها .

رسالة الى المستر كراين في بيروت :

انهيت كتابي ورغبت للمفوض ان يدخل معي الى داخل داري

لآخذ ما أحتاج اليه ، فدخل فسلمت الرسالة الى ام محمد المرضعة وأوصيتها انه متى عادت سيدتها ــ ومن غرائب الصدف انها كانت مدعوة حينئذ عند زوج الحاكم للاحتفال بعقد قران احد ابناء عمها ــ ان تسلمها اياها لترسلها الى المستر كراين في بيروت بواسطة المستر آلن فهو قنصل الولايات المتحدة في الشام ، ثم دخلت الى غرفتي فتناولت من صندوقي بضع جنيهات ذهبا وورقا ، وحملت ردائي وخرجت الى صحن الدار فوجدت ولدي فيصلا وسحاب قد عادا من المدرسة ، فانحنيت عليهما وضممتهما الى صدري وقبلتهما وكذلك قبلت اختيهن الطفلتين في سريرهما وقلت : اولادي انني مسافر ولا اعود اليكم قبل ستة اشهر ، فسلموا على امكم كثيرا ، فذعرت سحاب واخوها من هذا الخبر ، ولكنهما عادا فظنا انني امازحهما فلما رأيا ام محمد تبكي تحققا الخبر ، فأخذا في العويل والنحيب وتبعاني الى اسفل السلم متعلقين بردائي وهما يصيحان : فين رايح يا بابا لا تتركنا وحدنا دخيلك لا تتركنا وحدنا يا بابـــا وانتظر حتى تجي ماما نحن كلنا نروح سواء « وقد وعدني المفوض ان يكتم كل الكتمان مسألة الرسالة التي سلمتها الى المرضعة » .

خرجت من الدار ودخلت غرفة المفوض ففتش جيوبي .

القبض على الحكيم وحيدر وشيخ الارض :

بقيت نحو ساعة في هذه الغرفة علمت في غضونها انه قبض في ذلك المساء على سائر الاخوان المشار اليهم سابقا ، وهم السادة حسن بك الحكيم وسعيد بك حيدر ومنير افندي شيخ الارض ومن ثم ذهبت الى مخفر المهاجرين بالسيارة ، وثاني يوم ركبت السيارة حتى دائرة الشرطة ، وبعد هنيهة طلبت الى حجرة المدير فوجدته فيها ووجدت معه السيد عثمان الشرباتي والسيد سعيد عبيـــد التاجر المعروف ، فسلمت عليهما سلاما صميميا ، وكذلك سلمت على المدير بشيء من البرودة والاشمئزاز والتأنيب على التزامـــه

جانب الفرنساويين — وهو من ابناء البلاد القادرين على خدمتها — الاغراب المستعمرين وقلت في نفسي ما اغنى هذا الشاب الذي دل في جميع اطواره على الذكاء وحدة ذهن ونشاط عن تلويث اسمه وتدنيس سمعته بتحمله تبعة وظيفة يساق فيها سوق البهائم ، وما له وقد كان بالامس على عهد الحكومة التركية والحكومة الوطنية يشتغل بالوظائف العالية يرضى ان يكون آلة صماء بيد ضابط افرنسي لا يختلف كثيرا عن صفار ضباط الترك والعرب جهلا وحماقة ؟ هذا عدا ما ينزل به من الهنات ويلصق به من جعله اعراض الناس سلما يمر عليه الى غاياته ، ولا اظن انني آسف على فقد شاب من الوطنيين في الحياة اسفي على هذا الشاب المفقود .

فاتحني السيد عثمان الشرباتي والسيد سعيد بك عبيد بحضوره فيما جرى حتى تلك الساعة من المذاكرة مع المدير بشأن الاجتماع المنتظر في المساء مع الكولونيل كاترو عند عودته من جبل الدروز ، وبين الاجتماع الذي حضره لفيف من اعيان البلاد وشبانها الناهضين في هذا الصباح الذي عقد في قهوة القوتلي لتقديم احتجاج الى الحكومة الوطنية والحكومات الاجنبية ومن جملتها الحكومة المحتلة على توقيفنا والتعدي على حريتنا .

وقال أن الناس يتهيئون للخروج بمظاهرة من الجامع الاموي وهم ينتظرون الاشارة فما رأيي بها وكان المدير بجانبي يصغي لكل بنت شفة أنبث بها ، ولكل اشارة اشير بها ، فاتخذت حذري وقلت لا بأس من اتباع الرأي الذي تتفقوا عليه ، ونحن في هذه القضية رهن اشارة اخواننا الوطنيين ، فالتفت المدير وقال الا ترى ان يتأجل كل عمل من هذا النوع الى ان يعود الكولونيل كاترو في هذا المساء فتتباحث واياه بالمسألة من اساسها كما اتفقنا البارحة في بيت انور البكري مع السيد عثمان ؟. فلم اغير جوابي ، وما كدت انتهي من كلامي حتى دخل الرئيس تيربيه معاون آرلابوس والمسيو

بيجون مستشار الشرطة فاضطررنا الى الانتقال للغرفة الملاصقة فلم يفارقنا المدير لمحة واحدة ، كذلك ودعني السيد عثمان والسيد سعيد للاجتماع بالاخوان واتخاذ قرار نهائي في المسألة، ودخل المدير للمذاكرة مع أسياده .

هذا ما جرى لي ، واما ما جرى للاخوان السيد حسن بك الحكيم والسيد سعيد بك حيدر والسيد منير افندي شيخ الارض فهو كما يأتي :

حسن الحكيم وما جرى معه :

قال حسن بك الحكيم : « بعدما تم وداع المستر كراين انصرفت مع من انصرف فاتيت الى دار الحكومة كالقائد الظافر بعدما مررت امام دائرة الشرطة على مرأى من عشرات من زعانفها . مكثت هنا نحو ساعة عند احد الاصدقاء ، ثم ذهبت في نهايتها لقضاء بعض مصالحي ، وفيما انا مار بشارع «رامي» في نحو الساعة الرابعة بعد الزوال صادفت امام قهوة النصر شابا من موظفي التحري في دائرة الشرطة لم أعرفه قبلا ، وكان يتأملني كأنه يريد ان يتحقق شخصي ليفي بوظيفته فقلت له : من انت وما بالك تطيل النظر الي وماذا تريد : فقال الست حسن بك الحكيم ؟ فقلت : نعم قال : انني من موظفي التحري وها هي علامتي ، ان المدير حمدي الجلاد يرجو منك ان تحضر الى الدائرة لمقابلته ، فلم اتردد وكنت عرفت السر فذهبت واياه ، وفي اثناء الطريق مررت على صديقي سعيد بك حيدر وعادل بك العظمة المحاميين المعروفين في مكتبهما في بناية العابد واخبرتهما بما حدث كي يتدبرا الامر ويتخذا الاحتياطات . وعندما بلغت الدائرة أدخلت الى غرفة رئيس القسم العدلي والاداري الملاصقة لغرفة المدير ، فاستقبلنا الرئيسان صادق المغربي ونقولا شاهين وحياني احسن تحية ، فسألتهما عن سبب الطلب متجاهلا ، فاجابني ان ليس لهما علم بشيء، ولما

امسى المساء ولم يواجهني المدير علمت النية الحقيقية . وفي هذه الاثناء جاءني احد افراد الشرطة وطلب الي ان اخرج ما في جيوبي فأبيت الا بحضور هيئة فجاء معه حلمي عزيز ، وعندها اخرجت كل ما معي ومن جملتها احتجاج التجار على الحواجز الجمركية ما بين سورية وفلسطين بخط فارس بك الخوري ، فأخذه مع مفكرتي الخاصة واعاد لي سائر الاوراق وهنا علمت منه انه قبض ايضا على الدكتور شهبندر وسعيد بك حيدر ومنير افندي شيخ الارض وقد وضع كل منهم في غرفة على حدة .

وفي الساعة التاسعة جاءني شرطي آخر فقال تفضل ياسيدي فقد حضرت السيارة ، فلم أشأ ان أسأله الجهة التي سأذهب اليها بل نزلت فركبت السيارة يرافقني فيها مفوض وشرطيان بألبسة عربية وكانت مغطاة فسارت بنا عن طريق الصالحية ثم عرجت نحو سوق ساروجة فمحلة السمانة وهناك نزلت الى المخفر لاقضي تلك الليلة فيه . وقد اوصى بي المفوض الذي اتى معي رئيس المنطقة السيد خضر الذي كان اذ ذاك حاضرا هناك ، وكلفه الاعتناء بأمري كما امره المدير ، فقضيت تلك الليلة في المخفر المذكور بحراسة الشرطيين اللذين أتيا معي على طريق المناوبة . والحق يقال اني رأيت من حسن المعاملة والاعتناء بخدمتي ما يقضي علي الواجب الاعتراف بـه .

وفي صباح اليوم الثاني ٧ نيسان سنة ٩٢٢ في نحو الساعة العاشرة جاءت سيارة مستورة ايضا وفيها احد افراد التحري فأقلتني بطريق سوق ساروجة جوزة الحدباء ــ شارع قهوة الجنينة فساحة الشهداء الى دائرة الشرطة . هناك ادخلت الى غرفة ديوان الرسائل فمكثت فيها الى الساعة الواحدة بعد الظهر وعندها سمح لي بالاجتماع برفقائي في الغرفة المجاورة » .

سعيد حيدر وما جرى معـه :

وقال سعيد بك حيدر : « توجهت بعد المظاهرة الى العدليـة لمقابلة المدير بشأن قضية في حماه أنا وكيلها ، ولما لم أجده انتظرته في غرفة المفتش عارف بك نكد ومدير الرسائل سامي بك العظم ، وفي هذه الاثناء رأيت رجال الشرطة يجيئون فيسألون عن الدستور باهتمام ، فلما سألت عن السبب أجابني عارف بك : انهم يبحثون عن قانون الاجتماعات ليطبقونه على المتظاهريين ، ولكنهم لم يجدوا. فقلت له يوجد في الجزء الرابع من الدستور . وانا كذلك اذ حضر الحاج صادق افندي رئيس القسم العدلي في دائرة الشرطة وهـو متأبط مجلد من الدستور ، ففهمت ان مجلس المديرين مجتمع وعنده مدير الشرطة لهذه الغاية . ولمـا لم يهتدوا في قانون الاجتماعات الى ما يشفي غليلهم فكروا في طريقة اخرى . ولكن على كل حال لا يتعدى الامر حدود السجن من اسبوع الى شهر . ولمـا خرج مدير القسم العدلي أتممت حديثي مع المفتش الفاضل ثم نزلنا فوجدت مدير الشرطة خارجا من غرفة الحاكم وهو مهتم ومعه الدستور ، فلما رآني حول وجهه عني وذهب نحو قلم الخارجية ، أما انـــا فاني قابلت مدير رسائل المتصرف لامور خاصة .

ثم ذهبت للغداء في بيتي ، وبعد الراحة نزلت الى اعمالي ، وبينما كنت جالسا في مكتبي في نحو الساعة الرابعة مساء حضر الخادم ودفع لي تذكرة الطبيب وقال أن والدتك المريضة تريد هذا الدواء فقمت حالا وذهبت الى صيدلية جميل افندي الكحالـة فأخذت لها الدواء المطلوب واعطيته للخادم ، وعند خروجي مـن باب الصيدلية بادرني شرطي في مقتبل العمر رقيق الحواس لطيف المعاملة اشقر الشعر لا اذكر أسمه ، ثم قال : ان مدير الشرطة يود مقابلتك الآن فعلمت من هذه الجملة كل شيء وسألته هل بامكاني ان اذهب الى مكتبي قبل الذهاب الى دائرة الشرطة فلم يمانـع

فمشى حذوي ، وفي اثناء الطريق قابل اثنين من زملائه الشرطيين فتبعاه ايضا بناء على اشارة منه ، فذهبت الى المكتب وأخبرت شريكي بما حدث ، وعدت مع احد الشرطيين الى دائرة الشرطة ، وصادفت في طريقي الموظفين مرفضين من اعمالهم ، فصارت ترمقني الانظار وتشير الي الايدي بالسلام ، وصادفت حبيب افنـــدي الكحالة صاحب جريدة سورية الجديدة وكان بيننا وعد لحل بعض المسائل الخاصة ، فسألني هل انا على وعدي فأجبته انت ترى ما انا بهالآن ولا اعلم اذا كان بالامكان عودتي ، ثم دخلت في الدائرةالى حجرة المفوض حلمي عزيز فسلمت عليه فاستقبلني ببشاشـــة واحترام ، ثم قدم لي مكانه امام النافذة المطلة على نهر بردى وقدم لي لفافة تبغ ثم نهض ووقف أمامي وأدار ظهره الى شرطي آخـر بجانب الباب بحيث لا يسمع كلامنا ولا يرى وجهينا ، فذكـــر عهد المودة بيننا منذ كنا في المدرسة الاعدادية في صف واحد معا ، وما يحمله من الحب والاحترام ، لذلك فهو يطلب أن أكلفه بمـا يحتاج اليه ، ثم قال انا سأذهب بالشرطي الذي على الباب ليخلو بك المكان ففتش نفسك وأتلف جميع الاوراق التي تراها مضرة ، ولما عاد طن جرص الهاتف فتناول السماعة وفهمت من مجـرى الحديث ان مخاطبه يستأذنه بالدخول الى البيت لان الرجـــل الذي يريد توقيفه لم يخرج ، فاجابه بقوله : ادخل قبل ان يمسي المساء لان محل العيادة غير مسكون والح عليه بالسرعة ، فسألته من الرجل المطلوب ؟ فقال : الدكتور شهبندر ، فقلت : لا حاجة للتشدد لاني أظن ان الدكتور الفاضل لم يرتكب الفرار خصوصا وهو لم يأت أمرا فريا ، فهز رأسه وقال : ما حيلة المأمور ؟ ثـم سألته : هل المطلوبون كثيرون ؟ قال انت والدكتور شهبندر وحسن بك الحكيم . وبعد برهة قال : منير افندي شيـخ الارض الذي اسديت اليه من المعروف سابقا واحسنت به اليه يوم حادثـــة المدرسة الطبية وقف اليوم على ظهر السيارة امام الشرطة وصاح

بملىء فمه مشيرا بحونا والينا :« فليسقط الخونة فليسقط مدير الشرطة ومفوض التحري ورجالهم الاوباش » مرارا ، اما والله لانتقم منه انتقاما لن ينساه ابدا . فقلت له : اذا كان منير افندي غير مطلوب من قبل الفرنسويين فانصحك ان تصرف النظر عنه ولا تنتقم يكون خير لك واكرم لنفسك . فوجم ولما اصررت عليه قال بصوت خافت : « مطلوب » .

ثم خرج وعاد ضاحكا لان منير افندي قد حضر فسألته اين وضعته ؟ فقال : بمكان يليق به ، ومن ثم علمت انه في غرفة المعاينة فقلت : الا خوف عليه من الجراثيم هناك ؟ فطمأنني وذهب ، وبعد ساعة اتاني شرطي يدعي حسن افندي المغربي وقال لي : تفضل ، فخرجت واياه وركبنا سيارة كانت تنتظرنا في الباب وركب معنا شاب بالبسة ملكية فهمت منه انه من البقاع في مدرسة الشرطة وانه وكل اليه والى شاب آخر امر حراستي تلك الليلة .

وقفت بنا السيارة امام مخفر الشيخ حسن في اول طريق الميدان فاستقبلني مفوض المخفر محمود لطفي باحترام وبشاشة وصعدت الى الطابق الثاني حيث وجدته قد حضر لي سريرا لطيفا ولا انكر ان الغرفة نظيفة وجامعة لاسباب الراحة ، وبعد حين حضر طعامي من البيت فأخذته وتعشيت وقد كان الشرطيون هنا باجمال على جانب من الملاطفة ولسان حالهم يقول :

ما حيلة المرء والاقدار جارية عليه في كل حال أيها الرائي
القاه في اليم مكتوفا وقال له ايـاك اياك ان تبتـل بالماء

قضيت معهم ليلتي أمازحهم وأتهكم على معاملة الافرنسيين التي لا تزلزل المبادىء ولا تضعضع العزائم . وفي صباح الجمعة حضرت سيارة فأقلتني الى دائرة الشرطة فجلست في غرفة في طابقها العلوي كان ينام فيها رهط من الشرطة . وفي تلك الاثناء

أقترب مني شرطي وسألني ماذا تريد ان تتغدى ؟ فأجبته ان نفسي لا تطلب الاكل ولكن اين الدكتور شهبندر وحسن الحكيم ومنير افندي شيخ الارض ؟ فأجابني ان الدكتور عبد الرحمن بك في الغرفة المجاورة عن اليسار وحسن بك عن اليمين وانهما قضيا ليلتهما خارج دائرة الشرطة وأتيا مثلي في الصباح وأنا كذلك اذ دخل عثمان افندي الشرباتي وسعيد افندي عبيد فاستفسرا عن صحتي وقالا ان المسألة قريبا تنتهي ثم سألاني عن الدكتور وحسن بك فدللتهم عليهما فخرجا » .

منير شيخ الارض وما جرى معه :

وقال منير افندي شيخ الارض : «وبعد ان ارفض المودعون من الوداع الشاق الذي حصل للمستر كراين، عدت الى المعهد الطبي وشرحت لاخواني ما جرى لي في المهمة التي انتدبوني اليها من تقديم رغائب التلاميذ الاستقلالية له ، فسروا من ذلك سرورا عظيما ، خصوصا لما وصفت لهم الطريقة العجيبة التي ودعناه بها وكيف احطنا بسيارته وهتفنا للاستقلال .

عدت الى منزلي وقت الظهر فوجدت شرطيا من معارفي ينتظرني في الباب ، فتقدم الي وقال : صدر أمر بالقبض على اناس كثيرين من الوطنيين لم اعرف منهم سوى الدكتور شهبندر وحسن بك الحكيم وسعيد بك حيدر وانت منهم ايضاً فخذ لنفسك الحيطة واعمل ما يقضي عمله . فشكرته على ذلك ثم اخذت افكر في الامر فتارة كان يخطر ببالي الهرب وهذا فيه ضياع المجهودات التي بذلت في سبيل القضية الوطنية ما فيه . وطورا الاستسلام فيمر في مخيلتي عندئذ تلك المظالم المعروفة عن أرباب السلطة مالا يحتاج الى بيان ، فعولت اخيرا على تسليم نفسي ، وفي المساء قصدت ادارة البريد والبرق لاعمال خاصة فصادفت حضرة الاديب السيد معروف الارناؤط أحد صاحبي جريدة فتى العرب فاخبرني انه قبض

عنى حسن بك وسعيد بك فقلت له : انا قريبا يقبض علي ايضا .

ومن ثم اخذت افكر في الذهاب بنفسي الى الشرطة والانضمام الى رفقائي وانا كذلك اذ مر امامي مفوض التحري للشعبة الافرنسية ابو حاتم وتظاهر انه لم يراني ، وبعد مرور دقيقتين اذ الشرطي يدعوني لمقابلة مدير الشرطة ، فذهبت معه ووصلت الى الدائرة حيث لقيت على بابها المفوض حلمي عزيز فاستقبلني بوجه ملؤه الانتقام والغدر وسبب ذلك طعني عليه وعلى مديره ورجال الشرطة اجمالا ، واظهار ما يرتكبون من الدعارة والفسق في المدينة دون حياء ولا وجل ، فأدخلني الى غرفة موبوءة بالجراثيم تعطى فيها الاجازات للخاطئات واخذ يفتش بالبستي وينبشها فلم يجد شيئا ، ولحسن الحظ انني كنت تركت مسدسي في البيت قبل ان اغادره ولولا ذلك لكان لضبطه شأن عظيم غير اثر المظاهرة . ومن ثم نقلت الى غرفة في الطابق العلوي من الدائرة تطل على شارع سليمان شفيق باشا فرأيت عن بعد جمعا غفيرا من الشبان فهتفوا لي حالما تعارفت الوجوه واشاروا بمناديلهم ،فلما أبصرهم الشرطي المكلف بحراستي وأسمه عارف افندي كلفني ان انتقل الى جهة ثانية من الغرفة .

وبعد نحو ساعتين دعاني رئيس القسم العدلي صادق افندي المغربي بصحبه حلمي افندي عزيز الى سيارة كانت تنتظرني في الباب ، فركبت وسارت بنا الى جهة ساحة الشهداء فهمس في اذني الشرطي اننا ذاهبون الى المنزل (بناية العابد) . فلما وصلنا ادخلت الى مطبخ هذه البناية فرأيت فيها شابا يهوديا من التبعة الامريكية اسمه يوسف ، وآخر من اهالي صيدا فلاطفاني وخففا عني وحشة السجن .

وفي الصباح اطللت من النافذة فرأيت شقيقي صلاح الدين فقال : (هل انتم مسافرون لانه اتصل بنا انكم ستنفون) فقلت

له : لا علم لنا بشيء من ذلك ، فاستيقظ الشرطي على كلامنـــا فصرفه من امام النافذة ولكن اخي اجابه على عمله بقوله : وهــل تظنون ان السجون ترهبنا وتحول امانينا . ثم انقطع الحديث ولم أعد أسمع شيئا .

وبعد الظهر جاءني شرطيان اثنان وعادا بي الى دائرة الشرطة فلقيت على بابها حلمي عزيز الذي لقيته البارحة فاستقبلنـــي بوجه باش بخلاف استقباله السابق ، واخذ يلاطفني وقدم الي كرسيه وجعل يقص علي اخبار البلدة وانها هائجة بسبب توقيفنا وانه عقدت في الصباح اجتماعات عديدة والمظاهرات على وشك الانتشار ، وبعد هنيهة حدثت ضجة عظيمة في الدائــرة وجلبــة واختلط الحابل بالنابل باسباب المظاهرات التي ابتدأت » .

هذه اخبار اخواننا الثلاثة الذين أوقفوا معي ذكرتها باختصار نقلا عن مذكراتهم وقد علمت يومئذ ان اخا رابعا وهــد السيــد العفيفي نام ليلة في القشلة الحميدية ايضا ، وسأذكر ما جرى له في الوقت المناسب .

الاجتماع الشعبي بقهوة القوتلي وتقديم الاحتجاج للقناصل :

ذكرت في آخر الكلام ان المدير اختلى بسيديه بيجون مستشار الشرطة والرئيس تيربيه معاون أرلابوس ، بعدما ودعني السيد عثمان الشرباتي والسيد سعيد بك حيدر والسيدسعيدعبيد، وبعد هنيهة عاد الي يقول ان لفيفا من الرجال اجتمعوا بقهوة القوتلي منذ الصباح وهيئوا صورة احتجاج للدول على توقيفكم وقـــد فرقتهم الشرطة بعد ان ضبطت الاوراق التي بأيديهم ، وقد تعقدت الآن المسألة لان الفرنساويين قرروا استلامكم خوفا من تقصيــر شرطة الوطنيــين وعجزها عن القيام بما اودع لديهـــا ، وبلغني أن المحتجين قرروا الاجتماع في الجامـــع الاموي ليخرجوا منه بعــد صلاة الجمعة بمظاهرة وانا أنتظر التطورات على أحر من الجمر .

وقد علمت من أخبار المجتمعين ما يأتي : ان عددهم لا يعرف بالضبط ولكنهم ملأوا القهوة وكان بينهم محمد بك اسماعيل يحيى حياتي وعبد الستار بك السندروسي مدير رسائل النافعة ومحيي الدين بك صادق قائد الموقع في الشام سابقا وحسن أفندي الحلواني (تاجر) وحسن افندي الطرابيشي (تاجر) وصبري أفندي البديوي (ضابط في الجيش التركي والعربي) ورشدي افندي(صحافي) وأحمد افندي ايلوش (تاجر قومسيونجي) وجميل أفندي جمعة (صاحب محل طحين) وعادل افندي شيخ الارض (صحافي) ورشدي أفندي الحكيم (مميز ديوان الرسائل في العدلية وصحافي سابقا) وعبد الهادي أفندي دياب (تاجر) وعارف بك الادلبي (قائد اركان حرب في العهد التركي) وحسن بك الزنبركجي (قائد في الجيش) وتوفيق أفندي القضماني (قائد في الجيش) .

توفيق الحلبي يتحدث عن الاجتماع :

ونرى للدلالة على ما حدث من التطورات إن نذكر الخلاصة الآتية من مذكرات احد الاخوان الذين لعبوا دورا مهما في هذه الحركات وهو السيد توفيق الحلبي :

« بعد ان ودع الناس المستر كراين قابلت الدكتور شهبندر تجاه فندق فيكتوريا واتفقنا على ان لا نتغيب عن الحكومة فيما اذا رغبت في طلبنا ، وذلك ادعى لانتشار الفكرة التي ننشدها ، وهكذا كان فقد قبضت الشرطة على الدكتور شهبندر ورفقاءه ، وفي مساء ذلك اليوم سمعت من السيد عثمان الشرباتي ان الحكومة وعدت باطلاق سراحهم في اليوم الثاني صباحا في الساعة العاشرة . ثم قال بت تلك الليلة قلق البال وذلك لا لسجن الدكتور واخوانه بل خشية اخلاء سبيلهم لان الفرصة لا تزال سانحة لتوسيع نطاق هذه الحركة وظهورها في العالم السياسي بأجلى المظاهر ، فصممت على هذه النظرية وتمسكت بها فكتبت بطاقة

الى ابنة خالتي الآنسة نازك العابد قلت لها فيها : « ان دائــرة الشرطة قبضت على حضرة الدكتور شهبندر واخوانه وقد اعتبــر الوطنيون ذلك فرصة لاظهار عواطفهم ورغائبهم ، وانت من اعظـم الوطنيات اخلاصا للبلاد ، فأود منك مؤازرة عقيلة الدكتور والسعي الى عمل مشترك يظهر من السيدات يكون فيه تأييد للحركــة الوطنية » . ثم ذهبت الى دار الحاج اديب خير فتحدثنا قليلا في هذا الموضوع وبينما كنا على طريق عرنوس اذ صادفنا عثمــان افندي الشرباتي ، فعلمنا منه ان الوطنيين سيجتمعون في قهــوة القوتلي ليحتجوا على سجن من سجن من رجال البلاد ، وذلك اذا لم يطلق سراحهم في الساعة المعينة يعني في الساعة العاشرة . مشينا على مهل حتى وصلنا الى قرب ساحة الشهداء حيث اطل علينــا حليم بك حروش من شرفة فندق فكتوريا ، فقصدنا اليه فوجدنا في غرفته الامير فائز الشهابي وهما يتحادثان عن الحادثة الكرينية فاشتركنا معهم في الحديث ، وعلمنا من حليم بك ان مدير الشرطة قدم الى البعثة قائمة بأسماء جميع الرجال الذين اشتركوا في وداع المستر كراين ، حتى انه ذكر فيها اسم ابن شقيقه ــ يعني اسمي ــ مرتين ، قال السيد توفيق : ثم نظرنا الى مدخل دائرة الشرطــة فرأينا السيارات تأتي بكل من اخواننا على حدة حتى اجتمعوا كلهم هنــاك .

الانتقال الى الجامع الاموي :

وقد مضى نصف ساعة على الموعد ولم يطلق سراح احــد فعلمنا ان الحكومة لا تريد ان تفي بوعدها ، حينئذ ذهبت الــى قهوة القوتلي فرأيت الوطنيين ووجدت مفوض التحري ومفـوض الشرطيين يكتبون اسماءهم فيها . فجلست مع الوطنيين فكتبـت اسمي مع اسماءهم ، ثم دخل علينا رئيس القسم العدلي يصحبه خمسة من رجال الشرطة فقال : « باسم القانون يجب ان تتفرقوا» وقام من بيننا محمد بك اسماعيل فنادى الى الجامع الاموي ايها

الاخوان . وهكذا تفرقنا .

وبينما كنا خارجين من القهوة قابلنا رئيس القسم الاداري نقولا افندي شاهين ومعه ١٢ شرطيا فلم ير حاجة للكلام ثم قال توفيق افندي : اما انا فانني سلكت الطريق الى سوق الحميدية حيث التقيت بالدكتور محمود بك حموده وسليم افندي عبيد وبعض التجار ورأيتهم يتذاكرون عن اخلاف الحكومة بوعدها ، اذ جاء سعيد افندي عبيد فقال : اننا اخذنا عهدا من مدير الشرطة انه اذا لم يحتج الاهلون في هذا اليوم ولم يحدث تظاهرات فقد تطلق الحكومة سراح الموقوفين ، فقلت : ان الحكومة نكثت عهدها في المرة الاولى وستنكثه في المرة الثانية ، وما القصد من هذا التسويف الا ربح الوقت والانتظار ريثما يمر هذا النهار ، فتفوتنا صلاة الجمعة . قال سعيد افندي عبيد : ان عثمان افندي ذهب الى الجامع ليخبر المواطنين ان يعدلوا عن المظاهرة . قال السيد توفيق: فذهبت حينئذ انا والسيد سعيد واجتمعنا في الجامع الاموي بعثمان افندي ومحمد بك وغيرهما فأقنعتهم وبينت لهم ضرورتها وان المصلحة تتطلب حركة واسعة ، ثم قلت لهم : اني صاعد الى السدة وربما تكلمت بما يخطر في بالي فلم يردوا جوابا .

توفيق الحلبي يخطب في الجامع :

صعدت الى السدة وبعد فراغ الامام من صلاة الجمعة خطبت في الناس قائلا : ايها الاخوان الكرام ، لقد زار دمشق منذ بضعة ايام المستر كراين رئيس اللجنة الامريكية عام ١٩١٩ ، فبلغ الناس انه جاء ليستطلع رأي السوريين في مستقبل بلادهم فاجتمع به منهم خلق عظيم من علماء وادباء وتجار وبينوا له شكواهم وما هم عليه من الضيق والشدة وبينوا له رغبتهم في الاستقلال التام الناجز ، وصباح امس ودعه لفيف من اهل الفضل واظهروا له في خلال الوداع شعورهم وهتفوا للحرية والاستقلال . ثم في المساء

قبضت الحكومة على السادة الاخوان فلان و . . .

أتعلمون لماذا قبضت الحكومة عليهم ؟ انها فعلت لهتافهم للاستقلال فأنا متألم من الحالة الحاضرة وأهتف لاستقلال بلادي أيضا . فمن كان متألما مثلي فليذهب الآن الى البعثة نفسها والى قناصل الدول وليحتج على سجنهم ويضم صوته الى صوتهم . وهنا علا الضجيج والنداء (فليحيا الاستقلال التام) : لنحتج نحن متألمون . ثم قلت : ايها الاخوان ان المستر كراين قد أوصانا أن نعقب قضيتنا بالطرق المدنية لا بالطريقة القديمة يعني بالطرق السلمية لا بغيرها ، فأرجو منكم اتباع نصيحته واستعمال التؤدة والسكينة . ثم تكلم بعدي الدكتور خالد الخطيب فالسيد محمد الشريقي فكان لكلام الجميع اعظم تأثير في نفوس المستمعين الذين هاجوا وماجوا وخرجوا من الجامع وهم على اشد درجات التحمس ، يقصدون الحكومة للاحتجاج » . هذا ما ذكره توفيق افندي الحلبي .

خالد الخطيب ينظم العمل :

اما الزميل الدكتور خالد أفندي الخطيب فانه قال ما يأتي :

« على أثر مظاهرة الوداع للمستر كراين عاد كل منا الى عمله وبنفسه ما بها من الغبطة والسرور من مظاهر تيقظ الشعب . وعلمت في المساء أن الحكومة قبضت على السادة الدكتور شهبندر واخوانه فدعيت على أثر ذلك لفيفا من الشباب الوطنيين المخلصين الى داري منهم السادة عبد الستار بك السندروسي ومحمد بك الشريقي معلم الادبيات العربية في مدرسة برلتيز وسكرتيرها والاستاذ جميل أفندي الحموي الصحافي وابراهيم أفندي الحقوقي وعلي أفندي الشواف من طلبة القسم الطبي والدكتور سيف الدين البستاني والدكتور ابراهيم ادهم والضابطين فائق أفندي البرازي وعبد الرزاق أفندي البكري وغيرهم فدام الاجتماع الى نحو الساعة

الحادية عشر ليلا وكانت الاحاديث تدور حول ما يجب عمله الآن بعد سجن السادة الاخوان فكان آخر ما عزمنا عليه القيام بمظاهرة كبرى بعد اداء صلاة الجمعة ، ثم قرر الحاضرون انتخاب لجنة لتنظيم شؤون المظاهرة،فوقع الانتخاب علي وعلى السيد السندروسي والسيد الشريقي فضربنا موعدا لاتمام العمل في اليوم الثاني .

اجتمعنا في الصباح في الموعد المعين فقررنا ما يأتي :

أولا ــ أن أتكلم خطيبا في الناس حاثا على المظاهرة والاحتجاج .
ثانيا ــ أن يخطب بعدي السيد الشريقي حاثا على المظاهرة والاحتجاج أيضا .
ثالثا ــ أن نحضر قطعا من الورق كبيرة نكتب عليها ما يثير العواطف وتوزيعها على الفتيان لنشرها بين الناس عند ظهور الجماهير المتظاهرين .
رابعا ــ أن نكتب صورة احتجاج ننسخ منها اربع نسخ تقدم واحدة منها لكل من قناصل أمريكا وانكلترا وايطاليا والبعثة الافرنسية .
خامسا ــ أن تتلى صورة الاحتجاج على مسامع المتظاهرين أمام دار الحكومة المحلية .

وبعدما اتخذ هذا القرار كتبنا القطع المذكورة فكانت أربعا الواحدة : (الله والوطن والانسانية) والثانية : (باسم العرب نحيا وباسم العرب نموت) والثالثة (يحيا الاستقلال العربي التام) والرابعة : (الاستقلال حياة الشعوب) ثم نظمنا صورة الاحتجاج واليك هي ملخصة :

ان الشعب السوري الحر يرجو من حضرتكم تبليغ حكومتكم احتجاجه الآتـي :

« ان السلطة في دمشق قبضت على خيرة رجال سورية ورمت

بهم في اعماق السجون المظلمة ، وذلك لمجرد هتافهم للحرية والاستقلال وهما رائدا كل شعب حي فالامة السورية على اختلاف المذاهب والطبقات تحتج بكل شدة على اعمال السلطة الفظيعة وتجاهر بطلبها الحرية والاستقلال ، فهما بغيتها المنشودة في كل آن واقبلوا يا سيدي خالص تحياتنا » .

وقد وقع على النسخ الاربع السالفة الذكر عدد غير قليل من الاطباء والمحامين ومأموري الحكومة وارباب الحرف وطلاب المدارس العالية . أزف وقت الصلاة فحملت القطع وصور الاحتجاج وقصدت الجامع الاموي . وفي أثناء المسير أتاني شاب واخبرني عن لسان الشرباتي ان الدكتور شهبندر واخوانه تفاهموا او سيتفاهمون مع الحكومة ويطلق سراحهم في القريب وهم لا يرغبون في المظاهرة ، فلم اعر لذلك سمعي بل بقيت انتظر انتهاء الصلاة. وما كادت تنتهي حتى سمعت السيد توفيق أفندي الحلبي يخطب من على السدة ويدعو الناس للامر الذي قررناه مع اخواننا ولم يكن بيننا وبينه سابق تفاهم على ذلك وما أنهى كلماته حتى وثبت الى السدة المقابلة للمنبر فقلت : أيها السادة ان الحكومة في اليوم الماضي قبضت على الدكتور شهبندر واخوانه وزجتهم في ظلمات السجن لهتافهم لحرية البلاد واستقلالها ساعة وداع المستر كراين الامريكي .

ايها السادة : ما سمعنا قط آن العدالة تقضي بسوق رجال الامة الى حيث يسجن قطاع الطرق والقتلة والسارقون وذلك لمجرد هتافهم لاستقلال بلادهم وحريتها وهما حقان من الحقوق التي منحها اللة الشعوب واقرتها العدالة وقد لحق الامة السورية عار من ذلك لا يكشفه الا ان تذهبوا بجموعكم المتراصة متظاهرين بمظاهرة سلمية تعرب عن شدة تمسككم بالسلام والمدنية فتحتجوا لدى قناصل الدول ومعتمديها على هذا العمل الفظيع وتطلبوا اليهم ان يبلغوا احتجاجكم هذا وارادتكم للحرية والاستقلال

وتفانيكم في سبيلهما الى حكوماتهم، فتسمعون بذلك صوتكم مشارق الارض ومغاربها ، وترفعون عن أنفسكم عارا الحق بكم وبالامة العربية اجمع . أيها السادة : ان لكم خير قدوة واعظم مثال باخوانكم المصريين فانهم جعلوا الازهر مقر مظاهراتهم الوطنية فليكن مقر مظاهراتكم الجامع الاموي . وهنا انبرى من الجهة المقابلة السيد الشريقي فتكلم بضع كلمات لا تخرج عن المعنى السابق وانا عدت ثانية الى الكلام فقلت : وقد نجحت الامة المصرية ونالت معظم ما تريد وانتم ستنالون مثلها ان شاء الله . سيروا فان الامة المتكاتفة لن يضعضعها قوة ولا تقف في سبيلها عثرة . وهنا نشرنا القطع المكتوبة وفرقناها على الشبان .

انطلاق المظاهرة من الاموي :

سارت الجموع بالتهليل والتكبير واستولى الخشوع والحماس على قلوب الجماهير وانهالت الدموع من الآماق واصفرت وجوه الجواسيس الذين كانوا يشاهدون كل ذلك بأعينهم ويسمعونه بآذانهم ، ثم خرج الناس من الباب الغربي للجامع وكان منظرهم أشبه بالبركان المضطرب وكانت القطع المنثورة بينهم واصوات التهليل والتكبير والهتاف بالغة عنان السماء .

سرت مع من ساروا وما كدت اصل باب الجامع حتى رايت رجال الشرطة وعددهم زهاء الاربعين بين مفوض وشرطي وعلى راسهم حسني افندي المأمون مفوض المركز منهالين على تلك الجموع بالضرب بالاسواط والقرع بالعصي من غير شفقة ولا رحمة، فطوحت بنفسي الى ما بينهم فأصبت بضربتين شديدتين على كتفي وعلى ساق رجلي ، فصرخت في وجه الاشرار على رسلكم يا رجال الامن ، كفوا عن هذه الامة المسكينة ، فانها تتظاهر مظاهرة سلمية لتمحي عن نفسها عارا الحق بها وتطلب استقلال بلادها وان ما تتقاضونه من الراتب الزهيد لا يغنيكم عن امتكم ووطنكم شيئا . فلم يكترث

عباد الدراهم وخدمة المستعمرين بكلامي بل استمروا على منع الناس من المظاهرة، وحاولوا ارجاعهم من حيث اتوا ، فلم يفلحوا بل ان الشعب المتحمس اخترق صفوفهم .

ولي الفخر اني سرت في الطليعة فكان الضرب ينهال علينا من كل جانب ونحن ننشد الاناشيد الوطنية ونحيي الاستقلال حتى بلغنا باب البريد حيث اشتد الخصام والجدال بين المتظاهرين وهم يعدون بالآلاف ، وبين رجال الشرطة وقد بلغ الطيش بهم انهم اشهروا مسدساتهم وصوبوها الى صدور الامة ، وكان البادىء في هذا العمل شرطي من حماه من بيت آلشرباتي ، وضع هذا الشرطي فوهة مسبدسه على صدغ السيد عبد المجيد الطباخ شقيق القائمقام محمد بك الطباخ وهدده باطلاق النار اذا لم يرجع ، فثارت الامة على هذا الشرطي وهجمت عليه فأنتزعت منه مسدسه ولولا المصالحة لما اكتفت منه بأخذ سلاحه . هنا سمعت رجلا ينادي مستغيثا يا دكتور خالد فالتفتت فرأيت عبد الستار بك السندروسي بين ايدي جماعة من الشرطة يشبعونه ضربا ويجرونه نحو المخفر ، فأنقضضت عليهم وفرقتهم عنه ففر من بين ايديهم .

وما زلنا نواصل السير ونحن ننشد ونهزج والحماسة آخذة منا مأخذها حتى صرنا بمنتصف سوق الحميدية ، وكانت الحوانيت كلها مقفلة اللهم الا القليل منها وكان اصحابها يقفون لتحية المتظاهرين بالتصفيق المتواصل ، بل ان اكثرهم لم يكتف بذلك ، بل كان يغلق حانوته وينضم الى صفوف المتظاهرين . هنا ظهر الخيالة الشرطيون يتسابقون على ظهور خيولهم ويتحامسون للهجوم بواسطة بعض الكلمات التي تستعمل في بلادنا عادة لاجل التحميس مثل (عليهم عليهم) و (عنديك عنديك) فمزقوا صفوف المتظاهرين وخيولهم تغدو بين الناس كالبرق الخاطف والمسدسات مشهورة بأيديهم وهم يحذرون الناس من التقدم باطلاق الرصاص أما أنا فألقيت بنفسي بين ألسنة النار وحوافر الخيل وناديت

بالمتظاهرين بأعلى صوتي (اين الامة الحية لا يخيفها بنادق المستعمرين واجرائهم ؟)

فتقدمنا والصياح يعلو من كل جانب ونحن ندحر الخيالة حتى اول شارع السنجقدار الذي كانت حوانيته مغلقة من اولها الى اخرها ، فلما شعر الشرطيون بفشلهم اطلقوا علينا العيارات النارية من مسدساتهم وبنادقهم فكنت تخال نفسك كأنك في ساحات الوغى من كثرة اطلاق النار ودوي الرصاص ، اما المتظاهرون فانهم استمروا على التقدم وكلهم حافظوا على التروي والنظام ، ولم يقابلوا هؤلاء الشرطيين بشيء من العنف والثورة . وقد بت آمن بتعقل الامة المتين كما ان ايماني باولئك الوطنيين الذين تستروا بلباس رجال الامن وسعيهم الخفي لانتشار الفوضى والاخلال بالامن زاد ايضا .

وصلنا الى قرب نزل انكلترا حيث كان بانتظارنا لفيف من الشباب على رأسهم عادل افندي شيخ الارض « احد محرري جريدة فتى العرب » فاستقبلونا بالتصفيق وتحية الاستقلال وانضموا الى جموعنا وساروا معنا حتى بلغنا العمود التذكاري المنصوب بساحة الشهداء . وهنا هجم علي شرطيان شاهرين السلاح فقال الواحد منهما للاخر اقتله فانه هو الذي اوصلهم الى هنا ، فاطلق علي طلقا سمعت حفيف رصاصته قرب اذني ثم صوب الثاني مسدسه الى رأسي قائلا أترجع أم أفرغه ؟ فأجبت بكل هدوء لو كنت رجلا لفعلت قبل ان هددت ثم هجمت عليه فدفعته وقذفته الى الهواء .

خالد الخطيب يوبخ حمدي الجلاد :

وما زلنا سائرين حتى بلغنا دائرة الحكومة ، هناك علوت جادة الرصيف وتلوت الاحتجاج المذكور آنفا . وما وصلت الى نهايته حتى احاط بي عدد من الشرطيين فساقوني الى دائرة

الشرطة فرأيت مديرها حمدي بك الجلاد واقفا بالباب مصفر الوجه يود لو يخفي اضطرابه ولكن هيهات ان يتم له ذلك . فنظرت له محتقرا وقلت اتق الله في وطنك ايها الخائن . فلوى وجهه عني لا يحير جوابا . ثم ادخلوني الى غرفة هناك لها كوة تشرف على دار الحكومة وبعد هنيهة آتوا الى هذه الغرفة بنحو ثلاثين من الفتيان . وفي الساعة الرابعة مساء جيء بي الى غرفة مفوض التحري حلمي عزيز حيث فتشت البستي واخذت مني بعض الاوراق ومنها صورة الاحتجاج المذكور .

* * *

اضطراب الشرطة وغليان الجمهور :

هذا ما قاله الاخ الدكتور خالد اما نحن الاربعة فكنا غير عالمين بالتدقيق بما كان يجري وبما تخبئه الايام لنا وان كنا شاعرين بالاضطراب العام المستحوذ على اهل الوطن ، وكنت لا ازال في مكتب المدير وهي الغرفة المجاورة لغرفته فأتى الى جانبي واقترب مني وقال وعلائم الاضطراب بادية على وجهه : انني انتظر بفارغ الصبر مجرى الحوادث ثم ذهب الى التلفون وطلب مخفر الحميدية بصوت مرتجف متقطع وقال : « اخبروني هل جد شيء ؟ » وبعد هنيهة عاد الي اشد اصفرارا وأكثر اضطرابا من الاول وهو يقول : (اشتغلت اشتغلت والان التعنت) ثم هرول على السلم وهو ينادي رجال الشرطة بأعلى صوته ويخاطبهم بكلام منعني من فهمه صرير الابواب المقلقة وصوت وقع الاقدام المتراكضة والجلبة العظيمة الحاصلة من الارتباك ومن اختلاط الحابل بالنابل . وبعد قليل رأيت الناس من الغرفة التي كنت فيها متراكضين ثم تبعتهم العربات والسيارات والكل يصيحون بأعلى اصواتهم (ولك هربوا) ودلت حركاتهم على انهم كالمخالط بعقله لا يدري اين يلجأ ، وكانت حركاتهم هذه تؤثر في الرائحين والغادين من ابناء السبيل فيعملون

عملهم ، واخيرا سمعت طلقات نارية متعددة ومتوالية وبعده الخيالة الشرطيين يتسابقون امامي .

قال لي الاخ منير افندي شيخ الارض ، وكان لا يزال بعد في الحجرة السفلى ، قد رأى بعينه كل شيء : (بعد ما قص علي حلمي افندي عزيز اخبار الهياج الحاصل في البلدة فوجئت بصياح مدير الشرطة حمدي بك الجلاد قائلا الى السلاح يا شرطيون خذوا بنادقكم بأيديكم اقفلوا باب الدائرة اياكم تدعوهم يقتربون منها عليكم ان تقذفوا المفرقعات وتطلقوا الرصاص على المتظاهرين . وكان صوته يدوي بالدائرة (دوي الصاعقة في ليلة عاصفة) فلما سمع المفوض حلمي افندي صياحه اسرع الى الخزانة فأخذ منها مفرقعة (بومبا) واتجه نحو باب الغرفة فتبعته ، واذ رأيت الجلاد بوجه شاحب لا يعي على شيء ، وبعد قليل سمعت دوي الرصاص في الفضاء وصوت الجمهور المتظاهر يحيي الاستقلال وهو مقترب من الدائرة فذرفت دموعي لما خامرني من السرور ثم التفت الى النافذة فرأيت السيارات المصفحة والدبابات والجنود تسرع نحو دائرة الحكومة . وبعد حين سكنت الضجة وخيم السكون .

توقيف ثلاثين متظاهرا :

دخل علي بعد ذلك أحد رجال التحري فسألته عما جرى فقال: ان الحكومة قبضت على نحو ثلاثين شابا ، ثم فتح لي باب الغرفة قليلا فرأيتهم ورأيت في مقدمتهم آخي السيد عادل وبعد هنيهة دخل علي حلمي افندي وكلفني أن أصعد الى الطابق العلوي واخبرني على الطريق اننا سنسلم الى الدرك الافرنسي .

حديث مع الحكيم وحيدر :

اما انا فكنت لا ازال في مكتب الادارة وكان فيه ايضا رفيق افندي الجلاد وجورج شاوي من الموظفين الملكيين في الشرطة ، فلما احسا بالاضطرابات انسلا من عندي ، وانسحبا بانتظام فلم

يبق في الغرفة غيري ، فلما أغار الخيالة واشتد اطلاق النار وعلا الضجيج ودب الرعب في القلوب واخذت المركبات والسيارات والمارة في الهرب دخل علي شرطي مضطرب أوكل أمر حراستي اليه على ما ظهر لي وهو من الشام فقلت له وكنت واقفا على الشباك والمارة يتطلعون نحوي « اظنك تريد مني ان انتقل من موقعي ؟ » قال ارجو منك ان تشرف الى هذه الغرفة ، وأشار الى الغرفة الثانية ، فانتقلت اليها فوجدت فيها رفيقي حسن بك وسعيد بك وكان قد نقل اليها الاول قبلي ببرهة فتصافحنا وتحادثنا عن هذه النتائج الباهرة بالهمس خشية أن يسمعنا الشرطيون العديدون الذين كانوا معنا في تلك الغرفة ، ثم انتقلنا الى ذكر ليلتنا الماضية فقص كل منا قصته مختصرة وما جرى معه .

واخيرا سألنا رجال الشرطة هل نحن بحاجة الى شيء ؟ فطلب حسن بك طعامه من غرفته وكان لحما مشويا ولبنا خاثرا فتغدينا جميعا ، ثم طلب ان يفتح له الباب ليغسل يديه في الطابق الاسفل التي كان فيه قبل ان ينتقل الى غرفة سعيد بك فعارض بعض الشرطيين ، ولكنه لم يلتفت كثيرا الى اعتراضهم فنزل على السلم فوجد نحو ثلاثين شابا من المتظاهرين يدخلون الى الغرفة الاولى على اليسار ومن بينهم السيد ياسين الخانجي الذي قال : أتوا بنا الى هنا لاننا تظاهرنا بالحق والعدالة والاستقلال . فأجابه حسن بك : « ليحيا الشباب الناهض » .

وضع الاغلال بايدينا :

عاد الينا حسن بك وبينما كان يقص علينا ما رأى من علائم الحياة وشيم النشاط اذ دخل علينا ضابط افرنسي برتبة رئيس في الساعة الثالثة فقال : تفضلوا فتحققنا ما كان ذكره لنا المدير من امر تسليمنا الى الدرك الافرنسي ، فخرجنا فرأينا في الباب اربعة دركيين فرنسويين ينتظروننا وكان خلق كثير يترقب سير

الحوادث في الدائرة منهم مصطفى وصفي بك وحسن فهمي بك الزنبركجي وغيرهما ممن لا يحضرني اسماؤهم وكان قد التحق بنا منير افندي شيخ الارض اثناء ذلك ايضا . ولكن ما اشد دهشتنا لما أمر الضابط فقال : مدوا أيديكم فمددناها فأخرج الدركيون من جيوبهم السلاسل والاغلال فطوقوا بها ايدينا وأقفلوها عليها كما تقفل على أيدي القتلة وقطاع الطرق واللصوص ، ولم يخطر ببالنا قط أن نعامل في عقر دارنا بين أهلنا وبعد خدمة عشرين سنة للمصلحة العامة هذه المعاملة الطائشة التي لا تصدر عن أصغر صغار الموظفين الترك في عهد السلم . قد لا يختلف الفريقان بالكراهة لنا ولكن لهؤلاء من الاختبار والذوق بل ومن العقل السليم أيضا ما يزجرهم عن ركوب مثل هذا الشطط الفادح لانهم يعلمون ان الاقدام على احتقار الحياة الناهضة في الشعوب عمل يثير ويولد الضغائن التي لا يلتئم صدعها . ولكن اني لآرلابوس واساتذته الذين تمرنوا بين الشعوب الافريقية على الهزء بالمشارقة والاستخفاف بأديانهم ومذاهبهم ان يثوبوا الى الرشد فيتعلموا انهم في سورية ملتقى المدنيتين وعلى باب الامة العربية التي ما قط خضعت واستسلمت في حريتها وشرفها ؟!

دعي المارشال ليوتي من مراكش أثناء الحرب الى باريس ليجلس على كرسي نظارة الحربية ، ولكن بعد ثلاثة أيام فقط من تهنئته والتبريك له أتاه المعزون لانه نحي عن العمل وأعيد من حيث أتى فقد قال مجلس النواب عنه انه رجل لا يليق بمدنية فرنسا الحرة بالنظر الى كثرة مكثه في افريقية في الماضي وقصوره على معاملة أهلها فماذا ينتظر مدير ليوتي وأذناب أذنابه ؟ قد تكون الشعوب الافريقية في الماضي أطمعت المستعمرين في شرف الشرق ولكن أنا على مثل اليقين أن الحراسة العسكرية وضرب الارهاب والارهاق سيولد في أضعف الامم الافريقية نظرة تدعو الطائشين الى التفكر ومن يعش يرى . عصارى اليوم سيعلن في دمشق أمام

الاطباء والمحامين وكبار الموظفين ان أخوانهم يكبلون بالاغلال ويساقون الى أعماق السجون لهتافهم للحرية ، وفي المساء ستعلم سورية من أقصاها الى أقصاها أن الزهور التي أنبتتها الجامعات والكليات ودور الفنون تسحق تحت أقدام (الميلتاريزم) السيطرة العسكرية . وفي الليل ستضاء أنوار في دور لم يعد اليها اربابها وسيبيت الاطفال والعجائز والشيوخ وراء الباب ينتظرون بلهفة وخفقان القلب جزءا من الفرائس التي اختطفتها الذئاب الكاسرة الى الاوكار المظلمة والكهوف الموحشة ، ولا شك أن العالم في بحر هذا الاسبوع سيأتيه خبر عما عملته الام الرؤوم والمربية الحنون مع من رفع عقيدته ونادى من اعماق القلب بصوت تفجر من ينبوع النفس الطافحةيطلب الحياة وينشد الحرية ـ عجبا لهذا الغربي الذي نعى على الشرقي تعصبه وسقم آرائه في تقسيم البشر الى ملل ونحل وقام يصيح في الكتب (وفي الكتب فقط) من الحرية القناطير المقنطرة لا الاصواع ويضن على أخيه الشرقي منها بالذرات لا بالابواع أبربك قل لي هل يوجد تعليل آخر لذاك الكرم الحاتمي وهذا البخل الماردي الا التعصب الذي يرمى به الشرقي المسكين لالفاظ ينطق بها لا وزن لها ولا معنى أو لمراسيم وعادات تناقلها بالتقليد من غير تبصر وأعمال ردية ؟ في حين يتعصب عليه الغربي بجميع الوسائل العملية لاخماد أنفاسه بالاستصراخ للحضارة والاستنجاد بمؤلفي الكتب الخيالية وأهل النظريات الافلاطونية !

الدرك الافرنسي ينقلنا الى بناية العابد :

قسمنا الدرك الافرنسي الى زوجين فكان نصيبي أن أكبل مع الاخ حسن بك وكبل سعيد بك مع منير بك شيخ الارض ، فنزلنا على السلم يتقدمنا الضابط الرئيس ويحيط بنا العرفاء الاربعة ، فما خرجنا من الباب الا وسمعنا صياحا دوت له الدائرة، فاذا هو صياح الشباب الموقوفين ينادون فليحيا الاستقلال ، فلتحيا الامة العربية ،

فذرفت الدموع من الآماق ، واكتسب هذا المنظر جلالا تعجز دون وصفه الاقلام ، ويدل بصورة قاطعة على غفلة الذين دبروه وحمقهم وجهلهم بالبيئة التي يقيمون بها . فما مشينا بضع خطوات الا ورأيت أمامي في المركبة المستر ألن قنصل أميركا ومعه الترجمان الدكتور فؤاد الكحيل وأخذتهما الدهشة من هذا المنظر ، ولم يخطر ببالهما قط أن تقدم حكومة متمدنة على مثل هذا العمل الشائن الذي يراد به ارهاب الامة بتحقير رجالها واهانتها بمحط آمالها ، ولكن تحولت دهشتهما حالا الى ابتسامات يقرؤ فيها المتأمل ما نتوقع من الاعمال ونرجو من الحوادث . ثم ما زلنا نسير حتى بلغنا ساحة الشهداء فاذا كل شيء فيها ساكن كأن على رأسه الطير حتى خيول المركبات جمدت في مكانها والناس وقوف بوجوه امتزجت فيها الدهشة والاشمئزاز والغضب وراء ذلك كله . حيرة تدل على جيشان في النفس لا يدري صاحبها متى ينفجر ، ثم سرنا في زقاق رامي الى أول شارع النصر فرأينا الناس مزدحمين في قهوة الشارع فأنبرى من بينهم حدث يافع وصاح بأعلى صوته (لا تيأسوا أيها لاخوان) فاذا هو السيد صلاح الدين شيخ الارض أخو السيد منير وبجانبه والده فأجابه أخوه باللغة الفرنسية فلتحيا الحرية يا والدي فما كان من الرئيس الا وصاح في وجه السيد منير متوعدا وقال أنه يمنع الاكل ويضعه في الجميرة أربعة أيام .

واصلنا السير في شارع النصر بين صفوف المزدحمين على الجانبين وكلهم يجول الدم في عروقهم . ولاحت مني التفاتة فرأيت السيد حسن الحلواني الوطني الملتهب المعروف واقفا عند باب حديقة سورية ، فلما وقعت عيناه علينا ارتعش وارتجفت شفتاه واصفر وجهه ودلت حركاته كأنه كان يريد أن يلقي نفسه بيننا فأما أن يخلصنا واما أن يساق معنا . وهنا رأيت الدكتور كوستي أيضا

اوتريسيانو قادما في سيارة وهو رجل اشتهر من تقربه من الفرنسويين وخدمتهم وتفانيه في محبتهم فأريته لمعان السلاسل في يدي لعله يشعر وهو ينظر الى زميل من زملائه بشيء من احتـــرام النفس ويقول هذه سبة تلحق بكل طبيب في سورية وعار يلتصق بكل حامل شهادة عالية لانه لما يسمع بتاريخ هذه البلاد على تغير دولها وتنويع حكامها أن عومل أحد من درجتنا لهتافه للحرية بمثل ما عوملنا به .



الشهبندر في سجن القلعة

ساعة الوصول وتسجيل الاسماء :

وصلنا الى القلعة فصعدنا سلما قرب بابها من الداخل الى اليسار فدخلنا حجرة لتسجيل أسمائنا فقدمنا الى المسجل واحدا واحدا (فحل السلاسل من أيدينا) وأخذ يكتب الاسم واللقب والصنعة والعمر والهوية بعد تفتيش محافظنا وجيوبنا تفتيشا دقيقا للاوراق . وفي النهاية كان يقيس قامتنا بعلامات مدونة على الحائط . وجرى أنهم لما كانوا يفتشون محفظة الاخ سعيد بك حيدر وجدوا فيها برقية بتوقيع ابراهيم بك هنانو الذي أقلق المستعمرين في بداية الاحتلال بعصاباته ووقف حسكة في حلوقهم ، وهي جواب له على تهنئته بالتبرئة والافراج عنه ، فتمسك بها الرئيس الافرنسي في بادىء الامر ، ولكن بعد ترجمتها نظر الى تاريخها فاغفل شأنها . ولما فتشوا محفظتي وجدوا فيها حوالة المستر كراين التي أشرت اليها سالفا فقام الرئيس لها وقعد وجعل يصوب فيها منظره ويقطب حاجبيه ويفتحهما كمن اهتدى الى اكتشاف سر من الاسرار فظن فيها الفناء والكفاية ، وقال همسا لعريف بجانبه (تحويل له شأن عظيم) فقلت في نفسي : نعم من أعظم الشؤون !!!. فهكذا ظن انه نال من سمعتنا بالتخديش . ولكننا عرفنا دعاويهم الباطلة من

ثياب التزويق مدى الدهر ونكتنا عظامها على قارعة الطريق فصار يراها الصادي والغادي بشهـــــادة أشرف الناس من الغربيين والشرقيين في العالم القديم والحديث ، حتى صار التزوير صنعة لازمة لدولة الاستعمار . سألني الضابط الرئيس بكل اهتمام ما شأن هذه الحوالة ؟ فقلت له : حوالة أعطيت لي لتصرف في سبيل البعثة العلمية ، فهز برأسه مستهزئا وقال : ستعطي عنها الايضاح اللازم في الديوان العرفي ، ثم أخرج من جيبه مذكرة رسمية كتب فيها التهمة الموجهة الينا وهي : « اننا نحن الاربعة متهمون باحداث مؤامرة لتغيير شكل الحكومة يتبعها عمل أرتكب أو بوشر بارتكابه لاجل تنفيذ ذلك » .

الدخول الى الحجرة المخصصة لنا وحالتها :

وبعد الانتهاء من تسجيل هويتنا وتفتيش ألبستنا ساروا بنا الى باب عليه الاقفال الضخمة والسلاسل الثخينة فقـام البواب ففتحها ، وقبل أن نصل اليها صاح رجل مـــن ورآنا مستهزئا : (استقلال ؟ فليحيا الاستقلال . فلتحيا الحرية) فقلت في نفســي ديباجة قبيحة ، ثم التفتنا فاذا شاب قصير مكتنز أسمر اللون تدل هيئته على أنه من مستخدمي المستعمرين ، ولكن خفف ما بنفسي لما علمت أنه ولد عقوق لوالد عرفته في الماضي وهو الضابط الاربدي علي خلقي صاحب الحركات والسكنات في شرقي الاردن .

دخلنا من البوابة الى صحن كبير تطل عليـــه نوافذ صغيرة وأبواب بالمتفرجين من المسجونين الذين صاحوا من أعماق قلوبهم فليحيا الاستقلال وصاروا يشيرون الى كل واحد باسمه ، فسار بنا الدركيون الافرنسيون الى مدخل كبير يؤدي الى حجرتين متقابلتين أبوابهما حديدية وعليهما السلاسل والاقفال ، فدخل أمامنا الـى الحجرة اليسرى منهما وكان بها بعض السجناء من جنود الجـيش المختلط ، فأمرهم بالانتقال، ثم قال لنا : هذه الحجرة لكم، فدخلناها

في نحو الساعة الثالثة زوالية ، فاذا هي حجرة متوسطة الاتساع ، اول ما يلفت النظر فيها الرائحـــة الكريهة المنبعثـــة منها ، وضوءها الضئيل من نوافذها الصغيرة ، ودف عريض يحيط بها مؤلف من أوصال حقيرة مكسرة فيها ثقوب وفرجات ، وقد نخرها السوس ، وهو قائم على آرجل ارتفاعها نحو منتصف قامة ، فدخلنا وقعدنا على هذا الرف وأخذنا نقلب الطرف في هذه الحجرة الغريبة ، وقد بهتنا ووجمنا وأخذت الدهشة منا كل مأخذ ، وصار كل واحد منا يخاطب نفسه ويسألها عما فعلت حتى أمسيت بحبس (الدم) وبين جدران اللحود ، أفي يقظة نحن أم في الاحلام ! وهل خطر في بالنا أن نبيت يوما من الايام مع الذين كنا نعدهم مظهرا من مظاهر الانحراف في الطبيعة الانسانية ونسعى جهدنا لدرء أخطارهم عن المجتمع ببث الدعوة لنشر التربية ومبادىء علم الصحة بين جميع الطبقات ؟ بالامس كنا نقول : اذا أردنا تحسين النسل والخلاص من الدمامة خلقا وخلقا فما علينا الا أن نجعل الزواج خاضعا للرقابة العلمية فما بالنا أوينا هذا المساء الى الحجرات التي بنيت في نظر الاجتمـــاع للذميمين ؟

ولما خمدت سورة الغضب فينا وحل الهدوء محل الاشمئزاز الذي يصحب السكون النفساني عادة أصبح باستطاعتنا أن نرمـــق بيتنا الجديد وندقق النظر في هندسته وتزويقه وطلائه ونمتـــع النفس باثاثه ورياشه ، فاذا فراش أرضه أتربة فيها النجود والاغوار وقد زاد في جراثيمها وهوائها أن عين الشمس ما وجدت اليها منفذا وعين السجان أمرت بمراقبة الداخل والخارج من الانسان فقط ، ولم تؤمر بالتعرف الى الحيوان ، وحيطانه تعلو على الارض نحو أربع قامات ، وتظهر لاول وهلة أنها مطلية بطلاء رمادي أزرق ، ولكن هذا الطلاء هو في الواقع مزيج من أوساخ وافرازات ، غير آن كثرة الادهان منعت التمازج التام بينها ، فكنت ترى اللطع واللطخـــات ذوات الاشكال المتنوعة مما يشبه المذنبات الى ما يشبه الاشباح

كأنها الغيوم السوداء المتلبدة فوق الافق ، والسقف مؤلف من ثلاثة صفوف متوازية من أعمدة من الخشب غير لونها الدخان والغبار حتى صارت بذية اللون كأنها مدهونة بدهان خاص ، وصار همي الوحيد من شدة الفراغ فيما بعد أن أستلقي على ظهري فأعدها فكانت تبلغ التسعة والعشرين عمودا في الصف الواحد ، وكنت كلما عددتها قلت في ضميري ما أشد تكييف النفس . بالامس ما كنت أرضى تعداد أشراف الناس والاقتصار على أحاديثهم فما بالي أكتفي اليوم بالنظر الى عمد السقوف المحددة ؟!.

وكان لهذه الحجرة أربع كوى اثنتان منها علويتان في السقف واثنتان بشكل نوافذ على الحائط الجنوبي ، ولا تتجاوز فتحة الواحدة منها الذراع الرابع فكان نورها ضئيلا يعمي البصر والبصيرة والهواء الذي يتخللها لا يكفي لحمل أنفاس السجناء ، فضلا عن حمل الابخرة المتصاعدة منها . ولو كانت فينا خفة الروح في هذا المكان القاتم كما هي في الفيل ، تعزينا بها عن ضيق نوافذنا ، كما تعزى بها عن ضيق عينيه . ولكن على كل حال هندسة الفيل طبيعية أصطلح الناس أن يصمتوا أمامها ، وأما حجرتنا فلنا الحرية والحمد لله في نقدها . ويوجد بالزاوية الشرقية الشمالية من هذه الحجرة باب يؤدي الى حجيرة دعوناها (مقصورة التواليت) لان فيها الحمام وتوابعه ومن محاسنها أن الداخل اليها لا يحتاج الى الاثاث والرياش والمرايا لان العين من شدة الظلام الحالك فيها لا تستطيع ان ترى شيئا عدا أشباح الابواب الداخلية التي يضطر المرء أن يتلمسها بيده تلمسا . وجرى أننا لما كنا عند المسجل رأينا ترجمانا حديثا اسمه خليل من بيت النحاس وهي أسرة مسيحية معروفة فأظهر لنا التودد والعطف ما لا ننساه وطلب الينا أن نكلفه بما لا بد لنا منه فكتب كل واحد منا الى أهله بطاقة طلب فيها طعاما وفراشا ولباس النوم ، فقام بالخدمة أحسن قيام ولم ينم أكثرنا تلك الليلة الا وعنده من حاجاته ما كفل له بعض

الراحة .

وصول عدد من المجاهدين :

وعند الغروب سمعنا صلصلة الحديد وصرير السلاسل ووقع أقدام الجنود واذ أكثر الشباب الذين حيونا في دائرة الشرطة قد دخلوا علينا فقمنا لهم نحييهم فردوا علينا بالهتاف للاستقلال والاهازيج القومية الوطنية ، وهاك أسمائهم وهي الوجبة الاولى : الدكتور خالد الخطيب والسادة نوري الزين تاجر وموظف سابق وخالد جمعة تاجر وعبد الهادي دياب تاجر وعادل حتاحت طالب صيدلة ومحمد شخاشيرو تاجر وثروت الجعفري ضابط سابق وعارف الادلبي قائد أركان حرب . ثم الوجبة الثانية بعد نصف ساعة وهي من السادة : رشدي ملحس صحافي ورشدي الحكيم صحافي سابقا وموظف في العدلية وطلعت السراج والدكتور شريف الرفاعي وتوفيق القضماني وحسن الزنبركجي ضابط قائمقام وصبحي الزنبركجي تاجر وصبري البديوي وعادل شيخ الارض صحافي وفارس شيخو معلم نموذج في (البحصة) وياسين الخانجي تاجر وحسن الحلواني تاجر وسعاد حلبي طالب صيدلة ومحمود نديم الحلبي طالب وخليل خطاب تاجر وسليمان القصار تاجر وتوفيق العيني تاجر وعمر الخربوطلي ومحمد طاهر العمري ومهيب العطار تاجر ومحمد عبد الوهاب ومكي العفيفي وحسن الطرابيشي تاجر وعبد المحسن زين الدين (شيخ انخل) المجموع ٣١ ، ونحن الاربعة فيكون المجموع ٣٥ .

الحماس والالفة والاخاء :

ولم نحصل في ذلك المساء على جميع الحاجات التي طلبناها من بيوتنا ولكن على كل حال أتانا من الاكل ما أشبعنا ومن الفرش واللحف ما وسعنا عن ضيق شديد لم نشعر به كثيرا . وقد قضينا ليلة من ليالي الحظ والانشراح لا تنسى . فكانت أصوات أهازيجنا

وأناشيدنا وخطبنا ترن في أنحاء القلعة مما اضطر المحافظ الافرنسي أن يحذرنا من عملنا .

أما النوم فكان على بعضنا حراما بالنظـــر الى تفير المحيط والتحمس والافكار السريعة التي كانت تدور في مخيلتنا دوران السينما ، خصوصا وقد خرجت علينا من الجدران وثقوب الدف جيوش من البق أستمرأت مرعانا وطابت لها دماؤنا فكأنها عرفت أن هذه البشرة الناعمة تختلف عما تعودت عليه من البشر القاسيـة الخشنة فكنت تراها تنهش من لحمنا نهشا لو رآه الكولونيل كاترو (وكيل المفوض السامي) لطار فرحا . وغني عن البيان أن الذين لم يحفلوا ببنادق الفرنسيين لا يأبهون كثـــيرا لمراشف البق ولسع البراغيث .

قمنا في الصباح على تحية الاستقلال ، وبعد هنيهة دخل علينا خدمة السجن يحملون الينا جرايتنا من الخبز الاسمر ومغلى القهوة الموضوع في سطل من سطول الجنود القذرة فلم نمسسه ولم نذق طعمه بل اكتفينا بما زاد عنا من كسر الخبز وذخيرة الامس ، ثـــم أخذنا في التسلي والقاء الخطب وانشاد الاناشيد الوطنية ، ممـــا اضطر العريف الى المداخلة في الامر وتحذيرنا كما حذرنا السجان قبله ، ولكننا قلنا له أن تلك الاناشيد فرض ديني متحتم لا بد لنا من القيام بواجبه ، فقال هذا دين جديد وعبادة مستحدثة ، اني اعرف صلاتكم بالركوع والسجود، فلم تصلون في السجن وأنتم واقفون على شكل نصف دائرة ؟ فانتحلنا له الاعذار وبينا له ان الضرورات تبيح المحظورات ، فلم يصدق كثيرا بل ندب جاسوسا من بين السجناء واسمه عبد الله العكة سجين لجنايات شخصية بالآداب وكان من قبل موظفا ترجمانا في البعثة فأتى من الموبقات ما أرغم البعثة نفسها على حبسه فوكله بتتبع حركاتنا ووعي خطبنا .

عدنا الى أناشيدنا كالعادة ولكن مع التحفظ وزيادة الحذر ،

فكان الاخ السيد (بلاواكمك) لعنة الله على الجلاد مرتين ، وأخذ الدكتور خالد الخطيب على عاتقه الادعية بصوته المطرب والحانه العذبة ومما زاد في اتقان الصنعة استعانته بابن عمته السيد محمد شخاشيرو فكان يقف في منتصف الحلقة بطوله البارز ويقف الاخوان حواليه كالهالة حول القمر وكلهم رافعو ايديهم الى السماء للتبرك وهم يتلون الاناشيد الوطنية ولا سيما النشيد الذي نظمه في السجن اخواني على لحن نحن لا نرضى الوصاية لا ولا نرضى الحماية . نحن اولى بالرعاية لبني العرب الكرام :

اسجنونا كبلونا لا نبالي بالقيود
عزمنا عزم شديد للمعالي كالحديد
كم أهانونا بقول وفعال لا تطاق
فتحملنا الرزايا تشهد السبع الطباق
وحشة السجن لدينا نزهة تحيي النفوس
وعلى الاعداء أضحى يومنا يوم عبوس
نحن للموت خلقنا فلنمت موت الكرام
وليعش أبناء قحطان بعز وسلام

وكان الحماس جامعا بين الجلالة الدينية والحماسة الوطنية والافصاح عما يخالج الضمائر فكانت الشاهد العدل على الانفعالات التي تجيش في النفوس . وقد رآنا العريف الفرنسوي ونحن على تلك الحال من الهيئة الرهيبة والجد ، فلم يبد حراكا ولم ينبث ببنت شفة . ولا ابالغ اذا قلت أننا في الايام التالية بلغنا من التأثير في نفسه وتنويمه بالشعور الذي كان يتدفق من ملامحنا وحركاتنا أنه غير معاملته معنا وشدته نحونا رغم ارادته : وهكذا نفذت الدعوة الصادقة حتى الى قلوب الاعداء وأصم الصخور . وأخذ الاستاذ العفيفي على عاتقه قراءة القرآن الكريم فكان يحيي النفوس بتجويده المتقن وصوته المطرب ، ولم تتجل العوامل الروحانية في مجلس واحد مثل مجلسنا فكأنما به بركان تتفجر فيه الحمم التي صهرتها الحماسة الوطنية

والعاطفة المعنوية الخلقية والاندفاع الموسيقي والانفعال الشعري والتذكارات المؤلمة ، ووراء ذلك قلوب استحوذت عليها كبرياء الاخلاص المتقطب لا يقوى على دفع قوته الجامد فضلا عن المتحرك.

لا شك أننا ننوم بعضنا بعضا في حجرة السجن ولو عرض لنا الموت على تلك الحالة لقابلناه بالبشاشة فرحين . انني لا أقول هذا من قبيل الشجاعة والفخر ، بل من باب تأييد الاخلاص في الاخلاص وسبك الروح للروح واستسلام الشيبة للشبيبة بحيث كانت النفس الاكثر تأثرا كالرائد الخريت يتبعها اخوانها حيثما اتجهت بالفريزة ومن غير ان تفكر .

أخبار الاستاذ العفيفي :

ولا بد ان الذين تتبعوا أحاديثنا يذكرون أن الاستاذ العفيفي كان أحد من اشعل النار بخطابه على سيارة المستر كراين عند باب النزل واليك ما جرى معه مختصرا عن مذكراته قال :

« هبطت الشام في اوائل شهر شباط سنة ١٩٢٢ برفقة احد الاعيان الدمشقيين الذين جمعتني واياهم الصداقة في القاهرة ، ورأيت من ملازمته لي ان اخلص له الولاء في وقت أزل وايام عصيبة لا لتفقد ميسور وضياع موفور بل لوطن رهين الاحتضار وعزيم الاقتدار . حكامه مارقون واعداؤه فائقون والنذ الابي يرى الذل عارا والضيم شنارا فيروقه شوك القتاد في بحبوحة الحرية، ويؤرقه ريش النعام في قصور العبودية ، هذه سننه وهذه فطرته . واني لذلك والخطب شديد والخصم عنيد والحكومة دأبها الانتقام وعينها عن امثالي لا تنام وقدما ناوأتني وفي اعماق السجون القتني لا لجرم جنيت أو ذنب سوى أنني من الزغليين والوطنيين المتحركين ناهيك ما اقترفته من مطاردتي في كل آونة عندما حرمتني من وظيفتي العلمية الشريفة . واني لكذلك اذ عرضت علي اسباب السفر ، فبرحت من القاهرة لا فرارا من الظلم بل جهادا في سبيل الرابطة

الشرقية وسعيا للتفاهم بين ابنائها، ولا سيما بين ابناء القطرين الشقيقين المصري والسوري . فنزلت الشام بصحبة السيد المذكور فكانت علاقاتي الادبية به بصفتي أستاذه في البلاغة وآداب اللغة العربية واسطة عقد التعارف بكثير من خاصة الشام واعيانها . وبينما كنت اتحين الفرص السانحة لولوج باب لا مندوحة عنه وانتهاج شرعة لا بد منها تمهيدا لما جئت من اجله اذ فاجأني رقيم المعارف المصرية وهذا مداوله :

« يعود المدرس الموقوف لاسباب سياسية الى مقر وظيفته اذا اعتذر عن الاضراب والتدخل في الامور السياسية التي لا تتفق مع مهنته طبقا لقانون الحكومة ولوائح وزارة المعارف العمومية » . ولامر ذي بال آثرت مغادرة الشام وفي نفسي اشياء من انسان والله المستعان .

اليوم الاول :

وفي مساء الاربعاء الواقع في ٥ ابريل ـ نيسان سنة ١٩٢٢ جاءني السيد منير شيخ الارض بصحبة ابن عمة فؤاد آفندي شيخ الارض وطلب الي مرافقتهما الى نزل داماسكس بالاس لزيارة المستر كراين رئيس لجنة الاستفتاء الاميركية في البلاد السورية سنة ١٩١٩ وسفير اميركا في الصين الذي زار الشام في هذه المرة للتحقيق عن نتائج مباحثاته السياسية الماضية التي بنى عليها تقريره المشهور المودع في نظارة الخارجية الاميركية في وقت ترزح فيه الامة السورية الكريمة تحت نير العسف والخسف والاستبداد والاستعباد غير اني وعدت الاخوين المذكورين بالذهاب الى المستر كراين صباح الخميس الواقع في ٦ نيسان نظرا لضيق الوقت والمقام فانصرفنا بسلام .

اليوم الثاني :

وما اسفر صبح اليوم الموعود حتى وجدتني مسوقا بكليتي

الى دار القنصلية الانكليزية للتعليم على جــواز السفر وعوامل النشاط والسرور تطير بي طيران القطار . أزمعت الخروج من الدار تأهبا للسفر بعد انتظار السيد منير افندي شيــخ الارض انجازا لموعدنا المضروب ولما يحضر . وما وصلت سوق الخيل القديم حتى لفت نظري جموع من الناس تروح وتغدو زرافات ووحدانا فأقتفيت أثرهم وتبعت خطاهم حتى باب الفندق فقلت في نفسي كأنه هو بلا ريب اوتيل المستر كراين ، ثم تقدمت الجمهــور فعرفني بعضهم لمجرد التلميح ان القوم ما اجتمعوا بشق الانفس مبثوثة بالجواسيس والارصاد الا لتكريم المستر كراين وتوديعه في ذلــك الصباح قبــل سفره مع بسط امنيتهم بين يديه لارتباطه بقضيتهم العادلة وصداقته للمستر ولسن ذي المبادىء المعروفة ، فرأيت من الواجب ان اشترك في هذا الفرض العيني على كل عربي وشرقي . دخلت النزل مع الشهم الجسور انور بك البكري والوافدين معه . والجمع محتشد في البهو فألقى المستر كراين كلمته الخلابة وترجمها للمستمعين الاستاذ شهبندر الذي بعث في النفوس محبتــه واملا في المستقبل الزاهر . راقتني هذه الكتلة الملتئمة حول من يناصرها وهزتني تلك الجرأة الملتحمة بمن يعبر عن ضمائرها في حين ان الافواه ضامرة والقلوب واجفة امام ادارة مستبدة واوامر صارمة فاشتعلت لواعج اشجاني وازدحمت خواطر وجداني ، ولست ادري كيف عصيت عزيز الصبر وكيف اندمجت في ذلك الجمع ولا عهــد لي بقوانين البلاد السورية . او كيف تناسيت نصح صديقي الذي حذرني مرارا من خوض هذا الغمار القمقام . بلى ان للمنشأ سلطانا وان للنزعة قهرمانا .

انتهى المستر كراين من الخطابــة فنزل الفندق يتهــادى كالفلك بين عبــاب المحيط ، وتيار الناس قوي ومهيــب . وما رسخت قدماه بالسيارة حتى امسك بها الناس فانسللت من بينهم وعلوت السيارة فرفعتني الايدي امام الاشهاد فالقيت على الجمهور

ما مكنتني الفرصة من ابيات يخطر لي منها بيتان :

بين مصر ونيلها والشـــام عهد صدق ووحدة ووئام
وابن الشام لابن مصر نصير وابن مصر نصير أهل الشام

ثم اشرت الى وجوب الجهاد في سبيل استقلال البلاد بالطرق المصرية . فعلا الهتاف لمصر والمصريين ولمعالي سعد باشا زغلول بطل نهضتنا ودليل قضيتنا ، فهتفت للحرية من أعماق نفـس مفعمة بحب سورية والعروبيين وجاهـرت بسقوط الانتـداب والمستعمرين . وما زلنا بين الهاتفين والمترنمين بالاناشيد الوطنية والسيارة تشق مسالك الطرق والناس سكارى بخمرة الوطنيـة الصميمة ، الى ان دب دبيبها في موضع مدركاتهم الحسية والمعنوية، فما شعروا الا بانبعاث السيدات والانات الزافرات مـن أفئـدة فتقتها مدلهمات الشجون وجوارح أنطقتها مختلفات الشؤون غير مكترثين بما ينجم عن ذاك الانفجار الذي يعجز المقتصبون عن سده في شعب ناهض ثائر . سرنا والسيارة سير الهوينا ، وما هاجنـي وراقني غير منظر سيدتين مسلمتين تطايرتا من بين الجموع واعتلتا السيارة بالقرب من وضعي فيها واشتركتا مع الناس في القـاء العبارات الحماسية والترنيمات الشجية ، ولم يعقهما عن المطالبـة بحرية البلاد بما بعثاه في النفوس من الشجاعة والاقدام وما أوقداه في القلوب من الغيرة بجذوات الاضطرام سدل الخمار الذي طوته كطي السجل للكتب السيدة التي لها السبق في هذا المضمار الشريف حرم الاستاذ شهبندر ، ولعمري أن مثل هذه السيدة الاديبة في ميدان كهذا سهم أخيب » .

هذه خلاصة ما جرى للاستاذ العفيفي منذ مساء الخميس ومساء الجمعة حين مجيئه للقلعة ، وكانت هيئته لما دخل تـدل على الاهوال التي قاساها على ايدي المتمدنين في القرن العشرين وان السرور الذي بدى على وجهه وقت اللقاء بنا لبرهان على الاطمئنان الذي شعر به بيننا بعد عزله في تلك الليلة الموحشة .

مجموعة ثانية من المجاهدين تدخل السجن :

وفي الليل الثاني ازدادت صفوفنا بمجيء السادة الدكتور محمود بك حمودة استاذ امراض الحنجرة والاذن في المدرسة الطبية في دمشق ومن رجال الثورة المعروفين والسيد سعيد عبيد التاجر الحر والوطني الصادق والسيد حسن الطرابيشي الشاب التاجر الذي أبدى من الوطنية الصادقة قبل السجن وفي غضونه ومن بعده ما يسجل له بمداد الفخر والاستاذ رشيد بك بقدونس مدير المدرسة التجهيزية ومن رجالنا المفكرين وشاب ديري اسمه بديع خضر كان معاون الحاكم السياسي في الرمادي في العراق وهو رجل مجهول الهوية وله مسائل سنتعرض لذكرها فيما بعد . ويكفي ان نقول هنا ان الدركي الفرنسوي الذي ادخله علينا لما حل وثاقه امامنا تظاهر بانه يريد ضربه بجمع يديه ضربا مبرحا مما لفت انظار الجميع خصوصا بعدما قعد بجانبنا مطرقا في الارض محمر الوجنتين لا يبدي حراكا . ويوم الاحد في ٩ نيسان و ١٢ شعبان سنة ١٣٤٠ أضيف الينا السيد توفيق الحلبي صاحب جريدة الراوي ورفيقي الى العراق سنة ١٩١٥ وعبد الرحمن الطباع ومحمود المصري ، وهما رجلان مجهولان الهوية عندنا . وكان الطباع رابطا ذراعه ويظهر ألما شديدا منه ويدعي أن الشرطة أنهكته بالضرب لانه كان يستفز الناس الى اغلاق حوانيتهم . وقد حاولت أن أفحصه وأفك رباطه لعلي أكشف شيئا من أمره وان كان صادقا أخفف عنه من ألمه ولكنه امتنع امتناعا باتا ، وقد علمت ان الدكتور محمود بك حمودة تمكن من فحصه في الليل ، فرأى ان كوعه مصاب بتدرن بالعظم وأن الضرب الذي يدعيه مشكوك فيه . وحسبنا من حديث هذا الشاب الذي سأحقق عنه فيما بعد انه لما خرج من السجن مع من خرج طلب مني ان أعطيه شيئا من الاوراق التي أريد توزيعها في الخارج ليقوم بهذه الخدمة عن طيب خاطر فامتنعت وقلت له : ليس عندنا أوراق

التوزيع ، لانه خامرني الشك في أمره ، وأرجو أن أتبين حقيقته ممن يعرفه معرفة تزيل الشبهة من نفوسنا .

التحقيق مع توفيق الحلبي والحاقه بنا :

كنت قد ذكرت ما قام به الاخ الحلبي في الجامع الاموي من تحريض المجتمعين على الاحتجاج واليك تتمة حديثه ، قال :

«مشيت مع المتظاهرين الى اول شارع النصر حيث ركبت الترامواي الى بيتي في الصالحية في شارع الشيخ محي الدين ، وفي المساء جاءني بعض الاصحاب فأخبروني أن الحكومة قبضت على كثير من المتظاهرين وعلى الذين وجدوا في قهوة القوتلي فسرني هذا الخبر ووطدت النفس على السجن لانال قسطا من الفخر في سبيل خدمة الامة .

وفي اليوم الثاني ما رغبت أن أخرج من داري الا بعد القيام بما أستطيع عمله لاني أصبحت على يقين من سجني ، فبعثت والدتي الى عقيلة الدكتور شهبندر لاتذاكر معها وبعدنصف ساعة جاءت وعلمت منها أنها سافرت نهار الجمعة الى بيروت فلم تجد المستر كراين بل قابلت المستر نيكولي رئيس الجامعة الاميركية فأخبرها ان المستر كراين سافر الى بكركي لمقابلة بطريرك الموارنة . وقد عادت من غير أن يشعر بسفرها أحد ودعوتها الى التشجيع فيما اذا لم يخرج الاستاذ الدكتور من السجن ، وأنا على يقين أنه لا يخرج فرأيت نفسي بحاجة الى استمداد الشجاعة منها ، فشكرت لها حماسها ووطنيتها واندفاعها ورغبت اليها المؤازرة مع الانسة نازك العابد للقيام بمظاهرة نسائية وحث التجار على اقفال حوانيتهم والاستمرار على اظهار الحركة الوطنية بمظهرها اللائق فأظهرت استعدادا تاما . وبعد ظهر ذلك اليوم جاءتني الانسة نازك العابد وبيدها احتجاج من قبل نساء الحاضرة سعت هي وعقيلة الدكتور بتوقيعه . أما المظاهرة واقفال الحوانيت فلم تذهب للعمل لاجلها

هذا اليوم ، لان السيد عثمان الشرباتي افهمها أن الموقوفين سيفرج عنهم في الساعة الثالثة بعد ظهر هذا اليوم فقلت لها أن خروجهم الان ضرب من المحال ، وغاية رجائي المثابرة على عملكن ، ومع ذلك فاني سآتي الى دار الدكتور في الساعة الثالثة لارى وعد الحكومة للشرباتي . وفي الوقت المعين ذهبت وانتظرت الى الساعة الرابعة ، فلم يأت السيد عثمان ولا غيره ، فتأكدنا كذب الحكومة كما هي عادتها ، وقد قر قراري مع الانسة نازك والسيدة شهبندر على السعي للمظاهرة ، واقفال الحوانيت ، فودعتهما وخرجت من الدار ، فقابلني رئيس تحري البعثة واسمه أبو رياح فقال لي : أن مدير الشرطة يود مقابلتك ، فقلت له : وانا هيأت نفسي لمقابلته أيضا ، فسار بي الى مخفر الشهداء حيث تسلمني ممدوح بك العابد مفوض مخفر الشهداء ، ومن هناك جيء بي الى دائرة الشرطة حيث انتظرت المدير خالي حمدي بك الجلاد .

وحين تواجهنا وتقابلت العيون قال لي على صورة الاستفهام :

لماذا لم تخبرني وماذا فعلت ولم خرجت من دارك ؟ . فقلت له : ارسلت بطاقة لتقابلني في داري وقت الظهر فكنت مشغولا ، فقال : أنفذت اليك رسولا يخبرك أن تأتي الي ليلا .

السيد توفيق : ــ نعم جاءني الرسول ولكن القصد من اجتماعي بك لاجل مصلحتك لا لاجل مصلحتي ، واني خرجت من الدار وانا على يقين من أن الشرطة ستقبض علي وتسوقني اليك ، وحين تكلمت في الجامع الاموي لم يطمعني ان خالي مدير الشرطة وهو ينجيني ويشفع بي لدى السلطة الافرنسية ، وأني قادم الى دائرة الشرطة بكل سرور وارتياح .

المدير : ــ لم افهم كلامك وأني لاعجب كل العجب من عملكم هذا فاذا كنتم على نية من امركم فأعلموني لاكون معكم ، ومن الغريب ان الشرطيين وجدوا في جيب الدكتور شكا بعشرة الاف دينار محولا

لاسمه من المستر كراين (واشارة إلى حوالة المستر كراين لاجل تعليم السيدتين الدمشقيتين).

السيد توفيق : ــ لا علم لي بالشك انما القصد من اجتماعي بك اسداء النصح اليك ، فانت خالي ولا ارضى لك الردى ، وغاية ما استطيع ان اقوله لك ان تخدم المصلحة الوطنية .

المدير : ــ وضح لي أكثر من ذلك ، فاني اقسم لك بأي قسم تريده اني لا اتكلم وانما اريد ان اعلم واكون على بصيرة من المستقبل.

السيد توفيق : ــ لا استطيع أن أبوح لك بأكثر مما قلت (وربما لم اكن عارفا اكثر مما يعرف) لانني اقول لك بصراحة تامة اني لا اثق بعهدك ووعدك ، وانت من الذين لا يؤمنون بشيء حتى ينظروا بأعينهم ويلمسوا بأيديهم ، واكرر نصيحتي اليك بخدمة وطنك . فوعدني بخدمة الوطنيين وانا لست واثقا من كلامه لانه من عباد القوة والوظيفة ، وبقيت في دائرة الشرطة الى اليوم الثاني ، وفي الساعة التاسعة صباحا اخبرني المدير ان وفدا مؤلفا من العلماء والوجهاء سيذهب في الساعةالعاشرة الى الكولونيل كاترو ليتكلم معه بشأن الموقوفين الذين بلغ عددهم زهاء الخمسين . ثم قابلته بعد الظهر ففهمت منه ان الاجتماع انتج اطلاق سراح المسجونين الا سبعة وأنا منهم لا بد من محاكمتهم ، فطلبت منه ان يلحقني برفاقي بسجن القلعة ، فقال : ان حالة سجن القلعة سيئة جدا ولعلي اقدر ان ابقيك في دائرة الشرطة ، فلم اقبل كلامه فتركني وانصرف . وبعد ثلاث ساعات جاء مفوضه الخاص وذهب بي الى سجن القلعة حيث القيت عصا الترحال وبت ناعم البال » .

طعـــام السجن :

أما طعامنا في السجن فكان اول الامر يطبخ في بيوتنا ، وقد علمنا فيما بعد ان السلطة حاولت منعه وحتمت على السجان الا يسمح بدخول شيء من ذلك الينا ، والواقع ان الرئيس اخبرنا

صراحة ان الاوامر صدرت بوجوب أكلنا من طعام السجن : علب لحم دواب وخبز يابس ومعجن في آن واحد ونقوع القهوة كما تقدم ، فاتخذنا قرارا بالاضراب عن الاكل والصوم على الطريقة الايرلندية الا اذا رجعت السلطة عن هذا القرار الفادح ، فتناقلت الالسن هذا الخبر في سائر انحاء المدينة فحدثت ضجة على ما تبين لنا عظيمة وارتباك شديد ، فتدخل بعض كبار الموظفين في الامر ليحسنوا من السمعة القبيحة التي اكتسبوها ، فلم يفلحوا ، الا ان السلطة ادركت فيما بعد الخطر من هذه السياسة الطائشة فرجعت عن قرارها رغم انفها وسمحت بدخول الطعام على جري العادة .

كان اخواننا يضعون على الدف من الطرف الشرقي ، انواع الطعام الذي كان يأتي من بيوتنا مما لذ وطاب على طريقة السماط القديم ، ونزدحم عليه منا قيام حوله وقعود فنأكل اكلا شهيا بقابلية فتحت مسامها الروح الوطنية المنعشة التي كانت تدب في أعماق الجسم فتنبعث على النشاط والحركة والحياة ، وكنا نقاسم طعامنا أناسا واقفين وراء الابواب الحديدية وقد مرت عليهم الشهور وهم شركاء الذئاب في اكل لحوم الدواب . ولما افرج عمن افرج عنهم وبقينا لوحدنا فضلنا ان يكون طعامنا من المطعم الوطني للسيد حسن الحلواني دفعا للمشقة وبعد الطريق ، فكان ذلك باعثا لابناء الوطن على المسابقة للتقدم في تأدية الحساب والقيام بأسباب الراحة .

النشاط السياسي داخل القلعة :

أما الاعمال السياسية التي أتينا بها في سجننا فلا يجوز اغفالها لانها أتمت الدور الذي بدأته مظاهرة المستر كراين ، من ذلك ان البعثة نشرت في الجرائد يوم السبت في ٨ نيسان بيانا مضللا للحوادث التي جرت والاسباب التي دعتها للقبض علينا ، وفيه من الهفوات السياسية والمنطقية ما حملنا على كتابة رد عليه

مستوف للقضايا التي يجب علينا إبرازها . وعند الانتهاء منه سلمناه لسعيد افندي عبيد وحرجنا عليه ان يطبعه في بيروت ويوزعه بالسرعة الممكنة لاننا عرفنا انه سيطلق سراحه مع كثير من الاخوان في ذلك اليوم او بعده ، ويسوءنا جدا اننا لم نحفظ نسخة من هذا الرد ولا ندري حتى الساعة ما فعل الله به ، ولكن ردا اخر ظهر في المدينة دلنا على انه لم ينشر .

ومن الاعمال التي اتينا بها ارسال النشرات الى الخارج وفيها تحريض الناس على تجنب الاعمال الطائشة التي تضر بسمعتنا باعتبارنا شعبا مهذبا ينشد الحرية ويطلب الاستقلال ، وقد مسكت نشرة من هذه النشرات في بيت الاخوان ظبيان ، فاطلعت عليها البقية ورأت فيها ان يكون شبابنا الناهضين على اتصال تام مع الصحف في الداخل وفي الخارج ، ولا سيما مع صحف مصر . والظاهر ان وصيتنا للشعب بأن تكون اعماله منطبقة على روح العصر لم ترق في عين المستعمرين لانها تقوي مركزنا وتظهرنا بالمظهر الذي يحاولون ستره بكل ما لديهم من قوة لذلك اخفوها في المحاكم ولم يرد ذكرها ابدا .

ولما رأيت ان الافراج عن الاخوان اصبح قريبا خصوصا بعدما زارنا في السجن يوم السبت الكولونيل مفتش السجون ، فذكر لنا ان الذين لم يثبت عليهم شيء سيخرجون في بحر هذا الاسبوع ، والذين لا بد من محاكمتهم وهم القليلون يتأخرون الى ان ينظر الديوان العرفي في امرهم ، خطر لي ان اقوي معنوياتهم واشجعهم على الكلام في المجتمعات العامة ، فاقترحت ان يقف كل واحد منا ويلقي كلمات ارتجالية في أي موضوع يختاره او يقترح عليه غيره مدة خمس دقائق ، فقام اكثرهم بهذا العمل احسن قيام ، واذكر انهم اقترحوا علي ان اقول كلمة في السجون فقلت مشجعا : ان الاغلال في الايدي في سبيل الشرف القومي اساور من الذهب الابريز توضع في زنود على الطريقة الحديثة لا للزينة والتجمل بل التذكار

والفخر ، وان الجلوس على دفوف السجن البالية المنخورة فوق ارض نشاشة في خدمة الامة واعلاء شأنها هو الجلوس على عروش الملوك في القصور الفخمة ، انني لا اريد بعروش الملوك تلك العروش الفارغة التي بنيت على جماجم المستضعفين ووضعت قوائمها من عظام المساكين بل تلك العروش التي تحلها القلوب في الصدور وترفرف عليها ارواح الشهداء في القبور . ولكن اين هذا الكلام من البلاغة الساحرة والبساطة الخالية التي ترفرف من فم شاب يقم بخدمة اخوانه الاربعين واسمه محمود نديم الحلبي ؟ ان روحه كالماء الزلال من الينابيع العذبة ، فقد وقف بيننا بألبسته البسيطة النظيفة وقال بصوت واضح : انني اشعر وانا بخدمتكم انني سعيد وما أسعد الرجل الذي اذا خدم اخاه يكون قد وضع حجرا كبيرا في بناء هذا الصرح الشامخ . ولما جاء دور الاستاذ العفيفي وقف على جري العادة فحيا الاستقلال وسقط الانتداب وبث في الناس روح الشجاعة وازال عن العيون ستار الوهم .

وفي نهاية هذه الخطب كتبت على ورقة يمينا حلف به الحاضرون خمسة خمسة ، وكانت غايتي منه توثيق عرى الرابطة بيننا وخلاصة القسم بالله والشرف ان يخدم الواحد منا وطنه حتى الرمق الاخير وان يكون خاضعا للخطط الاستقلالية التي يضعها الزعماء من ابناء هذه الامة ، وانه اذا خالفها يكون مستحقا لعنة الله والناس اجمعين .

ومما هو حري بالذكر انني بعد الانتهاء من تحليف الاخوان نبهني احدهم السيد محمود نديم المذكور ، فرأيته يبكي بالدموع الغزيرة ، ولما سألته عن سبب بكائه تنهد وقال : الا اعد من الوطنيين ؟ فقلت له كيف لا ؟ فقال : ولم لم تحلفني ايضا كسائر اخواني ؟ فاعتذرت له عن هذا النسيان الفادح بتحليفي له على انفراد وليطيب خاطره .

التكتم بالاتصالات والشكوك بالجواسيس :

ثم صاروا يسألونني عن الرجل الذي يجب ان يعتمدوا عليه ويراجعوه ويستشيروه في امورهم فأشرت على بعضهم بمراجعة فلان ، وعلى بعضهم الاخر وهم الذين يوثق بهم بمراجعة فلان ، واما الذين رابني امرهم فتكتمت امامهم اشد الكتمان . وقد اشرت فيما سلف الى عبد الرحمن الطباع وما داخلني منه ، وكان حريصا كل الحرص على ان يأخذ من يدي منشورا وكلمة اخطها له ، ولكنني امتنعت كما ذكرت ذلك . وافضى بعض الاخوان الينا بكثير من اسرارهم وتعهد احدهم ان يفارق منطقة الانتداب الافرنسي سريعا لبث الدعوة الوطنية والقيام بالواجب القومي ، وكنا حريصين ان نلتقط من فم الشاب الديري العراقي ما نستطيع من اخبار البلاد التي كان فيها ، وكنا احرص على معرفة كنهه فذكر لنا انه قدم من الرمادي الى حلب لامور خاصة ادعى لنا انها سياسية ، وانه وضع في حلب تحت نطاق من المراقبة الجأته الى المجيء الى دمشق ، حيث زار محمد باشا العصمي العراقي النفعي حليف الافرنسيين ومندوب ابن سعود في سورية ، وبعد هذه الزيارة سيق الى السجن مكبلا بالحديد كما رأيناه بأعيننا بوشاية على زعمه وشى بها احد الجواسيس ، والكتاب بخطه ضبطه الافرنسيون ، ومما زاد هذه الدعوى تزويقا انه في اليوم الثاني من سجنه اتى احد الضباط المستعمرين فاستكتبه عشرة اسطر على عجل من كتاب عربي كان بجيبه . قال صاحبنا : ان المراد من ذلك مقابلة خطي مع الكتاب الذي ضبطوه ولكنهم لم يفوزوا بالغاية التي يتوخونها لانني غيرت خطي حين كتبت الاسطر كما غيرته يوم كتبت الرسالة .

ومما قاله لنا ان قبائل عنزة بامرة ابن هذال هاجمت دير الزور واحتلته منذ امد قريب ، وسوف لا يمر سنتان على هذه البلاد من غير ان يستولي عليها العراق . فسألنا عن الذي استنفر عنزة للقيام بعملها هذا فقال : فيصل الذي يدفعه الانكليز من وراء

ستار . ان الانكليز لا يدرسون مباشرة بل يتخذون لدسائسهم وسائط شأنهم في سائر اعمالهم السياسية ، فتراهم في الظاهر ابرياء وهم في الباطن اصحاب الحركات والسكنات .

هذا ما قاله لنا بديع خضر الديري وكانت علائم الجد والتحفظ والتستر بادية عليه في كل كلمة ينطق بها . وكان اذا لم يخاطبه احد يقضي اكثر اوقاته مطرقا في الارض ، كأنه يفكر في شيء عظيم ويتوقع خطرا مداهما من دقيقة الى اخرى . اننا لا ننكر انه خامرنا الشك في اليوم الاول من مجيئه ، ولكن الاطوار التي طرأت عليه والاحوال التي اكتنفته أزالت من نفوسنا بعض الشك ، حتى اننا صرنا نؤانسه ونطمئنه وندعوه الى التخفيف عن نفسه ، ورأى اخيرا ان يقوي روابط الصداقة بيننا فأعطاني وأعطى السيد حسن والسيد سعيد صورته الشمسية مع بطاقة فيها ذكر وظيفته في الرمادي .

ولكننا ويا للاسف علمنا بعد حين من السادة ظبيان اخوان ان هذا الشاب ربما كان جاسوسا نقل منهم صور بعض المناشير التي وزعت في المدينة ، وظهرت مثل هذه الصورة في الدعوى التي اقيمت عليهم في الديوان العرفي ، وكذلك كان حريصا جدا ان يأخذ منهم رسالة بخط يدهما للملك فيصل والامير عبد الله فامتنعنا . وعلى ذكر بديع ارى ان اذكر رجلا اخر حامت التهمة حوله كثيرا وهو الشيخ عبد المحسن زين العابدين الحوراني شيخ قرية انخل ، فان هذا الرجل ليس بالعير ولا بالنفير ، ولم يدل حديثه على انه يعرف شيئا من امور السياسة التي نحن بصددها ، ولما سألناه عن سبب الحشرة التي حشرها معنا اجاب بأنه كان له بعض علائق بشرقي الاردن ، وانه سيق الى السجن بسبب هذه العلائق ، وقد صادق الاخ حسن بك على ان الرجل كان في شرقي الاردن حقا وانه تعرف به هناك بواسطة الاستاذ الشيخ كامل القصاب ، الذي كان يسلم عليه ويؤانسه بالحديث كلما رآه ، ولكن الاخ حسن بك

وسعيد بك كانا بمقدمة المتشائمين . وقد دلت الحوادث فيما بعد على انه ربما كان جاسوسا ايضا لانه ما كاد يطلق سراحه من سجننا حتى اعيد الى السجن مع السادة ظبيان اخوان واعضاء حزب الحديدي حيث بقي نحو شهرين كاملين يسترق اخبارهم ، وذكروا لي انهم كانوا آخذين منه تمام الحيطة .

اني ما ذكرت اخبار هؤلاء الجواسيس الا ليكون شبابنا على حذر فلا يقعوا في الاشراك التي تنصب لهم كما نصبت لنا ، وان حركتنا القومية التي ترمي في الدرجة الاولى الى احياء مجد العرب صادفت في كل حين أعظم مقاومة من بعض الذين بمظاهرهم ولباسهم وعاداتهم اقرب الناس الى العربية الصميمة كشيخ انخل هذا ومن على شاكلته ، ومن كان في شك فليتذكر الادوار التي لعبها شيخ الرولة مثلا ايام الترك والعرب وايام الفرنسويين على السواء ، ولا يوجد لباس لا يلبسه الجاسوس او طبقة من الطبقات لا يكون من أهلها ، او دين من الاديان لا يدين به ، وللدراهم جرأة ان تنفذ الى اسمى القلوب في ظاهرها كما نفذت الى نفوس خونة كان الناس الى مدة قريبة يصلون على اذيالهم ، فحذار ايها الشاب المتقد غيرة ، حذار من المظاهر ولا سيما ما كان منها مفرطا في اظهار التقوى والصلاح .

ومن الاحاديث التي تداولناها بالسجن احاديث التجار الشخصية التي مرت على كل واحد منا ، واذكر انني والسيد توفيق الحلبي ذكرنا لاخواننا من اخبار رحلتنا الى العراق والاخطار التي لقيناها والايام العصيبة التي قضيناها قبل الوصول الى ارض السلامة ما استدعى عجبهم واستغرابهم .

وحدث في العاشر من نيسان ان السجان دخل الى حجرتنا فوجد الدكتور خالد الخطيب والسيد ياسين الخانجي في النافذة وكان قد خطر علينا ذلك من قبل خشية اتصالنا بالخارج ، فحكم

عليهما بالسجن ، واذا عجب القارىء من سجن السجين فليسمح لي اقول له ان طرق مجازاة السجناء متعددة ، ومن اهمها سجنهم في حجيرة تسمى في مصر (بالزنزانة) وهي حجيرة لا نافذة فيهـــا فرشها الثرى وحجمها القبر وطعامها الخبز والماء ـ اكل العلماء ـ، مع الانقطاع التام عن اخبار العالم الخارجي اللهم الا ما يسمع من صلصلة الحديد ، ولكننا مع ذلك استطعنا الوصول اليهما بتسرب الحيطان فأوصلنا لهم الطعام والشراب وسائر حاجاتهما الضرورية.

نظام السجن ووضعه الاجتماعي والصحي :

وعلى ذكر نظام السجن ارى ان اذكر شيئا مما سمعناه عن اخبار السجناء ليطلع القراء على هذا الوضع الاجتماعي الـــذي يجهله اكثر الناس ، والذي لعب اصلاحه دورا مهما في تاريـــخ المدنية الحاضرة ، ومتى ذكر ان الغاية الشرعية من السجون هي اصلاح النفس وردها الى حالتها الصحية الطبيعية مع دفع ضررها بعزلها عن المجتمع عرفنا شأن هذه الحالة الناقصة في كل حجـرة تجمع السجناء (متزعم) وهو لسان القوم والمتكلم عنهم والمدافـع عن حقوقهم يسمى العريف او الجاويش ينال مقاما بينهم لشخصيته وسوابقه وشدة الحكم الذي استحقه ويجلس على فراش طنفسية عجمية باحدى زوايا الحجرة وفوق بابه نملية مزخرفة ويضع فيها ذخيرة من الطعام المطبوخ ، وهو الآمر الناهي بينهم ، واليه يرجعون في خصومتهم ، وربما وضع لهم الدساتير التي عليهم ان يسـيروا عليها من كنس ورش وتنظيف وطبخ وتحضير مائدة الاخـــوان ، فوظيفته الاساسية المراقبة والاشراف واسداء النصائح المؤثـــرة وان شئت فقل بلسان السياسة الحاضرة (انتداب) . لا جرم ان نرجيلة الحشيش لا يجوز لاحد ان يمصها قبله ، والطعام الطيب لا يذوقه فم قبل فمه ، وهو مثل حضرات المندوبين كلامه نافــذ لا يقبل الاستئناف والتمييز . يجلس في زاويته ويجلس السجناء حواليه فيقضون النهار على عزف (البزق) وتدخين الحشيـــش

وسب الدين وحلف الطلاق والصلاة لله تعالى في الاوقات الخمسة حاضرا مع قراءة القرآن الكريم والادعية والتبريك ، ومنهم من يعمل مطمورة او خابئة صغيرة يضع فيها حمصة كل اسبوع او كل شهر ليعرف بها عدد الايام التي قضاها . ومن عاداتهم انه متى دخل عليهم سجين جديد استقبلوه بالترحيب ، ثم سألوه عن سبب حكمه بقولهم (ويش حمولك) يعني اي شيء حملك ؟ فان كان قتلا مثلا قال لهم : (دم) فيحيونه ، حي الله حي الله يا هلا يا هلا . وكل جناية مهما كان نوعها من السلب والنهب تقابل بمثل هذه التحية ولا يستحي جانيها من ذكرها الا جنايتي السرقة والعمل الشنيع فان فاعلهما يموه في جوابه الى ان يعرف بعد هنيهة فيقابل بالازدراء والسخرية وبكلمة (اخسأ) .

واذا كان الجاني الجديد من اهل المكانة والشأن بين طبقة الجناة ، فان العريف يستقبله استقبالا خاصا ، ويأخذ بيده الى مرتبته مؤقتا الى ان يأتيه فراشه ويخصص له موضع . وفيما سوى ذلك لا يجوز لاحد ان يجلس على فراش الاخر او يمر من فوقه ولو قمزا . والعيشة في الحجرة هي اشتراكية او ما يقارب الاشتراكية في الاكل ، فيأتي الطعام ويجلس الجميع على المائدة ، فاذا لم يأت لاحد منهم طعام باسمه فالاخرون لا يشعرون به واذا شعروا فلا يظهرون ذلك له . ومنهم من ليس له مكانة ولا يأتيه طعام فعيش بينهم مقابل الخدمة التي يقدمها لهم . واذا وجدت ان احد الاغنياء المعروفين حكم عليه بالسجن لمدة قريبة فانهم والعريف بمقدمتهم يطمعون فيه ولو استطاعوا لسلخوا جلده ، فالاشتراكية الشيوعية ورأس المال يتطاحنان في اعماق السجون وظلمة الحجرات. وللسجناء عادة ساعتان للفسحة والرياضة في صحن السجن ، ساعة في الصباح وساعة في المساء ، والقانون يحظر عليهم جلب المكيفات ولكن دراهمهم تأتيهم بجميع انواعها من الحشيش والافيون والكوكائين الى المشروبات والكحول المختلفة ، لذلك قلما دخل

الطلحاء السجن وخرجوا منه صلحاء ، وبالعكس طالما الصلحاء الذين زلت بهم القدم مرة في العمر فخرجوا منه طلحاء الى الابد والشاذ لا حكم له .

ومن النعم التي أنعم الله بها على القلعة ، أن الحكومة العثمانية جرت اليها ماء عين الفيجة ، فأصبح السجناء يشربون من هذا المنهل العذب بعدما كانوا تحت رحمة القلل التي كانت تملأ من مياه كمياه المراحيض . أقول ذلك بناء على ما رأيته بعيني فان الخادم السجين الذي كان يجلب لنا المياه لشربنا كان لا يرى فرقا عظيما بين أن يملأ قلتيه من الانبوب مباشرة وبين ان يغرفها من المياه المتجمعة في البرميل تحته وكثيرا ما يفعل الطريقة الثانية لسهولتها وقربها للتناول .

وما دامت نظرية السجانين أن السجون آلة للتعذيب فقط ، فمن العبث أن نصلح حال السجون ، ومن دواعي الاسف أن السجان الافرنسي الذي يباهي بمدنيته ويزري على الشرقيين مدنيتهم وتربيتهم ، ربما كان بهذا المعنى دون السجان الشرقي في بلادنا على أقل تقدير ، لاني رأيت من سوء معاملته واهماله بشأن النظافة الحقة كسكوته عن الخادم الذي كان يغرف لنا الماء القذر من البرميل أمام عينيه ما لا يدع مجالا للشك . ورب قائل يقول أن تعذيبنا كان مقصودا بالنظر للثورة السياسية التي احدثناها في البلاد ، فأقول ان من يجرأ على تعذيب خريجي المدارس العالية وأرباب الصناعات الفنية في سبيل الحركة لا يحجم مطلقا عن التمثيل بالجناة اذا سمحت له الفرصة . والانسان مؤلف من مشاعر محكها الحوادث ، فمن كان حيوانا شرسا مع ابناء النور لا يكون ملكا كريما مع ابناء الظلام . وسيقرأ القارىء في وقائع السادة ظبيان اخوان وأعضاء حزب الحديدي من خبر التعذيب الطويل ما يكون عبرة للمعتبرين . ويرى الاستاذ حيدر أن نحو الاربعين في المائة يدخلون السجن ظلما وعدوانا لاجرام اقترفها غيرهم ، فاذا اضفنا

الى هذا العدد الكبير من ليست الجنايات من طبعهم بل سيقوا الى السجن بثورة عصبية آنية أو لدفاع عن شرف معنوي لا تنظر الى قيمته الشرائع والقوانين أو لعداوة متأصلة ليس المحكوم عليه بادىء في احداثها . وذلك عدا الاحداث المراهقين الذي كان السجن باكورة اعمالهم الدنيوية ـ اذا جمعنا ذلك كله تبين لنا شأن السجون وخطرها الاجتماعي والادبي بقطع النظر عن موقعها الصحي واعتبارها في بعض الاحايين بؤرة تنبعث منها أقبح الامراض الوبائية كالحمى النمشية مثلا .

الغليان في المدينة :

لنترك السجن والسجناء الآن ولننظر ما حدث في الخارج ، وهل اهل الوطن فترت عزيمتهم فكأن حبسنا رشاشا باردا (دوشا) أخمد حواسهم ؟ كانت تأتينا الاخبار رغم حرص الفرنسيين على منعها بضربهم طاقا حاجزا حوالينا ، بأن البلدة في هياج عظيم تغلي كالمرجل ، ولكن لم يظهر أثر مادي لهذا الغليان الا يوم الاثنين اذ حدثت على ما اعتقد أعظم حادثة اجتماعية في تاريخ دمشق عاصمة العرب واقدم مدينة ذكرها التاريخ .

النشاط النسائي الوطني :

كان الباحث البسيط يظن ان السيدات بمعزل عن كل روح وطنية او شعور اجتماعي حي ، اللهم الا ما كان من نوع الحماس الديني بقالب الافراط في العبادات عند بعضهن وأن معظمهن ما اخذ من المدنية الحاضرة الا ازياءها من الاحذية ذات الاعقاب العالية والجوارب الحريرية الشفافة الى الالبسة القصيرة والشعور المكوزة ، ولم يكن نظر الرجال فيهن يسمو عن هذا الاعتبار كثيرا بحيث كن عند اكثرهم من متاع الدنيا .

في يوم الاثنين حدث ما غير هذه النظرية وقلبها راسا على عقب اذ تجمع في عرنوس (وهو الحي الذي تقطنه سبعون انسة وعقيلة

من اشرف سيدات البلاد) ، بعضهن في البيوت المجاورة بل في منعطفات الطرقات خشية مداخلة رجال الشرطة ، ومع ذلك فالقسم الاعظم تمكن من الاجتماع عند عقيلتي ،وفي نحو الساعة الثالثة زوالية خرجن في وقت واحد رغم انف المفوضين والشرطيين ورجال التحري الذين كانوا يراقبون باب داري ، وصرن يهتفن للحرية والاستقلال ويحيين رجال الوطن بمناديلهن البيضاء .

منظر جديد في جلق شيخة الشرق وظاهر اجتماعي غريب في بلاد مضت عليها الاحقاب وهي ساكتة ساكنة تحذو حذو الآباء والاجداد فكأني بحضارتها هبت الاعاصير فيها فجأة فاصبحت بحرا خضما يعب عبابه ، وتتلاطم على شطوط القديم امواجه ، ولم يعد مثله مستغربا في بلاد كالقسطنطينية والقاهرة وقازان مثلا، اذ تختلط فيها المدنيتان الغربية والشرقية منذ عشرات السنين ، بقدر ما يعد مستغربا في هذه البلدة التي كثيرا ما وصفها الناس بانها شرقية بحقيقة المعنى المنطوي تحت هذا الوصف من الاستمرار على وتيرة واحدة في اساليب العيش . نظر سطحي وخطأ في التقدير والحساب لان جلق ايام العهد العثماني كانت بؤرة النهضة القومية . وسواها من المدن وان امتازت لكثرة معاهدها وضخامتها الا ان وجهة الحياة كانت اما مذهبية طائفية او تجارية مادية ، ومثل هذا التنظيم الاجتماعي لا يولد الروح التي تشعر بوجودها وتدرك التبعة الملقاة على عاتقها ، والاهلون هناك لا يزالون حتى هذه الساعة يا للاسف ينظرون الى العالم عالمين ، عالم الاسلام والنصرانية ، بدلا من عالم الشرق والغرب ، وغني عن البيان ما في النظرة الثانية من توحيد العمل بين البوذيين والبراهمة والمسلمين والنصارى والمجوس والترك والعرب والكرد الخلاص من الكابوس الذي اناخ بكلكله عليهم جميعا فكاد يقضي عليهم ، ولعل الاستاذ اللبناني الذي كان في المجالس الرسمية يسخر بداخليته سورية ويصفها بالقصور والانحطاط عن الساحل يتذكر ان في الداخل ــ وفي الداخل فقط ــ ظهرت الروح

الوطنية الخالية من شوائب التعصب البارد والسجح العالق باذناب القرون الوسطى .

سارت السيدات من هناك الى القنصلية الاميركية حيث احتججن على العمل الشائن الذي ارتكبه المستعمرون الطائشون ، ومن موجبات الاسف انهن لم يجتمعن بالقنصل نفسه ، فذهبن توا الى القنصلية الايطالية هتفن للاستقلال واحتججن ايضا ، ومنها للقنصلية البريطانية وكن اثناء الطريق محطات برجال الشرطة من كل جانب خشية اضرام نار الثورة في الرجال .

لم يكن القنصل البريطاني في داره ، لذلك بعد ان وقفن على باب القنصلية بضع دقائق ملن الى جهة المناخلية منها سرنن في طريق باب القلعة ، ولكن الحكومة هنا اتخذت أشد الاحتياطات لان هذا الطريق يؤدي الى سوق الحميدية اعظم شارع في دمشق ، فارسلت الجنود من كل حدب وصوب وسدت جميع الطرقات والمنافذ ، واصطفت السيارات المصفحة عند المصرف العثماني القديم ، والدبابات بسوق الحميدية ، ولكن السيدات مع ذلك حاولن بكل جهد المرور ، فوقف الضباط الافرنسيون حائلا دون ذلك ، وهنا جرت ملحمة بين سيدة واحد الضباط ، فصاحت في وجهه صيحة ادبت الرعب في قلبه والحماس في احد المشاهدين ، فاسل هذا مدية من جيبه وحاول طعنه بها ، ولكن الشرطيين تدخلوا في الامر واعتصم هو برعويته الايرانية ، ولا ادري الان ماذا جرى له بعد ذلك .

رجع السيدات بالطريق الذي اتين منه وهن يهتفن للحرية والاستقلال وللسجناء ، وما زلن بهذا الحماس والناس يتبعن خطواتهن والشرطيون يحيطون بهن من كل جانب ، حتى ضاقوا بهن ذرعا وحاروا في الامر ، واخيرا لما عرفوا أنهن سائرات الى الصالحية بطريق سوق ساروجة أوعزوا الى السيارات الاميرية وغيرها من السيارات أن تعترض الطريق امام المستشفى العسكري ،

وتحول دون مرور أحد ، فلما وصلن الى هذه النقطة اضطرهن الشرطيون بالقوة الى التفرق . وهكذا انتهت هذه المظاهرة الفذة في البلاد العربية كما ابتدأت بنشر المناديل البيضاء في الهواء والهتاف للبلاد وشبابها الناهضين .

اما البلدة فإنها لما بلغها أخبار السيدات وما قمن به من الاعمال التي تزري بأعمال الرجال دب الحماس في جميع طبقاتها ، فرأوا احسن فرصة لابداء العواطف الوطنية التي افتدتهم ، وللاحترام الذي يجدونه نحو رجالهم ، فأغلقوا حوانيتهم ومخازنهم بحيث أصبحت المدينة في لمح البصر من أقصاها الى أقصاها مضربة احتجاجا على العمل الجنائي الذي اقدم عليه القومندان ارلا بوس ومن نحا نحوه من طائشي المستعمرين الذين كانوا حتى تلك الايام يعتقدون ان عاصمة البلاد العربية بعد يقظة الاستقلال مدة سنتين عادت الى نومها العميق واحلامها اللذيذة بمعاوية وهشام وعمر ابن عبد العزيز والرشيد وزبيدة وابو نواس وسائر المناظر في الف ليلة وليلة كلها اخذت تمر على النائمين من السحاب !!! ولكن فات هؤلاء المستعمرين ان الامم التي لا ماضي لها يستحق الحلم لا مستقبل لها يستوجب الاحترام ، الماضي كنز مدفون والمستقبل عزام يستخرجه والاجداد شجرة السطور والاحفاد مرساها الكليم يستمد منها نشوة والهاما ، ولا شك ان الروح التي بسطت سلطانها من البحر الى البحر في ظرف اربعين سنة وحاربت سلف المستعمرين في عقر دارهم لا تتلاشى وتذهب مع الرياح ، بل على الاحفاد لاستعادة المجد الغابر ان يلبسوها حلة زاهية من عمل الصناعات الحاضرة مزركشة بالفن والادب .

الاتصال بالوطنيين خارج السجن :

كان اتصالنا بالخارج بفضون هذه المدة سهلا بواسطة المستخدمين من السجناء وبواسطة الوطنيين من رجال الدرك

ضباطا كانوا ام افرادا واخص بالذكر منهم (١) ...

فكانوا اذا تعذر اتصالهم بنا ، يأتوننا من الكوة على السطح فليقون الينا بالاخبار والرسائل التي يحملونها ، ويتناولون بخيط مدلي الرسائل التي نجيب بها ، ومما نذكره مع الشكر الخالص ما قام به الشريف الحلبي المعتقل في حصن القلعة الخارجي في هذا الباب، فقد كان عقدة الاتصال بيننا وبين ابناء الوطن ، وانني الى الان لم ار وجه هذا الشهم ، ولكن عرفت من قبل انه محكوم عليه بالاعتقال مع البطل الشهير الذي ازعج المستعمرين كثيرا (يعني بالبطل ابراهيم بك هنانو والثاني كامل بك) .

الافراج عن معظم الموقوفين :

وفي مساء الاثنين في ١٥ نيسان سنة ١٩٢٢ ، خرج اربعة من الموقوفين ، وفي اليوم الثاني اخرج الباقون زمرا زمرا ، بحيث لم يبق حتى الليل احد من السجناء غيرنا نحن السبعة : الدكتور شهبندر حسن بك الحكيم سعيد بك حيدر منير افندي شيخ الارض السيد العفيفي خالد بك الخطيب وتوفيق افندي الحلبي . وقد لاحظنا شدة في منع الاختلاط لم يسبق له نظير في معاملتنا بعد خروج اخواننا ، فأتى الرئيس الإفرنسي ومعه افراد من الدرك المختلط فسدوا النافذتين العلويتين في السقف ، فأصبحت الحجرة اشد ظلمة والرائحة الكريهة المحصورة فيها لا تحتمل ، وحقا انها الان قبر الاحياء فنور الشمس اصبح ثمينا نتهاداه مهاداة لان الاشعة الضئيلة التي كانت تدخل علينا من احدى النافذتين الصغيرتين الباقيتين نحتبسها فنمرها على ايدينا ووجوهنا ولو استطعنا لخبأنا منها في جيوبنا للمساء ما يدفع عشوته ، واخذنا

---

(١) لم يدون الشهبندر أي اسم في النص المحفوظ من مذكراته بخط يده .
الناشر

نقترب من الباب نروح النفس بما يهب علينا من الحجرة المقـــابلة من النسيم الذي صرنا نعده عليـــــلا وان حمل بين طياته روائح الحشيش ودخان النراجيل ولفائف التبغ وابخرة المسجونين .

طريقة جديدة لتبادل الرسائل :

ولكن عبثا حاول الفرنسيون بترنا عن الخارج، فالسيد المشار اليه وجد من استأمنه الخدمة ، فكان يرسل لنا بواسطته كل ما يستطيع من الاخبار ، واذكر اننا حصلنا بهـــذا الطريق على عدة رسائل من عادل بك العظم وحسن افندي الطرابيشي والســـيد عثمان الشرباتي ، حتى انهم ذكروا لنا ان نطلب ان تكون محاكمتنـــا علنية وان يحضرها قناصـــل الدول بدعوة من المحامـين عنا . والظاهر ان الفرنسيين احسوا ان حبل الاتصال بالخارج لم ينصرم مع كل الاحتياطات التي اتخذوها فزادوا بالتشديد ، وكامـل بك زاد في الحبل الى ان اخترع طريقة مبتكرة لم يسبق لها مثيل على ما نعلم ، وهي انه اتفق مع الخادم المستأمن (باطلاع منا) على قطع النور الكهربائي عن جميع السجون في الساعة العاشرة ليلا بواسطة الزر الكهربائي الموجود بالقرب من حجرته ، حتى اذا استولى الظلام امره ان يقذف من النافذة الجنوبية الرسائل التي عنده وأن يقذف له في تلك الغضون الى حصن القلعة الرسائل التي عندنا والملاحظات التي كنا بحاجة الى ابلاغها لاصحابنا ، وقد نجحت هذه الحيلة أتم النجاح امام أعين السجانين الافرنسيين الذين اتخذنا لهم من ظلمة الليل حجابا كثيفا سترنا به عملنا واذ عد البعض الليل كافرا للظلمة التي يستتر بها فاني اعد كفره في تلك الليالي ايمانا كاملا .

حينما ينطفيء النور في الظلام الدامس كان كل واحد منا يلازم مكانه وبعد هنيهة كان يسمع وقع الاقدام الخفيفة ، فيعقبهـــا حفيف الرسالة المقذوفة ثم همس ، فيتسلق احدنا الجـدار الـى النافذة فيقذف الرسالة التي معه فيعود الرسول بهـا ، وهكـذا

تنتهي الرواية في بضع دقائق والعريف الافرنسي على كرسيه غير شاعر بما حدث حواليه وفي حجرته .

ولا ننكر اننا بعد الافراج عن اخواننا شعرنا بشيء من الوحشة خصوصا بعد انقطاع الجرائد عنا والتشديد في الحجز علينا ، ومع ذلك فقد صح قول شاعرنا العربي :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود

اذ تيسر لنا فرد من افراد الدرك اسمه (...) كان يحمل لنا شيئا من اخبار اعدائنا وحالة بلادنا ، وكان هذا الدركي كما علمنا من بطاقة تركها لنا بخطه على اتصال بالسيد (...) ولمح بطرف من أخبار الوطنيين ، والظاهر انه مخالف لحكومته ولا يرى رأيها في الاستعمار ، ولم نر عليه اقل علاقة تدل على طمع في مال أو في جاه أو اسداء مساعدة ، ومما يسجل له مع الشكر انه الوحيد الذي نبهنا الى موعد محاكمتنا وذلك قبل حدوثها بثلاثة ايام ، فأزال عنا بهذا العمل عناء شديدا كما سيرى القارىء في القريب العاجل .

ولم تختلف حياتنا بعد خروج اخواننا كثيرا لما كنا عليه معهم، فكنا ننشد الاناشيد كالعادة ، ونقرأ ما يصل الى ايدينا من الاخبار بشوق ولهف ، وجرت حادثة يوم الثلاثاء في الحادي عشر من الشهر حرية بالتدوين ، وهي اننا كنا نتحدث في عصارى ذلك اليوم اذ سمعنا من بعد صوتا يشبه الطلق الناري ، فقمنا وصرنا كلنا آذانا ، وبعد هنيهة سمعنا طلقين اخريين ، ثم اخذ اطلاق النار يشتد وبأشتداده هبت عاصفة في القلعة في رؤوس السجناء ،كسرت الابواب الحديدية ودكت بعض الحيطان ، واخذت الضوضاء تملىء الفضاء ، والصراخ في جميع الزوايا يعم الاذان ، ولا يفهم منه الا بعض عبارات التهديد ، فملأ عليهم السجانون البنادق واخذوا في اطلاقها ، فاختلط عويل الجرحى بوعيد العصاة ، ونحن في ذلك

كما يقول المثل العامي (كالاطرش في الزفة) لا نعرف مما حولنا الا ما أملته المخيلة وقوة التكهن من حدوث ثورة في المدينة اندفع لسان لهيبها الى السجن ، فحدث ما حدث وانا لكذلك في تكهننا اذ دخل علينا العريف فشهر مسدسه وصاح بصوت مرتجف منقطع : من تحرك منكم من مكانه فأنا ذابحه من غير ادنى توقف ! فلم نجبه بحرف واحد وكانت نتيجة الثورة في السجن جرح ثلاثة او اربعة من السجناء جروحا بالغة واحدهم فقد احدى عينيه .

مظاهرات الطلاب واستشهاد بعضهم :

وقد علمنا في المساء من مراسلة السيد شريف ابو علي ان تلاميذ المدرسة السلطانية ومدرسة ملك الظاهر ومدرسة التجهيز قاموا بمظاهرة عظيمة في البلدة احدثت هياجا بين الاهلين واضطرابا لم يسبق له مثيل ، لان الحكومة اقدمت على القبض على بعض هؤلاء التلاميذ والزج بهم في دائرة الشرطة فأدى هذا العمل الى هجوم اهل الوطن على الدائرة نفسها لانقاذهم فقتل بسبب ذلك السيد عيسى شموط من الميدان الفوقاني وعمره ١٨ سنة وبدر الدين عرار من الحي المذكور وعمره عشرون سنة واخرون من قبر عاتكه وجرح نحو الستة جروحا بالغة ، وبقيت المدينة مقفلة كاليوم السابق .

ان هذه الدماء البريئة مضافة الى دماء الشهداء الذين بذلوا نفوسهم من قبل في سبيل القضية العربية هي شاهد ناطق بالحق الصريح الذي لنا ودعوة صميمة تسمو بنا الى مصاف الامم الحرة ، لان الشعب الذي ليس لديه من ابنائه من يبذل النفس في الخطر المعد لهم الذي يهد كيان الامة لا يحق له التربع على اريكة الاستقلال، سنذكر هذه الدماء كما ذكرت دماء ابطال سنة ١٩١٥ وسنة ١٩١٦ وستنسج عليها عقيلات سورية بالخيوط الذهبية روايات البطولة العربية ونبلغها للابناء والاحفاد في اليوم الذي تباهي الامم بتالدها

وطريفها ما قدمت في سبيل المجد من النفس والنفيس .

الحكومة تعلن الاحكام العرفية والشعب يغلق حوانيته :

ولما رات السلطات الفرنساوية الخطر الداهم ، اتخذت كل انواع الحيطة فاعلنت الدائرة العرفية ، ومنعت خروج الناس الى الطرق من بعد الساعة السادسة مساء ، واوعزت الى الحكومة الوطنية ان تنشر في الجرائد المحلية ان كل من لا يفتح حانوته يغرم بثلاثين ليرة سورية ، ولكن لم يلتفت احد من الاهليين الى هذا الاعلان البارد بل داومت المدينة على الاغلاق يوم الاربعاء ايضا .

ويوم الاربعاء صباحا بلغنا ان احد ابناء الوطن بينما كان مارا في الليلة الماضية في سوق مدحت باشا ، صاح فيه الجنود السنغاليون ان يقف ، وكان اصم لا يسمع كلامهم ، فما كان منهم الا ان اطلقوا عليه النار فأردوه صريعا يتضرج بدمه ، فبلغ هذا الخبر مبلغا اثر فينا . فعقدنا حفلة تأبين ذكرنا فيها شهداء الوطن بقصد ام بغير قصد من الشأن في رفع كلمة الامة، ومن الغريب اننا ونحن في دمشق لم يبلغنا خبر عن الشهداء غير هذا الخبر فكأن السلطة اخفت سائر الاسماء سترا لجرائمها وتهدئة للافكار .

والان وقد مضى علينا نحو اسبوع في السجن من غير ان نخرج للهواء الطلق ونور الشمس ، فان انفسنا اخذت تشعر بشيء من الضيق ، ومع ان الرئيس الافرنسي ابلغنا رسميا يوم الاثنين الماضي ان البعثة سمحت لنا بتناول طعامنا في بيوتنا والخروج الى صحن القلعة مرتين في اليوم ، فان الشطر الثاني من هذا السماح لم ينفذ ابدا . والظاهر ان الافرنسيين اعتقدوا ان لنا ضلعا في الثورة التي حصلت في السجن ، وهم ليسوا بعيدين عن الصواب اذا كان المقصود بهذا الضلع الخطب التي تلوناها والاناشيد التي انشدناها ، واما اننا اتصلنا بهم مباشرة فهذا خطأ لان كل واحد كان يعتقد ان ربط القضية الوطنية بالاشقياء عمل يضر بالمصلحة

العامة ويسيء الى سمعة القائمين بها . وكثيرا ما كنا نحمل على الثورات التي حدثت في الماضي قادت الى فرار السجناء كما حدث عقيب الانقلاب العثماني في اواخر الحكومة العربية .

تبليغنا التهم الموجهة الينا :

وفي مساء السبت نحو الساعة السادسة أتى ضابط أفرنسي بلحية شقراء هو كاتب الضبط في الديوان العسكري يحمل أوراقا ، ومعه ترجمان دمشقي ، وأخذ ينادي كل واحد منا على حدة ويبلغه التهمة الموجهة ضده . وقد قرأت في وجه بعض الاخوان الذين سبقوني بالاطلاع على التهمة علائم الاضطراب الهادىء، فأطرقوا في الارض وخاضوا في بحر من الافكار لا يلتفتون الى أحد ، فلما جاء دوري والقى الضابط على مسامعي التهمة الموجهة ضدي وناولني اياها مكتوبة بخط سقيم تأملت فيها فاذا فيها المواد الجزائية التي يقتضيها الحكم ، فطلبت اليه أن يقرأها لي لاتفهم معناها ، فقرأها فلم اجد فيها ما يدعو الى ذلك الاضطراب ، والظاهر أن اقتصاره على ذكر التهمة فقط للاخوان الذين سبقوني – وهي تهمة جزاؤها الاعدام في القانون العثماني – أوجب هذا القلق الطبيعي الذي يشعر بمثله كل انسان اكتنفته الاسرار كما اكتنفتنا .

عدت اليهم فأوردت لهم شيئا من معاني الجمل التي سمعتها ، ثم فتحت ورقة الاتهام واخذت في ترجمتها حرفيا بمعونة أحد الاخوان المطلعين على الاصطلاحات القانونية الاستاذ سعيد بك حيدر وهذه هي بنصها وفصها :

نص المذكرة الاتهامية بحقي :

الجمهورية الفرنسوية

رقم ٩٦٤ المحكمة العسكرية : مذكرة اتهام احضارية

ديوان المحكمة العسكرية لمقاطعة دمشق – جلسة في دمشق :

في الساعة الثامنة من اليوم الخامس عشر من شهر نيسان سنة ١٩٢٢ .

نحن الرئيس بوانييه المدعي العام لدى المحكمة العسكرية لاراضي دمشق ندعو عبد الرحمن شهبندر دكتور من آطباء دمشق من الجنسية السورية بواسطة هذه المذكرة الاتهامية الموجهة ضده للخضور الى المحكمة العسكرية المتقدم ذكرها ، والتي هي تحت ادارة الكولونيل قائد الجيش في حكومة دمشق في الساعة السابعة من صباح الثامن عشر من شهر نيسان سنة ١٩٢٢ ، وذلك لاجل محاكمته على الاعمال المتهم بها وهي :

أولا : مؤامرة غايتها تغيير شكل الحكومة يتبعها عمل ارتكب أو بوشر به تمهيدا للتنفيذ .

ثانيا : التحريض على مؤامرة غايتها تغيير شكل الحكومة مع أسباب مشددة نشأت عن أن المؤامرة أتبعت بعمل أرتكب أو بوشر به تمهيدا لتنفيذها .

١ ـ حصل في الشام من ٤ نيسان الى ١١ منه سنة ١٩٢٢ بواسطة اجتماع مع أكثر من شخصين على قرار لعمل مشترك بقلب الحكومة المؤسسة في دمشق ، وأن المؤامرة أعقبها عمل ارتكب أو بوشر به تمهيدا للتنفيذ .

٢ ـ لتحريض الشعب في نفس هذه الظروف في زمان ومكان وبواسطة خطب القيت في المحال العامة وبواسطة منشورات وزعت على ارتكاب جناية المؤامرة وأن هذا التحريض أعقبه أثر .

وهما عملان نسبا اليه وحكمهما الجزاء بحسب المادة (٢١٧ و ٨٧ و ٨٩) من قانون الجزاء والمادة (٢٤ و ٣٢) من دستور ٢٩ تموز سنة ١٨٨١ والمادة (٢٢٦٧) من قانون الجزاء العسكري والمادة (٨) من دستور سنة ١٨١٩ معدلة بقانون ٢٧ نيسان سنة

١٩١٦ المتعلق بالادارة العرفية . وذلك كما يأتي :

قانون الجزاء المادة (١٧) : الحكم بالنفي يكون بالجلاء عن البلاد والسكن الدائم بأراضي يعينها القانون بعيدة عن أراضي الجمهورية في أوروبا واذا عاد المنفي الى أراضي الجمهورية فيزداد حكمه بالاشغال الشاقة الدائمة ، وأما المنفي الذي لا يدخل أراضي الجمهورية بل يقبض عليه في الاراضي التي تحتلها الجيوش الفرنسوية فانه يعاد الى منفاه السابق .

المادة (٨٧) من قانون الجزاء : ــ المؤامرة التي من شأنها تدمير الحكومة وقلبها يجازى صاحبها بالنفي .

المادة (٢٤ و ٨٢) من قانون ٢٩ تموز سنة ١٨٨١ كما يأتي : ان الذين يحرضون على ارتكاب الجرائم المذكورة في المادة ١٧ وعلى الاخلال بالامن العام كما في المادة ٨٦ يجازون بالسجن أحيانا من سنة واحدة الى خمس سنوات وبجزاء نقدي من ١٠٠ الى ٣٠٠٠ فرنك .

المادة (٦٧) من قانون الجزاء العسكري : ــ للمحاكم العسكرية السلطة التامة بأن تحكم بموجب القوانين الجزائية العادية في كل الجرائم .

قانون ٩ أغسطس سنة ١٨٤٩ مادته الثامنة المعدلة لقانون ٢٢ نيسان سنة ١٩١٩ : في المقاطعات التي تعلن فيها الادارة العرفية للسلطة العسكرية الحق في الخطر الواقع الناشىء عن الحرب الاجنبية أن تقبض على المتهمين الاصليين للجرائم المذكورة في المادة (٨٧ و ٨٩) من قانون الجزاء وعلى المشتركين بمعرفتها مهما كان نوعهم .

والشهود على المتهم هم :

١ ــ الملازم أوليف من البعثة الافرنسية . ٢ ــ الضابط

الترجمان سيا . ٣ ـ الرئيس موبو سان عن الانشاءات . ٤ ـ مفوض الشرطة حسن أفندي المأمون . ٥ ـ مفوض الشرطة ممدوح بك العابد . ٦ ـ مفوض الشرطة صبحي أفندي . ٧ ـ مفوض الشرطة محي الدين أفندي . ٨ ـ الشرطي عبدو أفندي البخاري رقم (٩) . الشرطي رقم ١٠٢ محي الدين أفندي . ١٠ ـ الشرطي رقم ٢٣٨ وعارف أفندي (٢٢٣) . ١١ ـ الشرطي رقم (٢٦٦) حسني أفندي. وقد عينا الملازم من الجيش المختلط بدمشق محاميا عنه وأعلنا أن له الحق دائما أن ينتخب واحدا حتى ابداء المحاكمة .

الامضاء : المدعي العام : بوانيبيه

* * *

تعليق على المذكرة :

يرى القارىء من هذه المذكرة الاتهامية كيف تطورت مسألتنا ودخلت في أدوار من النشوء والترقي التي يلذ تتبعها ، فكانت في بدايتها جرما عاديا دفع الحكومة الوطنية الى مجازاته بحسب قانون التجمع العثماني فلم تفلح ، ثم أصبح مؤامرة على تغيير شكل الحكومة ، ثم اكتسبت شكل الاسباب المشددة بالنظر الى محاولة التغيير على زعم الفرنسويين . فهل يشك احد بعد هذه بنظرية النشوء والترقي ؟! .

أوقفتنا الحكومة في عصارى الخميس في السادس من نيسان فأصبحنا منذ تلك الساعة تحت اشرافها وتصرفها ونطاقها الحاجز، فليت شعري هل تمدد جمعنا وطال كما تتمدد الاجسام بارتفاع الشمس وتزايد الحرارة وطول النهار حتى صار شاملا ما قبل التوقيف وبعده الى نهاية الحادي عشر من الشهر المذكور ؟ هذه حكمة في القانون تعجز أفهامنا معاشر الشرقيين عن ادراكها ، فلا

بد لنا من مرشد حكيم (أو ام رؤوم بقول الاصطلاح الاستعماري) يعلمنا اياها . ومن الغريب ان موظفا في البعثةبدمشق يقول لمراسل المقطم أنه لولا ما حدث في السجن بعد التوقيف لكـان الجزاء بسيطا لا يؤبه له ، فبارك الله بهذا البسيط الذي بدأ فاتحة أعمالـــه بالسلاسل والاغلال ، وحمدنا الله أنه لم يكن مركبا لان الجرم المركب والجناية الفظيعة كان لحسن الحظ من عمل الطائشين الذين نصبوا ذقونهم على مقاعد الحكم منذ اواخر تموز يوليو سنة ١٩٢٠ وجمعوا حولهم زمرة من الجواسيس المحتالين وحثالة من الموظفين الخائنين فأصبح كل منهم آلة للضحك والسخرية . المستعمرون يسخـرون الاذناب نفعا لغاياتهم وأوطارهم الذاتية الدنيئة ، والاذناب يضلون ساداتهم فيهبطون بهم الى الهاوية ويعدون بهم الى مسارح الروايات الهزليـــة .

تعيين محامين وطنيين للدفاع عنــا :

قررنا في المساء تعيين محامين وطنيين عنا ، ولم يأمن احد منا الى المحامين الذين عينتهم السلطة التي لفقت علينا هــذا التزوير المعيب ، فوقع اختيارنا على السادة والاساتذة جلال بك وزير العدلية في الحكومة الوطنية وفارس بك وزير المالية والياس بك نمور وسعيد افندي محاسن وحسن افندي الخطيب وسعيد افندي الغزي . فارسلنا اليهم بواسطة السجان رسالة ليواجهونا حالا ، واخبرنا المحكمة العسكرية اننا انتخبناهم ليدافعوا عنــا وطلبنا اليهم أن تسمح لنا بانتخاب ترجمان قدير في اللغتين العربية والافرنسية . فكان جوابها بقبول المحامين ورد الترجمان اعتمادا على ترجمانها الذي ارتبك يوم محاكمتنا ارتباكا شديدا ولم يستطع تأدية المعاني التي بسطناها كما سيراه القارىء في حينه . أمــا نحن فكنا نفضل ان يكون ترجماننا أحد ثلاثة جميل بك مــردم بك أو حليم بك حرفوش أو عارف بك النكدي .

ويوم الاحد قرب الزوال دخل علينا الاساتذة جلال بـك وفارس بك والياس بك ، واخبرونا انهم كانوا في المحكمة العسكرية منذ الصباح ، فاطلعوا على الدعوى من اولها الى آخرها ، وعرفوا دخائلها وهم يخشون أن تكون مفعمة بتزوير الشرطة وتلفيـق المفوضين فيما ذكروه أنه صورة أوراق تدعي انها خرجت مـن السجن فيها استنفار الامة الى الثورة وخلع نير الاستعمار ، فأظهرنا بطلانها ، وكان الياس بك خلاف رفيقيه تظهر عليه علائم التشاؤم ولم يخف ما كان يساوره من الهموم والشكوك ، ولما سألناه لم لم نؤخذ للاستنطاق ؟ قال : تعتبر السلطة ان التقارير التي حصلت عليها من الشرطة ورجال التحري كافية لتجريمكم ، ومنذ عرفـت انها وحدت الحوادث التي جرت قبل السجن وبعده تأكـدت ان نيتها سيئة ، والا لكان الامر هينا لا يؤبه له ، فسألناهم : وما هـي هذه الحوادث الموحدة ؟ فذكروا الاجتماعات التي عقدناها للمستر كراين والمظاهرات التي قمنا بها والدعوة الى العصيان التي أثرنا ثائرتها بالسجن ثم التفتوا وقالوا : أي مسلك ستسلكون في الدفاع سلوك الملاينة والاعتدال أم السلوك الذي يلتئم مع غايتكم فقلنا : سلوك الحق والواجـب .

ولم ينفك فارس بك وجلال بك من القول بان الحكم علينا لا يتجاوز الشهر بالنظر للايضاحات التي أوضحناها ، وأما الياس بك نمور فبقي على تشاؤمه ، وظهر لنا من حديثه انه زار القوماندان أرلا بوس خصيصا لهذا الغرض فعرف منه الشر الذي تضمره السلطة الاستعمارية لنـا .

قد يكون الحكم اشتدت صرامته بعد حركات السجن ، ولكن المؤكد عندي أن علائم الشر ابتدأت منذ وضع الاغلال بأيدينـا في دائرة الشرطة ، والتزوير علينا بالمؤامرة لتغيير شكل الحكومة ، حتى ان شرطي التحري الذي وقف ببابي ينتظرني عرف أننـي سأنفى مع اخواني .

ثم انني سألت الياس بك عن المحاكمة هل يطول أمرها ؟ فقال : جرت العادة في الديوان العرفي الافرنسي في مثل هذه المسائل الثابتة عندهم ، أن يبتوا في أمرها في يوم واحد بل في جلسة واحدة ان امكن ، وان اقتضى الحال في بعض الاحيان ان لا يذهبوا الى الفداء ، وربما اذا اضطر احد الاعضاء الى قضاء حاجته اتبعوه برجل ينتظر الى ان ينتهي فيعود به الى الجلسة خشية ضياع الوقت . ودعنا الاساتذة على أمل أن يضعوا مشتركين صورة المدافعة .

المحكمة تختار ثلاثة افرنسيين للدفاع عنا :

وفي المساء دخل علينا ثلاثة من الشبان الافرنسيين ببزهم العسكرية ففهمنا انهم ضباط في الجيش المختلط الذين عينتهم المحكمة للدفاع عنا .

ان حديثهم اللطيف وحركاتهم الهادئة الانيسة والبستهم النظيفة والاحترام البادي على وجوههم ، كل ذلك دلنا على أننا نخاطب الان اناسا ذاقوا من التهذيب وأصابوا من المدنية نصيبا حال دون الفطرسة التي تبدو عادة على المستعمرين في بلاد الشرق ، وفهمنا منهم أنهم من تلاميذ الحقوق في فرنسة لم يحصلوا على شهادتهم بعد وانهم يدرسون الان في المدرسة الحربية .

ذكروا أنهم طالعوا أوراقنا وأحاطوا بوجهة نظر المدعي العام ، وأنهم أتوا الينا ليطلعوا على رأينا ويلموا بقضيتنا ، فذكرنا لهم تنصيبنا للاساتذة السابقين بالنظر لمعرفتنا بهم ، فعذرونا على ذلك ، ثم اخذنا نقص عليهم ما جرى ونبين لهم الخطيئات المتسلسلة التي ارتكبتها السلطة وآخرها هذا التزوير الذي اقدمت عليه فأظهروا تفاؤلا عظيما وأجمعوا على أن الحكم لن يكون خطرا . ونصحني الملازم له (Leme) المدافع عني كما نصح سائر الاخوان ان نبين للمحكمة الضيق الاقتصادي المستحوذ على البلاد وأنه هو السبب في هذا العجز الذي بدا على الوجوه ،ثم ودعونا وانصرفوا

على امل اللقاء في صباح الثلاثاء في المحاكمة .

المسيو بيجان يحقق معي :

وقد صح قول الاستاذ نمور فيما ادعته السلطة من الاعتقاد الكاذب بان التهمة لاصقة فلا حاجة لاستجوابنا لولا انها ارسلت الي قبل اخلاء سبيل الذين اخلي سبيلهم المسيوبيجان مستشارالشرطة ليستجوبني عن حوالة المستر كراين التي ذكرتها سابقا . انفذالي يوم الاحد قرب الغروب فاجتمعت به في الفرفة التي تسجلت فيها هويتنا في اليوم الاول من سجننا ، فاخذ يسألني خطيا لم اعطاني المستر كراين هذه الحوالة وما هي غايته منها ؟ فاجبته بالاختصار كما ياتي : ان المستر كراين لما زار دمشق في هذا العهد ، سألني : هل يوجد في نسائكم معاشر السوريين من تضارع في علمها الكاتبة التركية خالدة أديب خانم ؟ فقلت لا ، فقال انني مسرور أن أخبرك أنها تخرجت في مدرستي في الآستانة ولي ضلع كبير في حثها على العلم وقد علمت على حسابي من بني قومها في أمريكا وفي غيرها نحو اثني عشر طالبا وطالبة ، وانا عازم أن ادعو طالبة او طالبتين من أوانس سورية للتعلم في أمريكا على حسابي أيضا ، فما رأيك ؟ فشجعته كثيرا ، وبعد البحث الدقيق وقع اختيارنا على الآنسة نازك العابد والآنسة أليس قندلفت فقاطعني سائلا :

لم انتخبت الآنسة أليس قندلفت ؟ فقلت : بالنظر الى سنها وقابليتها وعلومها التجهيزية . فقال : الا يوجد مثلها في هذا المعنى كثيرات من الدمشقيات ؟ فقلت : بلى يوجد ولكن العارفات الانكليزية مثلها بحيث يستطعن تتبع الدروس في الولايات المتحدة قلائل ، ثم أتممت حديثي فقلت : أن هذه الحوالة هي أجرة طريق تعطى لكل واحدة نصفها وهو خمسماية ريال أمريكي (خمسون جنيها) . وقد راجعت الآنسة قندلفت أهلها فقبلوا فارسلت الي بطاقة صباح سفر المستر كراين تعلمني ذلك كما أعلمت المستر كراين نفسه ، وأما

الآنسة عابد فاني ذهبت مع المستر كراين لبيتها لتكليفها فاظهر أبوها تمنعا ، ولكن جاءتني في اليوم التالي الى البيت فوضعت خبرا أنها تريد السفر من صميم فؤادها وأن ابوها يقبل على الأرجح اذا انا اقنعته ، وهذه يمكنني ان اقول انها قبلت ايضا وان كان الامر معلقا على رضا والدها .

قال المسيو بيجان : ألم يدعك المستر كراين للسفر معه الى بعض البلاد كالآستانة ؟ ألم يكلفك السفر معه الى بلاد العرب ؟ فعجبت من وصول هذا الخبر اليه كل العجب ، خصوصا والمستر كراين كان حريصا على كتمانه وأنا لم أفاتح أحدا به .

فرأيت الواجب أن أبين له الامر بدون اكتراث فأتممت له حديثي كأنه لم يقاطعني قائلا : اذا لم تستطع الآنسة نازك عابد السفر فقد كلفني أن اشتري له بالخمسمائة ريال الباقية معدات سفر الى بلاد العرب مثل كوفيات وعقل ومقددات ومحفوظات ونراجيل الى غير ذلك من الحاجات التي خبرتها أثناء سفري الى بلاد العرب لان المستر كراين يريد السفر الى الجزيرة فاليمن فالعسير وقد كلفني السفر معه فلم اعطه وعدا قاطعا بالنظر الى مشاغلي الخاصة .

هنا تم الاستنطاق وبعدما كتبه على نحو ثلاث صفحات من القطع المتوسطة أعطاني اياها لامضيه ، فتربصت ريثما عدت قراءته بانعام نظر وامضيته . واخيرا سألني : هل يأتينا الطعام من بيوتنا ؟ فأجبته بالايجاب ، ولكنني بينت له الشدة التي تنتابنا من قلة الشمس واستنشاق الهواء فوعد ان يقدم المساعدة ثم ودعني وانصرف .

المحاكمة وأسرارها

اقتراب الموعد وازدياد المضايقة :

اقتربت ساعة المحاكمة وازدادت شدة السجانين في احكام الحجر علينا ونبش طعامنا بحيث كانوا يتحرون اللبن الرائب الذي يأتينا بأصابعهم ويقطعون الارغفة اربا اربا خشية ان يكون فيها رسالة من الخارج .

ومما يذكر لهؤلاء الجناة ان الاخ منير بك شيخ الارض كان يوم الاثنين يسأل السجان (دوس) بعض اسئلة تتعلق بنا ، فقال له هذا تشفيا : **غدا سيكون يوما مذكورا تعد فيه المقصات ، فقال :** لم المقصات ؟ فقال : لقطع رؤوسكم ، واشار بكفه على رقبته بالحز، فوجم الاخ وعاد الينا وعلائم الاضطراب بادية على وجهه ، فقص علينا الحديث من اوله الى آخره فأطرقنا الى الارض جميعا، وبقينا واجمين حينا من الزمن ، وقد قضينا يوم الاثنين على أحر من الجمر ننظر تقلبات الحدثان ونحسب لعبارة (دوس) الحسبان ، خصوصا وقد سبقها من سجان آخر عبارة تشبهها ، ولكن بدلا

من المقص استعمل كلمة المقصلة ، وعبارة الدركي (فلان) وان كان فيها ما يدعو الى الاطمئنان الا انها تضاءلت بجانب هذه التصريحات المزعجـــة .

مغادرة سجن القلعــة :

كنا عارفين ان الطلب سيكون في الساعة العاشرة ليلا ، لذلك حلقنا ذقوننا في النهار ، وقرب وقت العشاء لبسنا ثيابنا وهيــأنا انفسنا وقعدنا على فرشنا ، فلما ازفت الساعة دخل العريف علينا فجأة وصرخ علينا : استعدوا للمشي بعد نصف ساعة واطــووا فرشكم ولحفكم . ولكنه حملق فينا فرآنا قد سبقناه الى طلبه ، فدهش من تسرب الاخبار الينا وخرقنا النطاق المضروب علينــا . عاد الينا بعد نصف ساعة ومعه سرب من الدركيين فأمرونا ان نمد أيدينا فوضعوا فيها السلاسل والاغلال ، وخرجوا بنا الى صحــن القلعة بعدما حملوا امتعتنا ومنها الى مركبة كانت تنتظرنا عنـــد البوابــة الخارجية .

صعدنا الى المركبة وصعد معنا الدركيون يحيطون بنا من كل جانب ، فأخذت تسير بنا الهوينا ، وكان يجرها أربعة بغال كبيرة ، وهي المركبات المستورة التي لا قوس لها يدفع عن ركابها صدمات الطريق والتي يساق عليها الجناة عادة .

كنا مطرقين من هذا المنظر الرهيب الذي زاد في وحشته أن الطرق مقطوعة من كل جانب عملا بأمر الاحكام العرفية التي خطرت التجول في المدينة من بعد الساعة السادسة مساء . وكان أمامنا نحو خمسون جنديا واقفين ببنادقهم وعليها الحراب قائمة تلمع من بين طيات الليل كما يلمع البرق بين الضباب القاتم ووراءنا عدد يقاربهم .

صوبوا البنادق عند منعرج (السروجية) ومالوا عن الطريق العامة كما مالت المركبة بنا معهم ، ثم وقفوا هنيهة فما الذي طرأ ؟. طرأ أن ثلاثة من رجال التحري كانــوا يرصدون الطريــق لاتخــاذ

الاحتياطات ، فظنهم الجنود الفرنسيون أنهم واقفون لاجلنا ، فلما اطلعوا على الوثائق التي بأيديهم عادوا بنا الى السير في طريقنا الى أن أوصلونا الى ساحة الشهداء حيث دخلوا الى بناية العابد .

في بناية العابد :

أنزلونا وأنزلوا متاعنا في صحن البناية ، ثم ساقونا والجنود محيطة بنا الى حجرة مظلمة تنبعث منها الروائح الكريهة وتشعر الاقدام فيها انها تدوس على الاقدار ، وبعد هنيهة نوروا مصباحا كهربائيا بجانبنا فرأينا ما حولنا ، فاذا نحن في مطبخ مهجور يدل العزق الحديدي المنصوب في وسطه والرماد المبعثر على جوانبه على أنه لم تشعل بـه نار منذ سنوات ، وبجانب الفرن بركة فيها مياه راكدة اسنة تتصل بأنبوب ناشف ينتهي بحجرة خشبية قائمة بجانب البركـة .

كنا عطاشى ظمآنين فطلبنا ماء، فأحضر لنا الجنود الافرنسيون المكلفين بحراستنا جرة شربنا منها حتى ارتوينا ثم أخذنا نلاحظ أطرافنا وجوانبنا فرأينا أمامنا كوخا جالسا فيه مفوض اسمه الحاج صادق المغربي رئيس القسم العدلي في الشرطة ومعة شرطي آخر فصارا يخاطباننا بطرف عيونهما وكان الجنود الافرنسيون يأتون من حين الى آخر فيطلون علينا .

أما نحن فكنا غير مكترثين بكل ما يجري حولنا وقد شعرنا بألفة صرنا نعد معها أيد الظالمين أحقر من أن تنالنا بسوء ولو توسلت بكل أنواع المكاره ، وصارت قصور الملوك وحظائر الماعز بنظرنا سوية كأسنان المشط ، لاننا سمت بنا نفوسنا محلقة في سماء العظمة حتى صرنا مثل الدنيا بعين النسر لا فرق فيها بين الأشباح التي تتراءى منها لانها كلها صغيرة بجانب قبة السماء . اتخذت ظهـر الفرن ــ الوجاق ــ سريرا فوضعت عليه فراشي ونمت نوما هادئا حتى الصباح ، اذ أيقظني وقع أقدام اخواني ، فقمت وغسلت وجهي

وأفطرت معهم وما كدنا ننتهي من أكلنا حتى جاءنــا الضابط الدركي ووراءه عدد من الجنود يحملون البنادق وعلى رؤوسها الحــراب ، فأمرنا أن ننتهي الى المحاكمة في الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين. سار بنا الى الطابق العلوي حيث انتظرنا في غرفة خاصة نحو نصف ساعة اجتمعنا خلالها بجلال بك محامينا فتذاكرنا مليــا بشؤون المحاكمــة .



يوم المحاكمة

طورا وزير وطورا سجين :

وفي نحو السابعة سار بنا الدركيون والجنود المسلحون حوالينا يحرسوننا الى غرفة كبيرة ، شعرت عند رؤيتها بتيار كهربائي يتمشى في بدني فيعثر في منابت شعري لان اندثار معالمها لم يمنعني أن أتذكر أنها كانت مكتب المؤتمر السوري يوم دخلتها وزيرا بمحفظتي وبزتي السوداء الطويلة لاصحح فيها بيان وزارتنا قبل تلاوته على النواب الكرام وهاانذا بعد مرور سنتين أدخلها سجينا مكبلا بالحديد بلباس يكاد السجن يجعله من الاطمار البالية ، وبدلا من الجنود الواقفين بسلاحهم لتحيتي أرى جنودا مقومين حرابهم خشية هربي، فسبحان مقلب الامور ومحول الاحوال .

امرنا أن نقعد على مقعد خشبي على صف واحد كنت على راسه ، وبجانبي حسن بك ثم سعيد بك ووراءنا مقعد للمحامين ، وعن يسارنا مقاعد متعددة لارباب الصحف والموظفين ملكيين وعسكريين وعن يميننا خمسة متكآت لاعضاء المحكمة ورئيسها ، وامامنا مقعد للمدعي العام في الديوان العرفي ، ووراء مقاعد الموظفين حجرة اخرى للمستمعين ورأينا العلم الافرنسي منشورا على الحائط وراء التكآت وفي وسطه رمز الجمهورية .

وما استقر بنا المقام حتى دخل علينا رجال المحكمة جميعا فقمنا لهم بحسب الاصول ، وامتلأت اكثر المقاعد باصحابها واصطف وراءنا المحامون عنا الاساتذة جلال بك وفارس بك والياس بك وسعيد

أفندي الفزي .

ثم اخذ المستمعون يدخلون الى الفرفة الخلفية واحدا بعد واحد ، والجنود المسلحون ببنادقهم وحرابهم وقفوا مكانهم ، وقد عرفت من بين أرباب الصحف مراسل المقطم ، وصاحب جريدة فتى العرب وسورية الجديدة ، ومن المحامين المستمعين عادل بك العظم وعبد السلام حلابة المصري ، ومن الموظفين الافرنسيين الكومندان ارلابوس صاحب الوقائع المشهورة والمسيو سيرو مستشار العدلية والمسيو بيجان مستشار الشرطة وكثير ممن لا تحضرني اسماؤهم ، ورأيت من ابناء الوطن يحيى بك حياتي ويوسف افندي الحاج صاحب مجلة الانوار وسري الاتاسي وغيرهم ، وامتلأت غرفة الاستماع الخلفية بالوطنيين لحظت منهم الشيخ توفيق المنيني والسيد عثمان الشرباتي وزكي بك شيخ الارض وندرو افندي مشاقه ترجمان القنصلية البريطانية والحاج اديب خير واسبر افندي الدادا الى اخره بحيث تكسرت المقاعد من كثرتهم واخبرت ان البهو الخارجي كان طافحا بالمستمعين والمنتظرين الذين كانوا على أحر من الجمر ينتظرون نتيجة هذه المحاكمة التي لطخت اسم المدنية الحاضرة .

أما الاحتياطات التي اتخذت خارج الديوان العرفي ، فيكفي أن يقال أن العساكر انتشرت من شارع السنجقدار الى نزل فكتوريا وكلهم شاكي السلاح ، والدبابات تفرقت في ساحة الشهداء ، ورجال الامن من الشرطيين ودرك ووطنيين وافرنسيين ملأوا المنعطفات والزوايا . وبالرغم من كل هذه الاحتياطات المرهبة كانت الساحة المذكورة تهيج كالبحر المتلاطم بالامواج من كثرة المنتظرين .

المحاكمة :

في الساعة السابعة والدقيقة ١٥ بدأ الرئيس الكولونيل الى ... آخره ... (ولاجل الاطلاع على اطراف الدعوى وسير المحاكمة يلزم مراجعة الجرائد) .

وبعد تبليغنا الحكم ونحن منفردون وليس معنا الا الاستاذ جلال بك و فارس بك، بدت على وجوهنا علائم الاستهزاء والسخرية، وضحك غير واحد منا على هذه العدالة ، التي يمن علينا بها القرن العشرين ، ويبني عليها الخياليون حصونا من صفائح المعدن لاتلبث أمام غمز المهماز في أرجل الطغمة العسكرية أن تشمق من كل جانب .

ان القوانين اذا لم يكن لها في قلوب رجالها تلك القوة والحرمة التي اكتسبت بها الشرائع السماوية بردة من التبجيل والتعظيم والتقديس ، تكون آلة بيد هؤلاء الطائشين ليسخرونها لاغراضهم الدنيئة ، ولشتان بين العدالة التي تبغيها القلوب التي لا تخاف الوزارة والصدور بل والملوك أيضا ، أمامها غير عارفين حكمها لهم أم عليهم ، وبين دساتير كتبت على ورق ليسخر بها متنطع من متنطعي الجندية ، فيجعل اسم المدنية الحاضرة بعملة عارا وشنارا على مرور السنين والاحقاب . وترانا اليوم وقد جربنا الامور بأنفسنا وعرفنا تزوير المستعمرين وقدرنا قيمة محاكمهم قدرها ، أقرب الى الاعتقاد بان دريفوس كان بريئا، وكابو كان مظلوما، وبولو اعدم غدرا ، وان المسيو بوانكاره لا غليوم الثاني رب الحرب كان سبب بلاء العالم في أوغسطس سنة ١٩١٤ .

ويل لكم أيها المستهزؤون بالانسان ، المستصغرون بقيمته ، العابثون بما زرعت في قلبه يد القدرة من الشعور الذي اذا تفجر دك الحصون والمعاقل. هلا ثبتم الى رشدكم بعدما امتدت ايديكم الاثيمة الى أحرم المحرمات وأقدس المقدسات ، فهتكتها في هذه السنين الاربع؟ أما ارتويتم من الدماء التي سفكتموها في الشرق والغرب؟حتى جئتم الى هذه البلاد التي ذاقت من ويلاتكم وبسببكم من المجاعة والبلاء والتعذيب والشنق والقتل ما لا يقع تحت حصر ، لتقضوا على آخر رمق منها باسم الام الرؤوم ، والاب الحنون ؟. والظاهر أن القدرة التي سخرت محكمة عاليه العسكرية ، أيام أحمد جمال

باشا الغدار، لتوقظ الشعور الفاتر في هذه الامة، لم تجد فيها من القوة ما يشفي الفليل ، فأرسلت عليها ريحا صرصرا من أردان قضاة من الجنود المستعمرة فحركت الاموات في قبورهم وتجاوب صداها العالمان القديم والحديث .

جرت السنة المحكمة أن الامم اذا احتاجت الى التبدل ، ان لا تتخلق خلقا جديدا ، ولكن أن تكيف تكييفا جديدا لعوامل تدريجية متنوعة ، ربما كان على رأسها ظلم الظالمين . فهنيئا لنا ثم هنيئا اذا بلغ اعتناء القدرة بنا أن أرسلت علينا منذ الاضطرابات الاتحادية حتى اليوم ، جيشا من الظلام لم يترك زاوية من الزوايا المهمة ، بل ان المظالم والمغارم وانواع الضغط في كل ناحية وصقع، بلغت حدا لا يجهله حتى اقرب الناس وأشدهم اتصالا بالمستعمرين، واحرصهم على تحقيق رغائبهم ، ولو كان في ذلك زوال المجد القومي وانهيار الاوطان .

لم تؤثر فينا قسوة هذا الحكم سوى اثر الاستهزاء والاحتقار، اذ شعرنا بعد رجوعنا الى المطبخ ، بشيء من الراحة التي تحدث عادة بعد البت في المسائل الخطيرة المعلقة . فلما تقدم الينا الطعام في المساء أكلنا بقابلية وانشراح خاطر، وقد بدا أثر من التعجب على وجوه الجنود الافرنسية على ما رؤا منا من قلة الاكتراث ، فكانوا يطلعون علينا فيتهامسون فيما بينهم ويتخابطون برفع الحواجب ثم يعودون من حيث أتوا .

العودة الى سجن القلعة :

وفي نحو الساعة العاشرة ليلا ، دخل علينا الرئيس ، فقال استعدوا للخروج من هنا . وبعد هنيهة ركبنا المركبة التي اقلتنا في الليلة الماضية بعدما وضعت في أيدينا الاغلال ، وما كدنا نخرج من باب البناية حتى أحاطت بنا الجنود من جميع الجهات وخرجت علينا الانوار من السيارات المصفحة والدبابات التي كانت تحرس

ساحة الشهداء بجانب المجلس البلدي .

سرنا الى جهة السنجقدار ، فسارت الجنود أمامنا وورائنا ، وكانت تتماوج كتماوج الزرع في الحقول عند هبوب الرياح ، ولم نصادف في طريقنا أحدا حتى انتهينا الى القلعة فأعدنا الى حجرتنا ، حيث نمنا نوما هادئا لم ننمه في ليلتنا الماضية .

وفي الصباح دخل علينا السجان دوس ، وصاح في وجهنا قائلا : الان صرتم من المحكوم عليهم ، ولم تعودوا من الموقوفين ، فالواجب أن تقوموا بتنظيف حجرتكم ، والا فانا ارتب على كل واحد منكم من غير تفريق نوبة يقوم بها ، فدفعنا عنه كلفة العناء لان بعض اخواننا قام حالا وكنس ورش ونظف الحجرة من الاوساخ المتلبدة على راحتها منذ اشهر .

جلسنا بعدما فطرنا ، وأخذ كل واحد منا يبحث في نفسه عن هذه المحاكمة الغريبة ، وعن سر المحاكمين ، وكيف انهم لم يقيدوا اجوبتنا ، بل اكتفوا بالتهمة التي وجهها علينا المدعي العام . ومن ثم اخذنا التعجب من هذا الحكم الذي تجاوز اقصى حد ذهبت اليه التهمة . ولكن الشيء الذي بقي سره محجوبا عنا ، واخذ تفسيره منا كل مأخذ ، هو اختصارهم في تبليغ الحكم علينا وحدنا دون المستمعين ، كما تبين لنا وقتئذ ، كأنهم ارادوا ان يبلغونا شيئا ويبلغوا العالم الخارجي شيئا آخر .

ليس على المستعمرين بمستنكر ان يبتكروا كل انواع الحيل، لان سورية في نظرهم لا تستحق ان يحترم فيها القانون ، وهذا ما نذر به (بريطون) لما حمل على الادارة في هذه البلاد ، وبين كيف احرقت القرى، وأهلكت الحرث والنسل، ولما اجابه المسيو بوانكاره بقوله: تذكر انك في سورية ولست في فرنسا !! .

وصول الاخبار من خارج السجن :

قضينا نهارنا تساورنا الافكار ونحن مقطوعون عن العالـــم الخارجي انقطاعا تاما ، وفي الليل بالوقت المعيــن انقطع النـــور الكهربائي فجأة، فألقيت الينا البطاقة المعلومة ففضناها ، فــاذا صديقنا شريف أبو علي : لا تصدقوا ما يشاع من نفيكم بل تقرر ان تسلمكم للسلطة المحلية ، لذلك ستكونون غدا في ادارة السجــن الوطني .

سرى عنا هذا الخبر بعض الهموم ، ولكنه لم يشف غليلتنا ، وكنا نود ان نطلع على جريدة من الجرائد المحلية لنرى فيها خبر محاكمتنا والحكم علينــا ، ولكن ذلــك لم يتيسر لنــا ، فذهبنــا الــى فراشنــا اكثــر تعبـا واقــل اطمئنــانــا مــن ليلتنــا الماضية ، فلم يغمض لنا جفن حتى منتصف الليل ، فنمنا اضطرارا من كثرة الجهد .

وبينا نحن في احلامنا المزعجة ، وكان الوقت قبل الفجر بنحو نصف ساعة ، أو الثالثة بعد منتصف الليل ، اذ سمعنا صليـــل الحديد ، فما كدت افتح عيني الا والعريف داخل ، فجلست وجلس من بعدي اخواني ونحن نتسائل في انفسنا عن هذه الزيارة المستغربة في مثل ذلك الوقت المشؤوم . فصاح العريف في وجهنا قائلا بصوت جهوري ونبرة حادة : استعدوا فانكم ستذهبون من هنا بعد نصف ساعة ، ثم قال : اطــووا فرشكم واكتبــوا اسماء اهلكم لانكـــم لاتستطيعون ان تأخذوا شيئا معكم !!! .

رسالة الى زوجتي ووداع الاهل :

تهمتنا كانت شديدة تتعلق بثورة غايتها قلب الحكومة ، الحكم علينا كان جائرا ومبهما تكتنفه الاسرار ، ولم يسبق له مثيـــل ، وخصمنا استعماري عنيد لا يراعي الا ولا ذمة ، والوقت هو الوقت

المناسب التام للجر الى المشانق ، والامر الذي صدر من فم العريف واضح لا يحتاج الى التفسير ، فلا غرو ان تظهر علينا علائم الاضطراب ، لان المناجاة بالموت مزعجة على كل حال ، ولا عجب ان يسأل كل منا رفيقه االى الموت ذاهبون ؟ فكان الجواب : نعم من الممكن أو من المرجح أو بلا شك . فهجنا ومجنا هنيهة ، وصرنا نروح ونغدو في الحجرة على غير قصد ، واخيرا طوينا الفرش وأخذ كل منا يكتب ما سمح به الخاطر المضطرب . أما انا فانني قلت لزوجتي : الان دعيت الى الذهاب الى مقر اجهله ، قبلي عني وجنات الاولاد . وربما كتب غيري انه ذهب الى الموت فهو يودع اهله وداعا لا لقاء بعده ، وكتب غيره انه ذاهب للقاء وجه ربه غير خائف ولا وجل .

لم تمنعني هذه الاضطرابات البادية على كل واحد منا من استعمال التؤدة والتأني لفهم حقيقة الواقع ، اذ انني تقدمت الى العريف فسألته : هل تمنعون عنا نقل كل شيء حتى قميص النوم؟ فقال : لا اظن انهنالكما يمنعمناخذصرة صغيرةفيها القميص الذي اشرت اليه ، فأطمأننت بعض الاطمئنان ، والتفت الى اصحابي فأخبرتهم بما حدث ، ولكن الاضطراب بقي باديا على وجوههم . ثم حدث امر اخر هدأ روعنا كثيرا، وهو ان العريف دخل علينا حاملا بضعة ارغفة مع علب من اللحم ، فقدمها لنا وقال : لا تستطيعون ان تطالبوني بجرايتكم فها قد اعطيتكم اياها . والواقع ان عملة هذا خفف ما علق بنفسي من تلك الافكار المزعجة .

مغادرة سجن القلعة من جديد :

دخل الدركيون فوضعوا الاغلال في ايدينا ، وحملوا تلك الصرر التي جهزناها مع الجراية ، وخرجوا بنا الى صحن القلعة ، فأطل علينا السجناء من النوافذ والابواب ، فكنت لا تسمع الا ترديد اسفهم على شبابنا وحسرتهم على اعدامنا ، فمن قائل لا حول ولا قوة

الا بالله العلي العظيم ، ومن قائل انا لله وانا اليه راجعون ، وسمعت آخر يقول : وا أسفاه على شبابكم يارجال الوطن !!. ،

حق للسجناء أن ينفضوا ايديهم منا ، لان الوقت الذي خرجنا فيه هو وقت المشانق عادة ، والذين بقيت الاوهام تساورهم منا زادتهم هذه الجمل فزعا . وأتت ضغثا على ابالة . ولكن رؤية السيارات عند باب القلعة كانت آخر العلامات التي دلت بطبيعة الحال على نفينا ، والخلاص من اتصالنا بعاصمة سورية وتهيمن أبناءها . . .

سوقنا الى ساحة الاعدام ؟

أم الى أين ؟ :

كان الليل هادئا ، والطبيعة نائمة ، والسماء قاتمة تشع من خلالها النجوم ، كانها المصابيح بأيدي القدرة لتري الجلادين طريقهم في هذا الليل الحالك . وكان صوت المؤذن من الجامع الاموي يرن في الفضاء ، فيتراجع صداه من الجبال كأنه صوت نعينا الى المستغرقين في نومهم التائهين بأحلامهم ، ومن المحقق أن غير واحد كان يسائل نفسه اتراني يقدر لي ان أرى هذه السماء في الليلة القادمة؟ أم اكون في لحدي يجللني التراب ويعلو في الآجر وترطب قيدي الدموع السخية ؟. كان بانتظارنا على باب القلعة سيارتان كبيرتان من صنع (فيات) ، وقبل أن نركبها التفت أحد الاخوان فوجد دركيا سوريا بجانبه ، فسأله : هل نصبت المشانق لنا في ساحة الشهداء ؟ فلم يبد جوابا . ومن ثم صعدت آنا والسيد حسن والسيد منير الى السيارة الاولى ، وركب سائر الاخوان بالسيارة الثانية ، وركب معنا تسعة من الدركيين بمسدساتهم ، ونحو خمسة عشر جنديا نظاميا بأسلحتهم الكاملة . اقلتنا السيارتان ونحن ننظر بتلهف الى أي جهة تتجهان بنا ، فلما مالتا بنا الى اليسار الى جهة الشارع تحققنا اننا خارجون من بلدتنا ، فقلت لاخواني

تمتعوا بمنظر هذه السماء الصافية ، وهـذه الارض الزاهيـة ، وبأشجارها الباسقة ، وحدائقها الفناء ، وأنهارها المتدفقة ، لانـه لا يعلم الا الله متى يقدر لنا أن نراها مرة ثانية ، وأي رجل يودع منظرا من المناظر لآخر مرة يشعر بحزن، فما بالك بمن يفارق محتده ومنشأه ؟ ويترك وراءه أصدقاءه واخوانه وابناءه ؟ الا يرى في كل شيء يقع نظره عليه شيئا من الحنو والعاطفة ؟ .

بين دمر وميسلون وصوفر :

تسلمنا طريق دمر الهامة ، ورأينا سيارة مدرعة تعدو وراءنا لتحافظ علينا من هجوم من ظن المستعمرون انهم يحاولون انقاذنا . وما زلنا نسير سيرا منتظما حتى بلغنا صحراء الديماس ، ومنهـا خان ميسلون ، حيث اطللنا من تحت الستائر المستولية علينا لرمق قبور الشهداء ، وفي مقدمتهم البطل العربي السيد يوسف العظمـة وزير الحربية في الحكومة العربية السورية الذي بذل نفسه بطوعه واختياره في اليوم الاخير للدفاع عن البلاد التي أنبتته . وقد صعب علي في تلك الدقيقة أن أقول من هو احسن حالا نحن الذين نرى اعداء الوطن يعبثون في الارض فسادا ويتمتعون برقاب الاهلين ؟ ام هو في لحده بعدما قضى واجبه وربأ بنفسه عن أن يحملها مالا طاقـة لحر أن يحمله ؟ .

وجرى في السيارة وراءنا أن الدركيين الافرنسيين صـاروا يوهمون اخواننا بالتلميح والاشارة واخراج الاوراق الرسمية من جيوبهم ، أنهم يريدون اعدامهم في الساحة المذكورة . واتفـق ان السيارة في تلك الاثناء وقفت بهم قرب ميسلون ببقعة من الطريـق ، فكانوا ينظرون الموت على ايديهم كل حين ، والواقع انهم لم يطمئنوا حتى خلصوا منهم بتاتا ، وما زالتا السيارتان تعدوان بنا علـى

طريق بيروت ونحن لا ندري الى اين حتى بلغنا شتورا ، حيث تناولنا في الحانوت فطورنا لبنا رائبا وزيتونا وبيضا ، وكانت اليد الواحدة من كل منا مغلولة الى يد رفيقه . ثم أستأنفنا السير حتى نفق صوفر ، وهناك عادتا بنا الى طريق ينحني الى جهة الجنوب ، بعدما نزل الضابط الموكل امر حراستنا اليه ، فسأل احد الفتيان سؤال المستنير المستفسر ، مما دلنا على أنه ضل الطريق .

عرجت بنا السيارتان على طريق نضر يلتوي بين الاودية الزمردية ، فمن دور منفردة على الطراز الحديث ، مبنية على القمم ، الى اكواخ متقاربة على الحوانيت ، الى عيون ثراء ومروج خضراء ، وكأني ببعض تلك المناظر قد انطبع رسمها في ذاكرتي وان فاتني انها هي « عين زحلتا » التي زرتها من نحو عشرين سنة ، والقاع الذي سبحت فيه مع اخوان الصفاء وخلان الوفاء . عجبا عجبا هل قدر المستعمرون ان ينفونا الى لبنان ، فيضعونا في بيوته المهجورة بحراسة هؤلاء الجنود ؟ وبذلك يطبقون علينا نظام الاعتقال ، أم هم ذاهبون بنا الى مقر ابعد ؟ ، وعلى كل حال زال من خاطري احتمال السفر الى ارواد او (كورسيك) .

الوصول الى بيت الدين :

وبينما كانت هذه الهواجس تدور في صدري ، اذ ذكرني الاخ السيد حسن الحكيم انه قرأ منذ شهرين أن حكومة الانتداب قررت جعل بيت الدين معتقلا عاما ، وأننا في الغد ذاهبون الى سجنها ، فاستغربت كلامه ، ولكن هكذا كان ، لانني بعد هنيهة سمعت الضابط يسأل أحد الصبيان كم بقي أمامنا للوصول الى بيت الدين ؟ فأجاب : قليلا . وبعد هنيهة رأينا ميلا منصوبا ، كتب عليه مفرق الطرق ، يدل من الجانب الواحد على الجهة المؤدية الى بيت الدين ،

وأن المسافة اليها كيلو متران ، فإتجهنا حتى اطلعنا على القرية ، وأول ما بدا لنا منها السجن ، دلت عليه الشبابيك الصغيرة العالية ، والبناء الضخم الصنعة ، ولم تمنعنا الحوادث التي مرت بنا سراعا من لمح تلك المناظر الرائقة التي تجلب الانظار . والحق يقال انني والاخوان الذين معي في السيارة كنا مستبشرين ، يغلب علينا التفاؤل من هذه السفرة ، خصوصا بعد ما زال من النفوس كل خوف من النفي الى البلاد السحيقة .



السجن في قلعة بيت الدين

دخول السجن وتسجيل الاسماء والتفتيش :

نزلنا امام ساحة السجن فأدخلنا الدركيون الى حجرة المدير ، وكان رجلا مدنيا في نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، اسمه المسيو ستيفن، تدل ملامحه على انه عربي تفرنج أو افرنجي تعرب، وترجح عندنا النظر الثاني لنحفته ورشاقته وظهور الانس على وجهه ، بخلاف الثقالة التي تبدو على العربي المتفرنج عادة ، فسجل اسماءنا وأحكامنا من الاوراق التي يحملها خفراؤنا . ومن هنالك ذهبنا الى مدخل السجن حيث لفتنا الى جهة اليسار ، فدخلنا في دهليز طويل ، وقف لنا في آخره الضابط الافرنسي السجان والخفراء ، فأخذوا في تفتيشنا تفتيشا دقيقا ، فلم يتركوا لنا شيئا له قيمة ، حيث اخذوا ساعاتنا واقلامنا فضلا عن دراهمنا ، وبلغ الامر بهم أنهم استخلعوا احذيتنا فنقبوها خشية ان نتخذها مطامر . وبعد ذلك ودعنا الضابط الافرنسي وقال لنا أن المدير مسؤول عنا وانا اذا كانت لنا حاجة علينا أن نطلبها منه وهو كفيل بقضائها .

ثم فتح لنا الباب فدخلنا حجرة واسعة ذات نافذة كبيرة تطل على حديقة نضرة والى يسار الباب جرن نصب فيه عين سلسبيل تأخذ بمجامع القلوب . أمر مدير السجن لنا بالحصر ففرشت على

الارض ، ومن ثم اعتذر لنا أنه ليس عنده غطاء ولا وطاء ، وأن القرية صغيرة لا يوجد فيها من ذلك شيء ، ولكن يستعمل جهده علـــه يستطيع أن يستعير لنا من المسجونين شيئا ننام علية ، ثم ودعنـــا وأقفل الباب وأنصرف .

أما نحن فاننا خلعنا ألبستنا الرسمية ولبسنا قمصان النوم وغسلنا وجوهنا ورؤوسنا ، ثم صعدنا عتبة النافذة وكانت عريضة فقعدنا عليها وتمتعنا بمنظر لا أذكر أنني رأيت في حياتي أجمل منه ؛ وربما زاد في رونقه الحبس الطويل الذي قضيناه ، فأول ما تطل عليه العين منه حديقة انيقة فيها من أنواع الاشجار ما يسحر الانظار ، وأجملها دوحة كبيرة رصعت بزهر احمر بلون الجلنـــار وصورة الاقداح ، فيها عيون البراعم الخضراء الزمردية كأنها التطريز على الديباج الارجواني ، وكأن شكلها كالقبة ، ولها فرع منها بجانبها كأنه شرفة تطل على الوادي المنحدر من أسفلها .

وعلى القرب بيت مبني على الطراز الحديث يكاد سطحه الاحمر يلمس السماء، ويـدل على ان بانيـه من الذين اثروا في البـلاد وعادوا بثروتهم يدفنوها على قمم الجبال ويتمتعوا بمناظر هـذا الوطن العزيز .

مالت الشمس الى الغروب فأرسلت أشعتها علينا ، فشعرنا في انفسنا بنمو وبسطة ، كأن يد السجان التي حاولت كل تلـك المدة ان تجتث اصول الحياة منيا لسد المنافذ عنا ، هدتنـا الى تقدير قيمة المواهب الطبيعية المحيطة بنا حق قدرها . فتلك الشمس المحرقة التي كنا نتجنب أشعتها بالمظلات أصبحت عروش المشـرق تتسابق الى لثم محياها ، والخضرة المبتذلة صارت عزيزة ولـو نبتت على أصول الجدران وزوايا الاعتاب ، والهواء الطلق الذي ملأ السهل والجبل هو النشوة التي تسمو بالنفس من مهابط الخمول الى معارج النشاط ، حقاً ان الصحة تاج على رؤوس الاصحـاء لا

يراه الا المرضى ، وان المنح الطبيعية منهل عذب لا يظمأ الى وروده الا الصيـــادون .

كرم السجناء السابقين :

الهتنا النافذة حينا عن الالتفات الى مضجعنا ولكن الفسق حول وجهنا فأخذنا نفكر في أمرنا ، وهل منا من يستطيع النوم على التفريشة ؟ حصر بالية من تحتها عدسة قاتمة . بيد أن السجناء لم يشعروا بأمر الا وتسابقوا الى اسداء يد المساعدة لنـــا ، وفي مقدمتهم فوزي بيضون الذي اتهمته السلطة باحراق الاعتـــدة الحربية ، فحكمت عليه بالسجن المؤبد منذ سنتين او اكثر ، هذا قدم فراشا وذاك مخدة وآخر ركوة أو طباخا ، الى أن حصلنا على حاجاتنا الضرورية ، وكان معنا بقية باقية من خبز ولحم محفوظ ، فأكلنا شيئا منها وشربنا الشاي ، ومن ثم بسطنا الفرش الثلاثـة التي أخذناها من السجناء بالعرض ، ونمنا عليها اثنين اثنين نومــا هنيئا هادئا ما نمنا مثله منذ ليال .

طعــام السجن :

وفي اليوم الثاني دخل علنا المسيو ستيفن ومعه رجل عجوز من بني البستاني أسمه الخواجة سليمان كله أنس ولطف ، فذكـر لنا أنــه المتعهد وأننا اذا احتجنــا الى شيء من الاكل والشـرب والمتاع فهو مسؤول عن اعداده، فحضرنا قائمة لطعام الغذاء والعشاء، فلم نجد من حاجاتنا الا الزيتون والبيض واللبن الرائب المقطوع (لبنة) مع الخبز الذي يتناوله السجناء عادة . أكلنا وشربنا من ذلك الماء القراح الذي يحيي القلوب ، ثم تقيلنا ، وقرب العصر قمنا الى شباكنا فقعدنا نتمتع من تلك المناظر ونتجاذب أطراف الحـديث ، ويجمل بنا أن نزيد في تفصيل حجرتنا التي عددناها كالجنة بالنسبة الى حجرة قلعــة دمشق .

حجرتنا طولها نحو تسعة أمتارٍ وعرضها نحو الخمسة، وسقفها عقد من الحجر المرصوص وجدرانها متينة من الحجر الصلب ، محكمة البناء لا تكاد تدخل فيها المسامير الدقيقة ، ومقامتها متر ونصف ، ولها باب من الحديد مربط بالسلاسل والاقفال ، وله نافذة صغيرة مشبكة بالحديد لتناول الاشياء . أما النافذة التي كنا نجلس على عتبتها فهي كبيرة ، يبلغ طولها نحو قائمة ونصف ، ومصلبة بقضبان الحديد الثخينة ، والجرن بجانب الباب وفيه مصب الماء ، ومن ورائه محل الراحة ، فيرى القارىء من ذلك أن السجين يستطيع البقاء في هذه الحجرة ما شاء السجان أن يبقى .

راحتنا في بيت الدين :

علمنا أن مؤسس السجن وبانيه الامير بشير الشهابي ، وأن الذي أصلحه وجعله على هذا الطراز الحديث ، هو رستم باشا المصلح التليد ، وليت الحكومة التركية التي بقيت في البلاد مئات السنين تلفتت الى دمشق عاصمة البلاد السورية ، فأنقذتها من تلك القلعة التي يعد سجنها عارا وشنارا على المدنية الحاضرة ولكن أبت أن تتنزل فتأخذ درسا في الحضارة من أمراء سورية العرب ووزرائها الارمن !!! انني لم ادخل صحن هذا السجن ولكن رمقته وانا داخل الى حجرتي ، فوجدته أشبه شيء بساحات المساجد الكبرى في سورية ومصر ، وأبواب حجره مطلة على الصحن مباشرة ، وهي عرضة للشمس معظم النهار، ولا أبالغ اذا قلت أن الاثر الذي تركه هو أثر مصح لا سجن ، خصوصا وان أكلنا فيه ازداد عن الشام أضعافا مضاعفة، وصحتنا تقدمت تقدما محسوسا ، ولولا التشديد علينا بالبقاء داخل الحجرة معظم المدة التي بقينا فيها في بيت الدين، ولولا ضيق قائمة الطعام واختصارها على الاصناف المتقدمة ، ما عدا قليلا من اللحم وشيئا من الخضرة والفاكهة في بعض أيام الاسبوع ، ولولا أثاثنا المؤلف من ثلاثة فرش من السجناء وفرشتين بالاجرة من أحد الجنود الدروز ، لقلنا أننا في مصايف سويسرة .

عاد الينا المدير المسيو ستيفن وقت العصر ، ومعه قائد درك السجن واسمه السيد عبدو والسجان السيد سليمان ... وبعض المحافظين ، فوجدنا من الجميع ملاطفة وأنسا حتى أن السجان لما أخبرناه عن شدة اشتياقنا الى قراءة الجرائد والاطلاع على مجريات الامور ، أشار الينا بطرفه أنه سيلبي الطلب ، ثم سألنا هل نحن بحاجة الى شيء آخر ؟ فقلنا : الى الخروج تحت القبة الزرقاء وتعريض أجسامنا الى الشمس فقال : انتظروا الى أن نأخذ التعليمات بهذا الشأن ثم اقفلوا علينا الباب وخرجوا .

لا يقل التضييق علينا في أمر الاختلاط هنا عن دمشق الشام، بل بقينا في بيت الدين الى آخر أيامنا ممنوعا عنا مقابلة أحد او الاجتماع بالناس . وقد وجد السجانون فيما بعد أن يكلفوا السيد عبدو بتناول القائمة منا واعطائنا حاجاتنا من النافذة من غير فتح الباب والولوج منه . ومما لفت أنظارنا وعجبنا منه كل العجب ولم نفسره تفسيرا معقولا الا بعد مرور أيام ، ان المسيو ستيفن جاءنا في ضحى اليوم الثاني وهو يوم السبت ووقف بالنافذة يحادثنا فقال : ان أصله من الشام من أسرة رومانية وأن أخاه هناك أسمه أريكو ، ومن ثم انتقل برشاقة الى حديث آخر ، فقال : الحكم عليكم هو الاعتقال ، وقانون الاعتقال عندنا يسمح للسجين بالسكن في القرية في البيت الذي يختاره ، على شرط أن يأتي كل يوم في الصباح ليسجل اسمه ، وذلك بعد تقديم الضمانة المالية فقولوا : هل أنتم أغنياء ؟ وكم باستطاعتكم أن تقدموا في هذا الباب ؟ فقلنا له : الوف الجنيهات ، من العشرة الى العشرين فالثلاثين . فهز رأسه وقال : طيب ، ثم ودعنا وانصرف .

خلاف بين المدير والسجان على معاملتنا :

وعلمنا في المساء من تغيير السجان أن اختلافا حدث بين المدير وبين السيد سليمان ، يتعلق بأمر التضييق علينا ، فكان هذا من

طالبي التساهل والمعاملة الحسنة ، وذلك من القائلين بالتشديد الى ان تصل التعليمات النهائية . والظاهر أن الاختلاف أدى الى المشاتمة والملاكمة ، مما حمل الحكومة على كف يد السيد سليمان وأخذه تحت المحاكمة . ومن دواعي الاستغراب أن لا يكون لنا الا يومين فقط في السجن ، وقد أحدثنا في ادارته هذا الأنقلاب السريع فقسمنا موظفيه الى فريقين، فريق يقول بالاخذ بناصرنا في الحال، وفريق يؤجل ذلك ويعلقه على الاوامر . انها الوطنية شعرت بضيق فتريد أن تتنفس ، وحين وجدت غذاءها انسابت بطبيعتها نحوه أرادت أو لم ترد . وماذا يكون شأن سجن نصف موظفيه وثلاثة أرباع جنوده وحراسه يعطفون على قضية حبسنا من أصلها ؟ وكنا في أظهر مظاهرها ، فترى الحارس منهم اذا اعتكر الليل وانقطع الطريق يتغنى بذكر الوطن ويرى انقاذه من يد الاجنبي الدخيل فرضا . ولا يسعني أن أبوح بكل ما شاهدناه في هذا الامر من ضروب المساعدة والانعطاف ، بل حسبي أن أقول إن الشعور في اللبناني الصميمي الاتجاه نحو الحرية والخلاص من الاستعمار ، رغم أنف الاجراء الذين يشوهون سمعة بلادهم فيظهرونها بمظهر الذل والاستسلام .

زيارة مفتش سجون لبنان :

زارنا في السجن عصارى السبت السيد بشارة البويري ، مفتش سجون لبنان الكبير ، فأظهر لنا كل عطف ولطف وقال لنا : ان البعثة حائرة في أمرنا ، وهي تنتظر التعليمات المتعلقة بنا من باريز ، واننا على كل حال ضيوف مؤقتون في بيت الدين ، وان الفكرة عند الافرنسيين انفسهم إن لا يطول أمر السجناء اكثر من ثمانية أو تسعة أشهر . ولم يروا شيئًا في أجوبتنا أمام المحكمة العسكرية ما نوآخذ عليه ، بل بالعكس قدروها كما قدرها كل من اطلع عليها حتى من الاجانب حق قدرها. فسألناه عن برقية كتبناها

في الصباح هل أرسلت ؟ فلم يعطنا جوابا شافيا ، بل نصحنا أن نعتدل قليلا في كتابتنا ، وهذه صورة البرقية المذكورة :

برقية احتجـاج :

دمشق

سعادة مندوب المفوض السامي

« أوقفتمونا وسفرتمونا على حين غرة ومن غـير أستعداد لمقومات الحياة، ومنعتمونا من الاختلاط واستنشاق الهواء في الخلاء، وما خصصوا لنا مـا يقوم بأودنا . الا ترون هذه المعاملة جائرة في القرن العشرين؟ »

عن المعتقلين السبعة
الشهبندر

ثم أمليت على السيد منير البرقية الآتية :

السيد زكي شيخ الارض ،

بلغوا أهالي المعتقلين اننا جميعا في شقاء ، خالين من الدراهم والملابس ومن مخصصات تكفل عيشنا .

ولدك منير

فوعدنا خيرا ثم أخذ يعتذر لنا عن قصوره معنا وانه يود لـو سمحت له الاحوال أن يخدمنا بما يستطيع ، ثم ودعنا وانصرف غير مخف اعجابه بحركتنا ووطنيتنا .

فرار عدد من السجناء :

وحدث في الليلة الثانية وهي ليلة الاثنين أمر ذو بال ، لا بـد أن يكون حمل المستعمرين على الشك في أمرنا والخوف من حركاتنا وسكناتنا ، وهو أن احد عشر سجينا من ذوي الاحكام المتراوحة بين

العشر سنين الى المؤبد ، ثقبوا العقد الحجري في السقف ، وفروا في نحو الساعة العاشرة ، وكان بينهم فوزي بيضون المار ذكره ، وأحمد الحبال ، وفائق الشرطي ، ووديع كرم من بيروت . وعمر اللوزي قيل الغزاوي وغيرهم ممن لم نعثر على أسمائهم .

فبينما كنا سارحين في أحلامنا اذ أيقظنا ستيفن في الساعة الثالثة صباحا ، وأوهمنا أنه يريد أن يسألنا هل لنا غرض في بيروت ليقضيه لنا ، لانه مسافر في ذلك الصباح اليها ، فشكرنا له اعتناءه ، بيد أننا استغربنا هذا السفر الفجائي ، فسألناه عن السبب ، فقص لنا ما جرى ، فظننا انه انما أيقظنا ليطمئن ، هل نحن في حجرتنا أم فررنا مع من فروا . والواقع اننا لما اطلعنا في اليوم الثاني على جلية الامر لم نبرء ساحته وساحة كثيرين غيره من الاشتراك في هذا العمل الغريب ، اذ كيف يعقل أن يتمكن احد عشر سجينا من نقب عقد من الحجر تتجاوز صفاقته الذراعين ، فيفرون أمام الجند الذين لا يفارقون السطح ، ومن بين يدي الخفراء الذين يطلون على السجناء من النوافذ كل ساعة ، وعلى كل حال كانت نتيجة المحاكمة فيما بعد عزله مع ثلاثة من السجانين .

اننا على مثل اليقين أنه لو قدر لنا أن يبقى مديرا في ايامنا ، وأردنا أن نحذو حذو هؤلاء لما تعذر علينا ، وما سؤاله عن ماليتنا ، والضمانة التي نستطيع أن نقدمها الا مقدمة لذلك .

أما ما جرى للسجناء المذكورين ، فان الدرك التقطهم واحدا فواحدا من القرى المجاورة ، وآخرهم كان أحمد الحبال ، فانه نزل الى بيروت وهدد القاضي الذي حكم عليه في بيته ، وفي اليوم الثاني رآه شرطي في الطريق فأمره أن يقف فلم يلتفت الى كلامه مما حمله على اطلاق النار عليه فأرداه صريعا يتضرج بدمائه .

تغير ادارة السجن اثر ذلك

سبب هذا الهرب انقلابا عظيما في السجن واضطرابا في ادارته ،

لانه حصل عقب مجيئنا ، فأرسلت البعثة حالا ثلاثين عريفا ودركيين، فسلمتهم ادارة السجن وكفت يد المسيو ستيفن وسلمت مفاتيح السجن لبيروتي متمصر أو لمصري متبيرت اسمه الحاج محمد . تظاهر بالشدة والتقطيب في الايام الاولى ، ولكنه عدل عن هذه الخطة الجافية في الايام الاخيرة ، وبقي علينا سجان مسلم من لبنان اسمه مصطفى حمدان ، تشكى اخواني من معاملته حق الشكاية ، والواقع أنه من أولئك الموظفين الذين يربطهم جيبهم برباط وثيق فيعجزون عن التقصير بالواجب القانوني فضلا عن اسداء المعونة .

بلغ عدد الوطنيين الدركيين لخفارة السجن نحو الخمسة عشر مع قائدهم ، ولكن هذا العدد ازداد ضعفين ثم ضعفا ثالثا ، وهكذا أصبح العدد وافيا لضرب نطاق من حوالينا بمنع اتصالنا بطيور السماء . هذا من الوجهة النظرية ، وأما الواقع فاننا أيضا خرقنا هذا الحاجز بدعوتنا اولا ، وبمالنا ثانيا ، كما يرى القارىء في القريب العاجل .

وفي يوم الثلاثاء عاد السيد بشارة البويري للبحث عن الحادثة المهمة ومعه السيد جورج زويني المفتش المدني في دولة لبنان الكبير ، فدخلا علينا . وأخبرانا أن الجنرال قد عاد من رحلته الى باريس في اليوم السابق وأن أول قضية عرضت عليه قضيتنا . وأعاد السيد بشارة ما قاله في اليوم السابق ، ان بقاءنا في سجن بيت الدين مؤقت على التحقيق ، ولكن لا يدري الى أين يكون مصيرنا . فقال السيد جورج ان البعثة سألت باريز في أمركم ، وهي تنتظر جوابها ، ولاندري هل يرسلوكم الى قلعة محصنة في فرنسا مثل (فردون) او (الفوج) مثلا ، او الى غيرهما . ولما ذكرت جزيرة ارواد اجاب جوابا مبهما ، ثم في النهاية قال : الان وقد عاد الجنرال فأنه سيبت في امركم مع الحكومة الجمهورية . وقد حثنا السيد بشارة على كتابة شيء الى الجنرال ، نذكر له فيه شيئا من جور هذه المعاملة ، فأحجمنا في اول الامر ، ولكننا رأينا من المصلحة بعد حين أن نكتب الكتاب الاتي

لنسجل به على فخامته وعلى المستعمرين بعبارة رقيقة ما أمكن ، هذه المعاملة القاسية التي لو صدرت بالقرون الوسطى لعــدت مستغربة ، خصوصا وقد فهمنا من السيد بشارة أن سفرنا قــد تقرر ، وانه قد يباغتنا الافرنسيون كما في المرة الماضية فيحملوننــا من غير أن يكون معنا شيء من لوازمنا الى منفى ربما يكون من وراء البحار ، وشأن هذه الامة مع خصومها بالقسوة مشهور جعلها مثال الشراسة في نظر العالم المتمدن ، والخلاصة اننا بعد المذاكرة قررنا جميعا كتابة ما يأتي :

رسالة الى المندوب السامي الفرنسي :

فخامة المندوب السامي في سورية ولبنان المعظم .

المعروض لفخامتكم اننا بلغنا مغادرة دمشق في الساعة الثالثة من صباح عشرين نيسان سنة ١٩٢٢ على حين غرة ، فلم يكن معنا من اللوازم الضرورية من حال اللباس وادوات النوم مــا يكفل لنــا شيئا من راحتنا ، وقد جيء بنا الى سجن بيت الدين في (لبنان) ، بعد ان بقينا في قلعة دمشق أسبوعين كاملين لم نر فيهما الشمس ، ولم نستنشق الهواء الطلق ، ولم يسمح لنا بمقابلة أهلنا . ونحن اليوم في سجن بيت الدين على مثل تلك الحالة ، بل اشد ، وقــد انتهزنا فرصة تشريفكم بالسلامة ، فكتبنا هذه العريضة راجين فيها من فخامتكم وأنتم أعلم الناس بحقيقة مــا نسب الينا ان نعامل بمثل ما يعامل بــه المعتقلون السياسيون أمثالنا ، وأن تسمحوا لنــا بمخابرة أهلنا بعدما تتكرمون علينا بتعليمات فخامتكم النهائية بمــا يلزمنا من الحاجات الضرورية وعلى كل فالامر لفخامتكم سيدي ،

في ٢٤ نيسان سنة ١٩٢٢ .

عن المعتقلين السبعة
الشهبندر

وأتبعنا هذا الكتاب الى الجنرال بكتاب آخر الى نفس المفتش ليكون لديه حجة لاجل مساعدتنا والسؤال من البعثة عن أمرنا وهذا نصــه :

رسالة الى مفتش السجون :

حضرة الفاضل مفتش السجون في لبنان المحترم ،

لنا الشرف ان نعلم حضرتكم انه جيء بنـا من دمشق على حين غرة من غير ان يسمح لنا بأتخاذ الاحتياطات الكافلة لراحتنا ، وقد مضى علينا ستة ايام في سجن بيت الدين ونحن بحالة سيئة جدا ، بالنظر لفقد الوسائط الصحية من هواء طلق وغذاء صالح ونوم مريح، فاذا أضفنا فقد الالبسة والمال معنا ، قدرتم مـا نتحمل من العنـاء والشدة ، لذلك أتينا بعريضتنا راجين من حضرتكم ان تزيلوا عنـا الاسباب المضـرة بصحتنا وتأذنـوا لنا بمخابرة أهلنا بالشـؤون الخصوصية المتعلقـة بنا . واذا كان في النيـة نقلنا من بيت الدين ان تعلمونا قبل ذلك بعشرة أيام على الاقل ، لنستجلب من بيوتنـا مـا نحتاج اليه من الضروريات وتفضلوا في الختام بقبول مزيـد احترامنا سيدي ،

عن المعتقلين السبعة .
الشهبنـدر

ثم لما ادرك المفتش قرب نفاذ المال في ايدينا ، قال انه مستعد ان يوصـل لنا بصورة شخصية أي رسالة تتعلق بهذا الموضوع لأي أحد من أصحابنا في بيروت . فخشينا ان يكون في الامر دسيسة يراد بها معرفة من نعتمد عليه في بيروت ، فانتخبنا من اصحابنا التجـار من لا تحوم حولهم التهم فكتبنا له مـا يأتي :

رسالة الى صديق :

حضرة الاخ الفاضل ... المحترم .

سلاما واحتراما وبعد . فقد بلغنا مغادرة دمشق على حـين

غرة ولم يكن في جيبنا نحن ورفقاؤنا من الدراهم مـا يكفينا اسبوعا واحدا . وحتى الان لم يتسنى لنـا مخابرة اهلنا لنطلب منهم مـا نحتاج اليه من الدراهم والحاجيات ، وقد رغبنا ان نكتب لحضرتكم راجين منكم ان تتداركوا لنا ولرفقائنا ١٥٠ ورقة سورية لنسد بهـا عوزنا واننا ننتظر جوابكم بما يمكنكم من السرعة وتفضلوا بالختـام فائق احترامنـا .

توفيق الحلبي

لم نأخذ جوابا على هذه الرسالة ، ولا ندري ما فعل الله بهـا وليس بالمستبعد ابدا أن تكون دسيسة من اساسها ، فنكون قـد دفعنا كيد الكائدين وان قضينا بضعة ايام اخرى في ضيق وعار . عاد المفتشان من حيث اتيا ونحن بقينا على الحال التي كنا عليها من الطعام والملبس . وربما لذ للقارىء أن يطلع على فصل من فصول هذه الحياة في سجن بيت الدين فنقول :

كيف أمضينا الايام التالية :

مللنا اللبن والزيتون والبيض والحلاوة فاشتاقت نفوسنا الى الطعام المطبوخ، فاشترينا قدرا وبعثنا الى سليمان البستاني المتعهد فاشترى فولا وأرزا ولحما ثم انبرى من بيننا احسن الطهاة فينـا ، فطبخوا لنا ارزا بالفول على الطريقة الدمشقية المعروفة . وبينما كنا نحمي السمن نشفت الطبخة على النار فسقاها من يجهل صنائـع الاواني الفخار فأنفلقت البرنية ، ولولا رحمة ربك واسراع السيد الحكيم الى صفيحة كاز فارغة التي كفتنا فيها الطعام لذهبت اتعابنا ادراج الرياح . رفعنا الصفيحة على النار واتممنا الطبخ ، ولا انكر اننا اكلنا حتى امتلأنا فكنا نزدرد الطعام كالبدو ان بأيدينا أو بملاعق الخشب . وحسبنا اثر الكاز من الارز من الفلافل والمقبلات . هذا مثال من الطبخ في سجننا على منواله سارت مدة اقامتنا ، وان كنـا تعلمنا بعد دروس عدة أن لا يصب الماء البارد على الوعاء الفخار

السخن الناشف ، ثم أخذنا نوع المآكل ، فالمفركات والتوابل والمصقعات وحساء العدس كانت ضمن قائمتنا . وأما منامتنا فقد تقدم شيء عنها ، وأزيد هنا فأقول أن الفرش في لبنان ضيقة بعرض النائم الا قليلا ، واللحف خفيفة وعريضة ليلتحفها المرء من جميع جهاته فتدفع عنه منافذ الهواء البارد الى جسمه . لذلك كانت اللحف فوق حاجتنا ، أما الفرش فمددناها بالعرض لنسند عليها نصفنا الاعلى ، واما الباقي من جسمنا فقد بقي مدلى على الارض الجرداء في الليل، وكانت الوسائد مسألة المسائل لانها صغيرة ويابسة أشبه بما يسمى بالحديديات . بيد أننا لم نعدم الحيلة ، ومن وطد النفس مثلنا على أفتراش الرمل ونحاة الاجر في سبيل الوطن المقدس لا يستنكف بوجه من الوجوه أن يستوسد الصرر ويستخد الاحذية كما فعلنا ، ولعمري انها لتذكارات مؤلمة ولكنها مفرحة في آن واحد فأي غضاضة على الرجل الشريف أن يذوق أنواع الاذى والاسى في سبيل الهدف السامي الذي وضعه نصب عينيه ؟ وهذا محمد بن عبد الله مذل جبروت الوثنية ومزعزع عروش رومة وفارس ورافع لواء التجدد على المشارق والمغارب ، ذاق في سبيل الاصلاح الذي ينشده من الاضطهاد والتعذيب وهجرة الاوطان ، ما ليس يخفى على أحد . ومن تلك المخازي التي اقدم عليها اهل الجاهلية دفاعا عن جهلهم ومنعا لنفوذ النور الى بصيرتهم ، ما أشرنا اليه من وضع الكرش الطافح على أشرف اعضائه وعلى رأسه حيث المجد والعلاء والشمم والاخلاص والثبات والصدق والمؤاساة والايثار ورؤية الحق الناصع .

التحايل للاتصال بالخارج وشراء الجرائد :

أن اعظم اسباب الوحشة في السجن انقطاع المرء عن العالم الخارجي ولا سيما من كان مثلنا تتعلق اسباب سجنه على قضايا عامة تتناول مجموع الامة ، واذا تيسر خرق ذلك الحاجز في دمشق فذلك بفضل اخواننا ومن عرفناهم ، واما في بيت الدين فلم نرسخ

قدمنا بعد لنؤسس لحم التعارف . ولكن لم يمض الا قليل حتى قيض الله لنا من الرجال من دعوناه بدرا ،فأظهر استعدادا لخدمتنا والقيام بما تصبوا اليه نفوسنا ، فكان اول طلب طلبناه ان يوافينا باخبار الخارج ، ريثما يذهب بنفسه الى دير القمر ويشتري لنا الجريدة الموافقة .

كان سبيل الكلام بيننا اننا كنا ننتظر غفلة سائر الحراس وهجعة النائمين فنتهامس من النافذة او نتبادل الرسائل ، فكل رسالة تأتينا منه كانت على قلوبنا احلى من رسالة فيها موعد اللقاء بين الاحبة . فكنا اذا سمعنا حفيفا تشتد عزائمنا وتنفتح عيوننا فنأخذ نرمق الارض ونتحفز كما يتحفز الاسد عند رؤية الفريسة، حتى اذا وقفنا على الرسالة الملقاة تأهبنا الى التقاطها ولو زحفا على البطون ، فذهبنا بها الى الزاوية المنحرفة عن الانظار حيث نقرؤها على شعاع المصباح الضئيل همسا. وتفاهمنا كان بالاشارة والغمز. وقد تمر الساعات الطوال على بعضنا كالسيد منير وهو واقف في النافذة ، في الهزيع الثاني من الليل يترصد دورة البدر من وراء الغيوم المتلبدة على دير القمر . واول جريدة تناولناها قرانا فيها شبه بيان من الكومندان كاترو، منقول على الارجح عن جريدة المقطم . وقد حصل عليه الخواجه مزراحي مكاتب تلك الجريدة ، وفيها يدعي كاترو وتدعي البعثة ، اذا شئت ، اننا لا نمثل الراي العام لان اغلاق المدينة جرى خطأ بتشويق بعض المفرضين ، وكان في الغالب خوفا من السلب والنهب ، وان سواد الناس واعيان البلاد هم من طلاب الانتداب الفرنسوي، الى اخر ما هنالك من السفسطات المضحكة التي تجعلها سخرية في اعين الناس . وذكر في نفس الجريدة وزعمت البعثة ان عملنا بسيط لا يؤبه له ، لولا ان ثبت علينا ان الاعمال التي حدثت في المدينة أثناء سجننا هي من اغرائنا وتحريضنا.

منطق بديع وتنسيق افكار ساطع . مدينة عظيمة اغلقناها ومع ذلك يدعي المستعمرون اننا لا نمثل رأيها؟ وقرأنا فيها ان اللورد

كرزن ادعى ان سواد الشعب المصري من فلاحين وموظفين هم من انصار الحماية البريطانية ، كان جواب الاحزاب التعطيل ثلاثة ايام متواليات في جميع دوائر الحكومة المصرية . وقرأنا اعلانا كان كالحجر في فم المستعمرين ، وهو تكذيب من حقي العظم حاكم دولة دمشق ، للذين اشاعوا عنه انه زاد الدرك والشرطة لحراسته عند نزوله لصلاة الجمعة خوفا من اغتيال الوطنيين له .

زلق لسان دولته فقال : ان تلك الزيادة اقتضاها الاضراب العام الشامل للبلدة منذ اسبوع .

هذا أول خبر التقطناه عن دمشق منذ غادرناها ، وهو خبر كما يرى القارىء ذو شأن عظيم ، يدل على آن المظالم (النمرودية) عجزت بكل وسائلها القاهرة ، عن اضعاف صوت الوطنية . ليت شعري ماذا يقول كاترو بعد ذلك ؟ وهل مصر على رايه أن يرجع الى العصر الروماني فيدعي ان شياطيننا وشياطين اخواننا في السجن تمثلت لاهل الوطن ملائكة فساقتهم الى اغلاق حوانيتهم والاضراب العام عن العمل ؟. نعم ان الذي تمثل لهم لهي الروح التي تمثلت لكل من ذاق طعم الشرف، وعرف معنى عزة النفس ، بل الشبح الذي انذرهم بالويل الذي حل بهم في عصر الانتداب الباهر .

وفي اليوم الثاني شكرنا لبدر معروفه وقدمنا له شيئا من الدراهم ، فكان جوابة لنا : ان المرء اما ان يعمل للشرف واما ان يعمل للمال . وهو لا يريد أبدا الا ان يعمل للوطن المقدس فزاد مقامه رفعة في نظرنا . (١)

وقف المرحوم الدكتور الشهبندر عند هذا الحد من الكتابة دون أن يتم هذا الموضوع الشيق . وبذلك ينتهي القسم الاول من مذكراته .

الناشر

القسم الثاني

مذكرات الدكتور عبد الرحمن الشهبندر

عن

الثورة السورية: عواملها، وقائعها، نتائجها

قال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر :

تمهيـد :

من الخطأ الفادح أن يتصور الانسان ان الثورة تكون عادة بنت ساعتها ووليدة قائدها ، تنفجر من فم بندقيته كما انفجر الماء مـن شق الحجر لما ضربه موسى بعصاه .

فعلى من يريدون تدوين تاريخ الثورات ان يرجعوا الى اسبابها. وهذه كثيرا ما تكون بعيدة او قريبة .

الاسباب البعيدة :

بقيت سورية جزءا من المملكة العثمانية من الوجهة الاجتماعية حتى اواخر سنة ١٩١٠ م، كمايبقى الطفل جزءا من الكائنـات الى ان يدب فيه الوعي الفردي . فلم يخطر ببالها طيلة قرون متواليـة انها وحدة منفصلة ذات قومية خاصة وكيان اجتماعي معين وذلك لان اجداد السلطان عبد الحميد الثاني ، كانوا مثله متمنطقين بسيف الاسلام القاهر ، ومكتسين بكسوة اللاقومية الانسانية الجذابة .

احتلت فرنسا سورية فلم تحفل بهذا الشعور الحي النامي ، بل عدت اعمال العصابات في جبال الكلبيـة وعلى حدود لبنـان « الكبير » والحرب في ميسلون والتظاهرات في دمشق ، بل تقرير اللجنة الامـيركية الاستفتائية برئاسة المستر تشارلس كرايـن والدكتور كنج ضربا من ضروب الدسائس الانكليزية والدعاية التي اثارها الفيصليون وما فتئت متعلقة بزوايا التقارير التي رفعها اليها الجواسيس مهملة ما يقع تحت سمعها وبصرها حتى استفحل الامر وامتلأت القلوب فلم يعد في قوس الصبر منزع .

العامل الاقتصادي :

ان كل خلاصة موجزة لمثل تاريخ هذه الثورة لا تلتفت الى العامل الاقتصادي تكون ضربا من الاقاصيص والاوهام فتراجع سورية في عهدها الجديد الى الوراء في منتوجها ومحصولها وصادرها وواردها وقيمة نقدها ودولاب صناعتها بل عدد سكانها لكثرة الهجرة وقلة المواليد ، كل ذلك كان له الشأن الاساسي في تزايد النفرة من الحكومة المسؤولة ودس صفائح الديناميت تحت اركان هيكلها ولكن لا يغرب عن البال ان العامل الاقتصادي مهما علت مكانته في الشؤون الاجتماعية ليس الا نقطة الاستناد في التطورات الذهنية الكمالية ، فالمال وما اليه من اسباب الرفاه المادي ان هي الا الاقبية الدنيا ، واما الصرح الشاهق فالكفايات النفسية التي تطلبها الاقوام الحية الشاعرة ، ان الضائقة الاقتصادية في اوسع معانيها نبهت في الشعب المشاعر الكمالية وفي مقدمتها الشغف بالحرية .

وكان حصر الوظائف الرفيعة في ابناء الترك وحرمان ابناء العرب منها على عهد الحكومة العثمانية نافذ الفعل بهذا المعنى مثل زيادة الوارد على الصادر اضعافا ستة في عصر الجمهورية الفرنسية .

ان هذا جميعا ادى الى الاستياء ، والاستياء هو الحلقة الاولى في سلسلة التطورات العقلية .

فوزي بك القاوقجي :

وقد رأيت ان اتوسع في هذا البحث قليلا وافصل ما اجملت فسألت الاخ فوزي بك القاوقجي ان يتحفني بالاسباب التي حملته على الانضمام الى الثورة ، مع انه قد عرف بولائه للفرنسويين ونال في جيشهم رتبة عالية قلما ينالها غيره من الوطنيين فقال وقوله له قيمة منطقية خاصة ، لانه صادر عن بيئة خاصة :

« بارحت دمشق عقب الاحتلال الفرنسي لاتسلم وظيفتي

الجديدة في حماه وهي قيادة الجيش الوطني ـ المليس ـ فوجدت اعمال الظلم والارهاق سائدة في تلك الارجاء .

واول مشهد رأيته ، هـو أن جميع وجهاء المدينة وعلمائها القوا في غياهب السجن مع اشنع انـواع الاهانات لتأخرهم عن تنفيذ اوامر الكابتين « ميك » « المستشار الاداري » ـ وهنا عدد القائد فوزي بك مشاهد اخرى تتعلق بتصرفات الجيش واعمال الموظفين ، وقد تناول فيها حادثة المفتاح الذي اصاب كلب الكابتين « ميك » ومسألة تحريض عائلة المرحوم مصطفى بك العظم على الانتقام من قاتليه وتقسيم البلاد الى حكومات واستخدام الاسافل في الوظائف ، وفصل ادارة العربان عن الحكومة المحلية واعمال جيش الجوقة السورية وتضخيم الضرائب على المكلفين واذكاء النعرات الطائفية الى غير ذلك من الامور التي يتعذر علينا نشرها بحذافيرها بسبب الظروف الحاضرة فنكتفي بالالماح اليها .

ثم اخذ فوزي بك في الختام يشرح مضار المصرف السوري ومقادير الذهب التي اخرجها من البلاد مما هو معروف ، فلا حاجة الى اعادته. وماذكرت هذه الخلاصة في الاسباب الا لتكون شهادة من موظف كبير خدم الجيش الافرنسي حينا من الزمن ورأى الامور عن كثب ولو اردنا ان نضيف اليها بقية اعمال الموظفين الآخرين كالقومندان « أرلابوس » من الضباط السابقين مثلا لضاق بنا المقـام .

ثورتان اخريان سابقتان :

ولا بد لمن أراد الالمام بالعوامل البعيدة التي ادت الـى هـذه الثورة ، من الاطلاع على خبر المظاهرات الخطيرة التي حدثت في سورية سنة ١٩٢٢ والتي قتل وسجن فيها وعذب ونفي بسببها مئات من الرجال ، فقد كانت هذه المظاهرات تمرينا عمليا على ثورة مدينة انعشت القلوب واعادت اليها ثقتها بنفسها بعدما استولى

عليها وهم العظمة العسكرية .

ان هذه الثورة الصغيرة كانت على التأكيد فاتحة عصر عملي جديد في تاريخ الوطنية الحديثة في سورية ، ويلحق بذلك تظاهرات سفكت فيها الدماء ايضا ، كان حدوثها في دمشق في اوائل سنة ١٩٢٥ يوم زارها اللورد بلفور مؤسس الوطن الصهيوني القومي في فلسطين على حساب الامة العربية .

وكان لتلاميذ المدارس العالية في العاصمة الاموية دور خطير في تنفيذ خططها وترتيبها ولم يكن الاحتجاج فيها والحق يقال على اللورد بلفور ووعده فحسب ، بل كان على الاستعمار جميعا في كل زمان ومكان .

ومما هو جدير بالذكر ، أن المزاج العصبي في بعض الموظفين الافرنسيين ، وجهلهم الفادح بالادارة وبالشؤون المحلية كان اداة صالحة لنفخ النار وزيادة لهيبها .

الاسباب القريبة :

هذه بالاجمال هي الاسباب البعيدة ، وأما الاسباب القريبة فقد حدث في جبل الدروز ان المسيطرين توسلوا بالحيل الاستعمارية المعلومة من القاء بذور الشقاق بين الطائفة الواحدة الى احلال حاكم عسكري افرنسي بعد وفاة سليم الاطرش محل الحاكم الوطني ، فكان اسم هذا الحاكم الجديد الذي طبقت شهرته الخافقين بفضل نوادره القرقوشية وسيرته الابيكورية « الكابتين كاربيه » .

بدأ هذا الرجل حياته في الجبل مستشارا ثم ارتقى فصار وكيل حاكم فأصيلا على عهد الجنرال « فيجان » المفوض الاستعماري الاكليريكي المشهور . وسار في اول الامر سيرة لين وعطف حتى تمكن من العض فنهش .

ومن نوادره الفذة انه كان اذا ذهب الى قرية ولم يخرج

أهلها لاستقباله بالخيل والرجل كليهما فرض عليهـــا الغرامات الباهظة وحشاها في جيبه كما فعل في قرية « عرمان » مثلا .

ومن ذلك ان هرة للملازم « موريــل » ضاعت في السويداء ففرم الاهلين بسببها عشر ليرات عثمانية . وأن مصباحا للبلديــة كسر او سرقه احد الجواسيس فحل برقاب الاهلين اذ ارغموا على تأدية عشرة جنيهات ايضا .

وأن « دي بوشل » العريف الجندي خاصم محمد عز الديــن بك الحلبي مدير العدلية فسدد اليه مسدسه فأطلقه ، ولكنـــه اخطأه ولم يجاز على جنايته هذه المشهورة ولو بكلمة التعنيف من سيده .

وأنه استاء مرة من فهد بك الاطرش خريج الاستانة فضربــه بيديه ورجليه وبالسياط على مرأى ومسمع جميع الناس .

وكان اذا سمع وشاية من الجواسيس على احد من الاعيــان او شيوخ العقل ارسله حالا الى السجن من غير محاكمة او استنطاق وشغله بتكسير الحصى لتعبيد الطرقات كما فعل بسليمان بـــك نصار مثلا وهو شيخ قرية « سالة » وعين اعيانها وبالشيخ صالح طربيه وهو علم في الفقه والصلاح في الجبل .

ولما نقم على بني الاطرش وحاول سحق نفوذهم وارغــام انوفهم صار يلقي كل من تردد اليهم ولو بالسلام المجرد البسيط في غياهب السجن . وكثيرا ما كان يترك السجين من غير طعام بل على الماء المالح فقط ثلاثة ايام متواليات . وبالغ بعضهم فقال لي بقيــت اسبوعا كاملا على هذه الحال .

ومن نوادره التي لو كتبت بالابر على آماق البصر لكانت عبــرة لمن اعتبر ، أن الجواسيس ذكروا له في جملة ما ذكروا ان الــدروز اذا تنحنحوا فانما يقصدون في تنحنحهم لعنة من يمرون به مــن

غير طائفتهم وشتم دينه . فويل لمن كان مصابا بالتهاب حبيبي في حلقه او زكام في حنجرته ، فان ذلك يعني بقاء في السجن الى ان تزول أعراض قرحته .

هذه نبـــذة مختصرة من نوادره في الظلم وحجز الحريــــة الشخصية اجمع الرواة عليها وبلغت حد التواتر .

فاذا اضفنا الى ذلك كله المرض البهيمي الذي بقي معه من سن الصغر والى الهنات السافلة التي كان يرتكبها والتي لا يسمح الادب بالاشارة اليها اكثر مما فعلنا ، ادركنا حالا علاقته القريبة بهـذه الثورة المباركة .

وكثيرا ما كنا نقول في مناطق الثورة ، ان الاعتراف بالجميل يقضي بوضع الكابتين « كاربيه » في مجموعة صور المؤسسين لنهضة سورية لانه من غير شك كان من العوامل العظيمة التي لفتت الانظار الى شر المستعمرين وأسرعت بالخطى للوصول الى الحرية .



ابتداء الثورة

ضاق « بنو معروف » ذرعا بحاكمهم ، وسدت سبل النجاة من اعماله في وجوههم ، فاخذوا يفكرون ، والحاجة تفتح من اذهانهم حتى ادركوا ان لا مناص لهم من الثورة .

ولكن ما العمل والجبل صغير وفرانسة دولة عسكرية كبيرة وهل تدخل سائر المناطق السورية معهم في هذه الشركة الخطيرة يا ترى ؟..

الوطنيون :

كان الوطنيون قد مهدوا السبيل الى الاعمال الكبيرة بالثورات المحلية التي احدثوها ، والاضطرابات العامة التي سببوها من اضراب عن العمل واغلاق الحوانيت والمخازن واحتجاجات داخلية وخارجية ومعلومات صحيحة رفعوها الى عصبة الامم مما نور الاذهان ورفع مستوى الادراك السياسي العام .

وكان الاستياء المستفيض ، والحق يقال ، هو المادة « الخام » التي استخدموها في معاملتهم ، فاستخرجوا منها خير المعمولات المتينة ذات الطراز الحديث ، بحيث تمكنوا بواسطتها من انشاء بعض الاحزاب السياسية العظمى في طول البلاد وعرضها واعداد

الآراء لقبول التبعات العملية الجديدة ، ثم صفوا حطب « الابيلة » وكوموه بصورة منتظمة ولم يعدموا من يولع فيه النار من ابناء البلاد الابرار . فلما اذنت الساعة والتقى الدروز الهائمون في بحار الافكار باخوانهم في دمشق ، شعروا انهم بلغوا ساحل الامان اذ نزلوا بينهم على الرحب والسعة .

الاجتماع الاول :

عقدوا اول اجتماع تمهيدي في بيت القاسم الهيماني صاحب جريدة الفيحاء في اوائل شهر مايو « ايار » سنة ١٩٢٥ م حضره المرحوم الامير حمد الاطرش ، ودار فيه الحديث حول اشعال نار الثورة ثم اعقبه اجتماعات اخرى متعددة في منزلي في « عرنوس » على طريق الصالحية حضرها عدد كبير من زعماء الدروز كالمرحوم نسيب بك الاطرش وعبد الغفار بك الاطرش والبي حمدي سيف العيسمي ومتعب بك الاطرش وغيرهم من كبار الرجال فأخذت فيها العهود والمواثيق بصورة سرية واقسم الحاضرون باغلظ الايمان على تحقيق الوحدة والاستقلال وقد جرى ذلك كله من غير ان يكون للاحزاب الرسمية وغيرها اقل اتصال مباشر . ولم يحن الوقت بعد لتنفيذ مزاعم الجنرال « سراي » وغيره في اتهامهم الابرياء والقائهم في غياهب السجن لان تبعة الاشتراك وتوحيد المساعي تعود على من حضر هذه الاجتماعات فقط لا على غيرهم .

وما تم لم يتم باسم الاحزاب بل باسم الافراد ومن تشبثهم فقد غادر زعماء الدروز دمشق الى الجبل وايمانهم اشد رسوخا بوجوب الثورة .

وحدث في تلك الاثناء ان الكابتين « كاربيه » سافر بالاجازة الي فرنسا فحل محله الكابتين « رينو » بالوكالة ، ولما آمن في الدروز تلك النفرة الخالصة التي فضتهم من حول « كاربيه » ، طمع ان يحول الوكالة الى اصالة ، فأخذ يدس دسا اصوليا حاذقا بحيث اجمعت

الآراء على انه من الافواه المهمة التي نفخـــت في بوق الثورة .

دور الكابتين «رينـــو» :

ارتأى « رينو » أن يقابل الزعماء الجنرال « ساراي » ويطلبوا اليه الخلاص من « كاربيه » ففعلوا وسافر منهم الى بيروت المرحوم الامير حمد الاطرش والمرحوم نسيب بك وعبد الغفار باشا الاطرش واسعد بك مرشد وغيرهم . ولكن الجنرال رفض هذه المقابلـة كما هو معلوم ، فعادوا مـــن حيث اتوا وهم اشد حنقا واكثـــر رغبة في الانتقام ، وكان هذا العمل من اشد العوامل القريبة التي أدت الى الانفجار .

بوادر الثورة في السويداء :

وفي اليوم الاول من عيد الاضحى ٢١ تموز سنة ١٩٢٥ اجتمع فتيان بني معروف في السويداء باشارة من الاعيان ، وقامـــــوا بتظاهرات نادوا بها : فليسقط « كاربيه »الظالم وليحيا « رينو » العادل ثم اخذوا يبحثون عن اعضاء المجلس النيابي ليحملوهم على عزل ذاك واحلال هذا محله ، فصادفوا فأرس بك الاطرش وهـــو احد الاعضاء وممن لعبوا اشنع الادوار هو واولاده في تأييـــــد المستعمرين على ابناء وطنهم فهجموا عليه وأوسعوه ضربا . ولكن قائد الدرك حسن بك صخر انقذه من بين ايديهم وصرفهم عنه .

إعلان الثورة

انصرفوا وهم يهزجون اهازيجهم الحماسية المعروفة ففاجأهم الملازم «مورل» صنو الكابتين «كاربيه» وزميله في الاعمال القاسية البربرية ، فنزل على ظهورهم بالسياط ، وعلى اذانهم باللعنات فما كان من حسين مرشد الباسل الا أن ضربه على انفه بالعصى ومن يوسف بك ابن عبدالغفار باشا الاطرش الا ان اطلق عليه عيارا ناريا .

انهزم « موريل » والاحجار من ايدي المهاجمين (المتظاهرين) تنهال على كتفيه حتى بلغ دار الحكومة ، فطلب معاونة الجنود بالهاتف في القلعة ــ من غير استشارة رئيسه الكابتين « رينو » ، أما هذا فقد ارتأى أن يقف عند هذا الحدويحل المعضلة حلا سليما، فدعى اليه الوجوه والاعيان وحملهم على الاعتراف بخطأهم ففعلوا ، ثم طلب منهم غرامة قدرها مائتا جنيه عثماني فأدوها لكن ذلك لم يكن كافيا في نظر المستعمرين . بل اصروا فوق ذلك جهلا منهم بطبائع البلاد على هدم دار حسين مرشد فهاج الشعب لهذا الطلب القاسي الذي لا يعمل المستعمرون شيئا مثله وقام بتظاهرة مسلحة اطلق فيها الوفا من العيارات النارية .

وفي غضون ذلك نزل الجند الذي طلبه « موريل » واستعد للقتال وراء المتاريس ولكن سلطان باشا الاطرش وعبد الغفار باشا الاطرش وحسني بك صخر كانوا قد تمكنوا من اخماد الهياج وصرف الناس الى منازلهم .

المضاعفـات :

اراد سلطان باشا الاطرش في صباح اليوم الثاني ان يتغيب عن السويداء ويذهب الى قرية سميح لحضور مأتم « حمود نصـر » فأوعز اليه الكابتين « رينو » بالبقاء لان خطته في تهييج الناس على « كاربيه » لم تنته بعد ولم تتكلل بأكاليل الظفر كما يشتهي وهـذا ما يفسر لنا الاجتماع الذي عقد في المساء في بيت الترجمان يوسف الشدياق وقد حضره كل من سلطان باشا والمرحوم البربور البطل المشهور وحسني بك صخر قائـد الدرك ، وكانت الغايـة مـن هذا الاجتماع المثابرة على التظاهرات لعزل « كاربيـه » ازداد الاضطراب واكفهر وجه السماء الصافية فارسلت المفوضية في اليوم الخامس من العيد القائد « تومي مارتن » الاستعماري الظالم المشهور لتناول مقاليد الامر من « رينو » بتهمة انه هو المؤسس لهـذه الاضطرابات فأخذ في التحقيق الدقيق ومن ثم دعا اليه عبد الغفار باشا ونسيب بك والامير حمد الاطرش وقال لهـم ان الجنرال « ساراي » يرغب في مقابلتهم .

استدراج الزعماء واعتقالهم :

غادروا الجبل لتحقيق هذه المطالب فلما بلغوا دمشق قبض عليهم المسيو « شوفلر » مندوب المفوض السامي وساقهم الى المنفى في تدمر ، فجازت عليهم هذه الحيلة التي كانت من اكبر الاسباب في منع الناس من الاستسلام للخداع الاستعماري فيما بعد .

وكاد يكون من باب الاساطير ان ممثلا خطيرا لاعظم دولـة عسكرية يتذرع بحيلة الصعاليك الصغار فيحول دعـوة رسميـة للالقاء في السجن والنفي الى الاماكن الخالية .

وبعد ايام سيق الى « حسجه » كل من برجيس بك الحمود وعلي بك الاطرش وحسني بك صخر وعلي بك عبيد ، واخذوا معهم

في طريقهم الى دمشق يوسف بك الاطرش .

وكان سلطان باشا الاطرش في تلك الفضون قد رحل الى قرية « رساس » فجاء الامير حسن الاطرش وقص عليه ما جرى من حديث النفي الى تدمر فاشمأزت نفسه كثيرا ورأى الفرصة سانحة لاشعال النار فأخذ يتجول في القرى والدساكر ويحض الناس على استعمال السلاح .

الدروز ينتخون ويتقلدون السلاح :

ابتدأ (سلطان باشا الاطرش) من ام الزمان فأمتان فملح ثم عرمان فصرفد . وليس في تاريخ الثورة جميعا صفحة تلذ قراءتها اكثر من خبر السياسة التي سلكها في التنقل من قرية الى قرية .

فلما ذهب من امتان الى ملح مثلا ، سار معه نحو اربعين فارسا لكنه ارسل رسلا قبله فأوهموا أهل ملح ان جميع الرجال القادرين على حمل السلاح في المقرن الجنوبي هبوا على قدم وساق لانقاذ شرف الطائفة الدرزية .

وكان اذا دخل قرية رصف الناس حوله ورتبهم ترتيبا يلفت الانظار ثم يأخذون جميعا في اطلاق العيارات النارية في الفضاء مع اهازيجهم الحماسية التي قلما يجاريهم احد في استخدامها وحسن استعمالها .

لا جرم ان القرى كانت تلاقيهم بتلك العادة الجميلة عادة (الانتخاء) المشهورة ومن ثم تنضم اليهم وتسير معهم .

ويجدر بنا ان لا نغفل هنا اسم الشيخ يوسف العيسمي من قرية امتان فقد مثل في هذا الترتيب دورا خطيرا .

بداية الزحف :

لما بلغ المجاهدون قرية عرمان استقبلهم اهاليها خير استقبال

وعلى رأسهم ابو حسن فضل الله بك الاطرش البطل الحر المشهور وفيها تقرر الزحف على صرفد لحرق البعثة الفرنسية فيها .

وقد انفذ هذا القرار بمساعدة اهل صرفد انفسهم وبهمة رجلها جاد الله بك الاطرش .

هنا بلغ سلطان باشا تجمع العسكر في القريَّة فقرر مع الزعماء الزحف عليهم والايقاع بهم فطاروا الى الحرب كالصواعق المحرقة . اراد الجنود الذين قدموا القريَّة لارهاب سلطان باشا واخوانه الدخول اليها، فحذرهم علي بك شقيقه من مغبة الامر ، فرحلوا عنها الى الكفر حيث نزلوافي ٢٢ تموز سنة ١٩٢٥ على ماء واخذوا فيغسل ثيابهم واصلاح شؤونهم ، لكن شيخ الكفر اسعد بك مرشد ، عرف ما كان جاريا وراء الستار فأنذر الكابتين « نورمان » قائد الحملة ثلاث مرات متواليات بوجوب الحذر ومغادرة هذا المنزل فلم يحفل بكلامه سوى أن ترفع بجنوده الى موقع وعر مستدير يشرف على الطرقات واستعمل من انواع التهديد والوعيد للرجال الذين انذروه مادل على غروره حيث قال : انه بمجرد الرشاش الذي يستعمله قادر على قتل ثلاثة الاف درزي .

المعركة الاولى :

الموقع الذي حدثت فيه الملحمة من أوعر واحصن ما رأت عيني ، فقطع الصخر مصطفة فيه بشكل مستدير اصطفافا يكاد يكون مصطنعا ، وكل واحدة منها متراس قائم بنفسه ويؤلف مجموعها شكل بحيرة جافة لا مثيل لاحد بمفاجأتها او مهاجمتها اللهم الا من اوتي ايمان الانبياء وعزم الجبابرة .

انقسم الدروز الاشاوس بقيادة سلطان باشا الى قسمين وقفوا من جبهتين متقابلتين وكان منظرهم وهم يقتحمون نيران البنادق من ارهب المناظر .

ومن اراد ان يقدر حرارة الحماسة التي كانت تغلي في صدورهم فحسبه ان يتذكر انهم قطعوا تلك المسافة الشاسعة من صرفد الى الكفر عدوا ولم يقفوا الا حيث اوردوا خيـولهم ماء في منتصف الطريق وأوردوا سيوفهم في منتهاها .

لم يمض عشرون دقيقة على الملحمة بالسلاح الابيض حتى قضوا على الحملة قضاء مبرما ، فلم يفلت منها الا بضعة افراد استطاعوا نقل خبر الكارثة الى « تومي مارتان » في السويداء .

ولم يزد عدد المجاهدين على المئتين وتجاوز عدد الجنود على المئتين والستين وكانت خسائرنا اربعين شهيدا منهم مصطفى بك الاطرش شقيق سلطان باشا واسماعيل بك الاطرش نجل جادالله بـــك .

ان الداخل اليوم الى هذه البحيرة (اوائل ايلول سنة ١٩٢٥) وقد جفت دماؤها يرى فيها ارجل الجنود مستترة وراء الصخور ومن هنا وهناك جماجم تبصبص وهي مكشرة عن انيابها كأنهـا منكمشة من هول الضربة التي نزلت بها .

ويؤكد الثقاة ان الجمجمة التي على الباب هي جمجمـــة الكابتين « نورمان » فكأنها تحرسها من سباع البر وطيور الفلا .

نتائج المعركة الاولى :

ولهذه الملحمة شأن خطير في تاريخ النهضة السورية :

١ ـ انها جعلت الثورة امرا مبرما .

٢ ـ انها دلت على أن الحق الصريح ولو نقصته العدة والعدد قادر في كثير من الاحيان على مقاومة القوي ولو ايدتـه الآلات الضخمة والجحافل العظيمة .

وهذا من اكبر البواعث على النشاط الذي ابداه المجاهدون

في معاركهم التي تمت فيما بعـد .

٣ ــ لانها القت عبء القيادة العامة في الجبل مدة الثورة على عاتق الزعيم الذي انتصر فيها هذا الانتصار الباهر ومعنى ذلـك انها اوجدت من الفوضى التي يتعشقها السوريون نواة صالحـة للنظام وتوحيد المساعي لبلوغ غايات حربية معينة . ولولا ذلك لكان عدد الذين يتسنحون غارب القيادة الحربية بحق او بغير حق لا يحصى ، لان عادتنا ان من آنس في نفسه قمحة من الحياة يتوهمها جبلا من القوة .

ويجدر بنا ان نذكر ان المراسلات الرسمية التي اطلعنا عليها مسيو « كيريلي » في جريدة « ايكو دي باري » دلت على ان « تومي مارتان » كان واسع الاطلاع شديد التشاؤم ، عارفا بالدماء التي ستسيل في الجبـل .

وقد ذكر هذا في احد تقاريره تاريخ اتفاق عقد بيننا وبين زعماء الدروز فجعله في اليوم الثامن من تموز سنة ١٩٢٥ ولعـله يشير بذلك الى الاجتماعات التي عقدناها في دارنا لان الجلسة التي قررنا فيها اضرام نار الثورة في الشمال مع اخواننا في الجنـوب عقدناها في بيت رجل من كبار رجال الوطن في مساء اليوم العشرين من آب سنة ١٩٢٥ ، ودامت الى صباح اليوم الحادي والعشريـن وقد حضرها من كبار الرجال « يحيى حياتي بك » وحسن بـك الحكيم وسعيد بك حيدر وجميل مردم بك ونسيب بك البكري وفوزي بك البكري والمرحوم سعد الدين بك المؤيد العظم والمرحوم توفيق بك الحلبي وغيرهم وتقرر ان يكون خروجنا من الشام في يوم الاحد في ٢٢ منه .

حصار السويداء :

نزل المجاهدون في السويداء لحصار القلعة بعدما كثر عديدهم

وتضخم بانضمام البيوتات الى جانبهم ما عدا بعض افراد لوثوا شهرة آبائهم واجدادهم ببقائهم على موالاة المسيطرين .

معركة المزرعة وحملة الجنرال ميشو :

اضطرب الجنرال « ساراي » لنعيق الغربان ايما اضطراب، واخذت الاوهام تستولي عليه فلم ير امام عينيه بابا لاعادة السكينة لا بالقوة شأن كل عصبي يفقد موازنته في الكوارث المفاجئة فجهز حملة كبيرة لتأديب الثوار يتجاوز عدد افرادها خمسة الاف وعلى رأسها الجنرال ميشو . وهي مجهزة بأحسن العتاد واحدث الآلات ، وتحوم فوقها الطيارات وعزرائيل يتدلى من تحت اجنحتها . شرقت هذه الحملة من محطة (ازرع) في صباح اليوم الاول من آب سنة ١٩٢٥ ، فعلق معها الدروز في حرب ، وكان عددهم يقارب الثلاثة الاف فرأوا ان لا مثيل لهم بمصارعتها للوهم الذي استولى عليهم مما رأوا بأعينهم من نارها وسمعوا بآذانهم من افواه الجواسيس عن عددها وعتادها ، فانهزموا شر هزيمة بحيث ان علم قرية (امتان) وهي في الطرف الجنوبي من الجبل بات مع من يحمله في ارجائها . واما الحملة فقد نزلت على ماء يدعى ماء المزرعة بالقرب من السجن والمجدل .

المجاهدون يستعيدون المبادرة :

حدث في المساء ان ثلة من المجاهدين من اهل المقرن الغربي من نجران وعاهرة وغير ذلك من القرى ومعهم عدد كبير من اهالي المقرن الشرقي بينهم من الابطال امثال : جادالله بك سلام ، ومحمد بك شرف ، والجميع لا يبلغ عددهم المائتين التقوا بمؤخرة الجيش حيث الذخائر والطنابر على ظهور البغال تحرسها « الفرقة السورية » وكان ذلك في المقرن الغربي ما بين قريتي « الدور وبصرى الحرير » فانقضوا عليها انقضاض الصاعقة حتى اذا خيم المساء كان العتاد جميعا من الطنابر والبغال والخيل في قبضة

المجاهدين من القرى .

ولم ينج من الحملة الا من لاذ بالفرار ليعلم القائد ان سيل بني معروف لم يبق ولم يذر .

اثر هذا الهجوم واحتدام المعركة :

فتح اهل القرى عيونهم في الصباح فرأوا الاحواش والاصطبلات مملوءة بالاحمال المعلمة والدواب المسومة . والاهازيج تشق عنان السماء بذكر النصر الباهر والكسب الثمين ، فهبوا الى خيولهم واسرعوا الى اكمال العمل الذي لم يتم في المساء . وقد تقدم الجميع مائة وسبع عشر فارسا من اشاوس السويداء المشهورين ووراءهم على البعد من اهل المجدل ونجران وسليم وغيرها من القرى القريبة زهاء اربعماية مجاهد فلما لاحت عين المزرعة من القرى القريبة لهم كان في السماء طيارة تحلق فوق الجيش فنزلت لتخبر القائد بوجود التقهقر للانكسار المريع الذي حدث في اليوم الماضي، ويقال ان الجنرال « ميشو » كان في هذه الطيارة .

وصف المعركة المهولة :

وبينما كان الجند يستعد لتنفيذ الامر في التقهقر رأى على بعد ابناء معروف ، فأسرع لتكويم المتاريس والاضطجاع في الخنادق الطبيعية ثم اخذ البرق يومض من افواه المدافع والبنادق والرعد يقصف فيصم الآذان . ولكن اشاوس بني معروف تقدموا . خرق الرصاص الصدور وحصدت قذائف المدافع الارض ، ونثرت قطع الصخر في السماء لكن اشاوس السويداء تقدموا .

وأخذت المصفحات تكر وتفر كأنها ابطال الجاهلية وهي تصب من افواهها الحمم ، لكن اشاوس السويداء تقدموا .

ثم جاءت الطيارات تحلق فوق هام الرجال وتلقي من تحت

اجنحتها اطنان المفرقعات فتحفر هذه في القلائع حفرا ما أشبهها بالآبار الناضبة يغوص فيها الفارس الى فوق الراس . لكـــن اشاوس السويداء تقدموا . وتقدموا لانهم مؤمنون . والمؤمن اذا اهتزت نفسه بتيار العقيدة اقتحم المهالك وشق طريقه ولو في ظلم الفضاء .

دب الفزع الاكبر في قلوب الجنود ، فأخذوا يتلفتـــون كالصرعى ويتنقلون كالمخالطين في عقولهم على غير هدى ويطلقون نيرانهم بصورة طائشة ومن غير تسديد لان حذر الموت اعتراهم وحال دون ارتكاز انتباههم على قمحات البنادق فانقض عليهم ابنـــاء السويداء ومن ورائهم سائر الدروز الذين تبعوهم ، فجرت ملحمة بالسلاح الابيض لم يجر مثلها في البلاد منذ ذكر الواقدي خبـر الفتوحات العربية .

ابطال المعركة وشهداؤها :

وممن برز في هذه الملحمة وفاق الاقران المرحوم سليمـــان العقباني من قرية السجن ، فقد كان ينفرد عن الدروز ويهز صارمه وينادي : اشهدوا ، اشهدوا ، اقرأوا ، اقرأوا .

ثم يكر على المستعمرين فيضرب الواحد منهم ضربة كثيرا ما بترت عنقه او شقته نصفين .

وقد قتل في هذه الطريقة نحو ثمانية عشر جنديا ، الـى ان اصابته رصاصة ، فخر صريعا يتخبط بدمه .

وممن قتل في هذه الملحمة من الزعماء الكبار المرحوم «حمد بك البربور» من قرية (أم الرمان) وهي قرية في المقرن القبلي لها الشأن الاكبر في الاعمال الوطنية الخالصة . ولشيخها سليمان بك الاطرش وزعمائها قاسم النبواتي والشيخ امين زين الدين وغيرهم من رجال السمعة الطيبة في الكرم والشجاعة .

فقد كان المرحوم حمد بك ، على صغر سنة آية في الذكاء والعقل والشجاعة النادرة وكان اليد اليمنى لسلطان باشا في السلم والحرب واجمع الرواة على ان فقده كان مصيبة في هذه الحرب ولو بقي حيا الى يومنا هذا ، لكان له شأن في هذه الثورة ما بعده شأن .

وحدث في تلك الساعة ، ان جاسوسا اتى احد الزعماء في دمشق من قبل الكابتين « بسكال » فأخذ من جيبه ساعة و قال وهو يشير اليها :

« حينما يصل العقرب الى هذا الرقم ـ يعني الساعة الاولى بعد الظهر ـ يكون الجيش قد بلغ السويداء وقضى على المتمردين من الدروز » .

ولم يدر في خلده ، ان الجيش في تلك الساعة يكون قد خرج من عالم السكون الى عالم الزوال .

بعد المعركة :

باد الجيش ، ولم يسلم منه الا القليل من فلول تبلغ زهاء الف ومائتين لم يصلوا الى السكة الحديدية في قرية ازرع الا بشق الأنفس . وقد وصفهم احد المسافرين في المحطة فقال : « لا ادل على الاختلال الذي طرأ على عقول هؤلاء في هذه الملحمة من رؤيتهم وهم يلقون بانفسهم على القطار الذاهب الى دمشق ، فقد كانوا يتمسكون بالمركبات تمسك الغريق بنواتىء الصخور ، وكثيرا ما كان الشبح منهم يترائى عن بعد قادما الى المحطة ثم يختفي اما لخور عزيمته او لضلاله عن الطريق .

وكانت الضمائد على جراحهم واللفائف على رؤوسهم توهم المرء انهم اهل مستشفى فروا منه لحريق اصابه » .

ساحة المعركـة :

وقد زرت ساحة هذه الملحمة مرارا وحاولت ان احصي عــدد الجثث الملقاة فيها بالضبط ، فلم افلـح لسعتها ، وحسبي ان اقول انني مشيت من عين المزرعـة ، الى الطريق المعبـدة مغربـا نحو ساعتين بين الجثث والعتاد الملقى على الارض فلم انتـه منها ، ورأيت خمس سيارات مصفحـة محروقـة وقد امالها الدروز على جوانبها حين الهجوم باكتافهم وقتلوا سواقيها ومساعديهـم بالمسدسات من كواها المرتفعة ، وان رؤية هؤلاء السواقين متعانقين ملتحمين تدل على هول مالاقوه من المهاجمين .

ساراي يخفي نتائج المعركة عن السوريين :

عمل الجنرال ساراي جهد المستطاع لاخفاء خبر هــذه الكارثة عن المناطق السورية وفرق العيون والارصاد على دور المشتبه فيهم ، وكان نصيبي مــن ذلك ثلاثة يعملـون بالتناوب والاشتراك مما عرقل المساعي كثيرا وحال دون عقد الاجتماعات المهمـة عندي .

بيد ان كل سعي لزحزحة الكابوس الفرنسوي عن صدور البلاد لا تستطيع القوى البشرية ستره عن الراصدين لان عيونهم تشبه عين الفلاح في السنين الممحلة الناشفة . فهي ابـدا محدقة بالافق ترقب اكفهرار وجه السمـاء .

ليت الدروز تابعوا زحفهم الى دمشق :

اخطأ الدروز فلم يواصلوا الزحف على الشام بعدما افنوا حملة ميشو هذه وخلعوا قلب الجنرال ساراي من موضعه وبذلك اضاعوا فرصة ثمينة ، ولم نكن نحن في الشام على استعـداد لجني ثمار هذا الانتصار النجائي الباهر .

دراسة الوضع بيننا وبين الدروز :

وقد تناولنا بعد حين رسائل الدعوة لوضع الخطط المشتركة من سلطان باشا الاطرش وجاد الله بك الاطرش ، ومحمد عز الدين بك الحلبي ، فدرسناها درسا وافيا وقررنا بشأنها القرارات الضرورية .

وكان مندوب الجبل الذي حمل الينا رسائل هؤلاء الزعماء الضابط محمد بك كيوان الذي نزل ضيفا في بيت نسيب بك البكري .

ولكن الذي حدث في تلك الغضون ان بعض الاصدقاء ارسل الى الجبل ثلاثة مندوبين لمذاكرة الدروز ، هم السادة :
توفيق الحلبي ، واسعد البكري ، وزكي الدروبي فبلغوا الجبل في الساعة التي كان الكابتين « رينو » مندوب الجنرال ساراي يفاوضهم باسم الدولة المنتدبة لوضع اسس السلام .

فحالما دخلوا المجلس ، تكلموا باسم الاحزاب وفي مقدمتها (حزب الشعب) وقاوموا فكرة الصلح مقاومة عنيفة حتى قضوا عليها بعدما اوشكت ان تتحقق .

ان عملهم هذا قد حال دون عقد الصلح حتما ، فهو بذلك كان ثوريا من الطراز الاول ، بيد انه اضر ببعض الزعماء وباعضاء (حزب الشعب)ضررا بالغا فوضعهم تحت المراقبة الدقيقة وكاد يشل حركتهم .

والانكى من ذلك انهم اتفقوا مع سلطان باشا على ان يزحف الدروز علىجهاتالكسوة في صباح اليوم الثالث والعشرين من اغسطس (اب) بحيث نخرج الى ملاقاتهم مع عدد من المجاهدين الشوام لا يقل عن المئتين فنهجم مشتركين على عاصمة الامويين الخالدة .

لقد تم هذا الاتفاق في نحو اليوم السابع من شهـر اغسطس وبلغ الوطنيين خبره في اليوم العشرين ، فلم يعد امامهم لتنفيـذه الا يومـان اثنان : الحـادي والعشرون والثاني والعشرون اذن فتنفيذ مثل هذه الخطة الخطيرة على هذا الوجه من السرعة هو من باب المستحيلات ، ومع ذلك فقد صرفت الجهـود العظيمـة واتخذت القرارات العملية الخطيرة ، وبعد ثلاثة ايام كنت فـي طريقي الى الجبل بعدما حاولت الوصول اليه من قرية (حوش متبن) بحسب الاتفاق الذي تم بيننا في دمشق .

وقد صرفت تلك الليلة مع يحيى حياتي بك ، ونزيه بـك المؤيد عند جميل بك مردم بك ، فلم اجد شيئًا من الاستعداد مما اضطرني الى العودة في صباح اليوم التالي قبل الشروق من غير ان يشعر بي احـد .

الاستعداد لمعركة دمشـق :

اجتمعت بسلطان باشا الاطرش في قرية (كفر اللحى) في اواخر اغسطس سنة ١٩٢٥ ومعي نزيه بك المؤيد والمرحـوم سعد الدين بك المؤيد وحسن بك تحسين وقد استشهد في سبيل هذه الثورة ، وكان نسيب بك البكري ويحيى بك حياتي قد سبقانا الى قرية عرى ، وفي (كفر اللحى) هذه جاء دروز الاقليم فاظهروا تحفزهم للحرب وارتباطهم بالثورة وكانت الحماسة بالغة اقصـى اعماق القلوب وكانوا وهم ينتخون او يعرضون امامنا على الطريقة الدرزية الحورانية شعلة تندلع منها السنة اللهيب .

وكان اول اعمالنا عند بلوغنا الجبل اننا حشدنا المجاهـدين لمهاجمة دمشق لان الحملة الدرزية التي وعد سلطان باشا بسوقها الى الكسوة للاجتماع بالمجاهدين الشوام لم يبلغ عددها النصـاب الكافي . ولما وصلت الى جبل « المانع » في ٢٣ اغسطس سنة ١٩٢٦ تلاقت مع الفرنسيين فاضطرت الى الرجوع بعدما امطرتها الطيارات

وابــلا من القنابــل .

صرفنا المساعي في الاسبوع الاول من شهر سبتمبر لتنفيــذ خطة الهجوم على الشام وسلمنا القيادة في هذا العمل الى يحيى حياتي بك فكان رأيه حشد خمسماية فارس تنقســم الى خمسة اقسام ، فتدخل العاصمة الاموية من ثلاثة مداخل مختلفة . لكن لم يجتمع لدى سلطان باشا العدد الكافي ايضا للقيام بهذه الخطــة الجوهرية . وقد رأينا من الدماشقة الذين قدموا الجبل للاشتراك معنا في الخطط والتعاون غير من ذكرنا ، المرحــوم حسن الخراط الذي لعب اعظم الادوار في الفوطة والمرحوم سرحان ابو تركــي الديري الشجاع الباسل والشيخ محمد حجاز ثم حضرتي حسن بك الحكيم وسعيد بك حيدر من كبار مؤسسي حزب الشعب . وقد وصلا الى الجبل من زحلة بطريق وادي العجم وبعد حين وصــل عدد من الضباط والمتطوعين الاشاوس منهم المرحوم ابراهيم صدقي وجميل البيك وعبد القادر القواص وبشير الهندي وغيرهم .

وبينما كنا نمهد السبيل لتأليف حملة مشتركة تهاجم الشام، كان الجنرال غاملان يحشد الجند طول السكة الحديدية فيحوران، فرأت القيادة العامة ان توجه نظرها الى مهاجمة هذا الجنــد ، فتركنا قرية « أم ضبيب » في الشمال وذهبنا الى جهة الجنوب الى قرية « عرى » حيث اجتمعت القرى للتداول في هذا الامر .

معركــة المسيفرة :

اسفرت المداولات الطويلة المترددة المملة عن الاتفاق علــى مهاجمة الجند في اهم نقط تجمعه . وكان المجاهد الذي وضــع الخطة واصر عليها محمد بك عز الدين الحلبي الثائر الشجــاع الذي مثل دورا مهما في هذه الحرب الضروس .

وخلاصة رايه ان يفاجأ الجيش الفرنسوي بقرية المسيفرة

مفاجأة تامة في الصباح تقضي عليه وتكسب الدروز الذخائر العظيمة التي يحملها ، فاجتمع من بني معروف عدد يناهز الخمسماية وربما بلغ عدد الفرنسيين الالفين او اكثر .

وقد حضر هذه المعركة من ابناء الشمال نزيه بك المؤيد العظم وسرحان ابو زكي الديري .

وخلاصة ما جرى ، ان الثوار ارادوا الزحف على المسيفرة خلسة قبل طلوع الفجر السابع عشر من شهر ايلول ، فاتفقوا على ان لا يأتي أحدهم بحركة من شأنها تنبيه العدو ، الا أن عيارا ناريا اطلقه احد المشتبه فيهم « ابراهيم الاطرش » ايقظ الحرس الفرنسوي قبل وصول المجاهدين بنحو خمس دقائق ، فاخذوا في اطلاق الاسهم النارية في الفضاء لانارة الظلماء . ومن ثم ابتدأت المعركة بصورة شديدة جدا بحيث اضطر الجنود الى الانسحاب والالتجاء الى الاستحكامات التي اقاموها داخل القرية .

واخيرا احاطوا بالقرية من جميع اطرافها بواسطة الامدادات التي اخذت ترد عليهم تباعاً . فلما اشرقت الشمس بنورها كان قسم كبير من الثوار في القرية نفسها ، واما الجنود فكانوا في دائرة عميقة ، حواليها الاستحكامات ومن وراء الاستحكامات السيارات المصفحة تدور لتحميهم من المهاجمة . وكانت القذائف من الناحيتين تصل الى بئر الماء فتمنع الفرنسويين والدروز معا من الوصول اليه .

هلعت قلوب الخصوم لهذا الاقدام الباهر ، لولا تلك الخلة القبيحة التي كثيرا ما اضاعت على الامة العربية جهودها الثمينة وهي الالتهاء « بالكسب » او الغنائم وترك العدو وشأنه كما حدث في وقعة (بواتيه) في فرنسا بين عبد الرحمن الغافقي امير الاندلس وشارل مارتل قائد جيوش الفرنجة سنة ٧٣٢ م. ولو قدر للعرب يومئذ أن يحصروا جهودهم في مقارعة العدو لاستولوا على فرانسة

جميعها ، كما لو قدر لابناء معروف في « المسيفرة » ان يحولوا وجوههم عن الغنائم الى العدو المتحصن على بعد امتار منهم لنفذوا الى حوران ودمشق وسائر المناطق الداخلية .

انسحاب المجاهدين من القرية :

اتت الطيارات فوجدت جموع المجاهدين لاهبة بالخيل والبغال والسلاح واكوام الذخيرة فامطرتهم وابلا من المفرقعات شتت شملهم واكره المحيطين بالقرية منهم على الانسحاب . واما الذين دخلوها فقد تحصنوا في بيوتهم واروقتهم الى ان جن الليل ، فخرجوا تحت جنح الظلام بغنائمهم .

وقد ابلى « حمزة بك الدرويش » في هذه المعركة داخل القرية بلاء حسنا اكسبه شهرة فائقة .

وذكر لي نزيه بك المؤيد انه رأى محمد بك عز الدين الحلبي يقتحم النيران التي تتساقط عليه كالمطر من كل حدب وصوب ومع سبعة عشر فارسا فقط لانقاذ الدروز المنقطعين في القرية .

ومما يجدر ذكره ان عتاد المجاهدين نفذ منهم بعد ابتداء المعركة بمدة لا تتجاوز الساعتين ، ولكنهم استعاضوا عنه بالعتاد الذي ربحوه في المعارك حتى تمكنوا من الاستمرار على القتال سحابة يومهم .

نتائج المعركة :

وكان من نتائج هذه المعركة العظيمة ، ان فقد الفرنسيون ما يربو على تسعماية من الجنود علاوة على الدواب والعتاد مما لا يدخل تحت حصر .

واما خسائر الدروز فكانت دون المائتين حتما . واما الذي يهم في هذا الشأن ان العدو بفضل دهائه وتنظيم دعايته

استطاع ان يقنع الدروز قناعة تامة بانهم هزموا شر هزيمة .

ولولا معركة السويداء الاخيرة التي حدثت في الخامس والعشرين من نيسان سنة ١٩٢٦ لقلت ان وقعة المسيفرة هذه هي ختام الحرب التي ظهرت فيها البطولة الدرزية في الجبل في اضخم مظاهرها واعظم شدتها .

من قصص البطولة الدرزية :

وحسبي ان اذكر القصة التالية للدلالة على المفاداة الغالية والوطنية الصادقة والشجاعة الفائقة التي بدت في تلك الايام .

بيت حمزة :

في قرية (رساس) اسرة تدعى « بيت حمزة » كان على ابنائها حماية العلم ، العلم الذي يحمله الغزاة من اهل هذه القرية . فلما نفروا الى حرب المسيفرة نفر معهم رب هذا البيت وهو شيخ مسن في نحو الثمانين من العمر ومع أولاده الاربعة ، وقد اتخذ على نفسه سقاية المجاهدين من قربتين حملهما على بعيره لهذه الغاية . واما اولاده ، فالدفاع عن علم (رساس) .

حدث ان الاول منهم حمل هذا العلم وتقدم به امام اهل قريته حتى كاد يطأ استحكامات الفرنسيين، فسددوا عليه بنادقهم فقتلوه . فتقدم اخوه يعمل محله ، لكنه اصابه ما اصاب اخاه فخر بجانبه فتقدم الثالث لان نفسه ابت ان ينام علم (رساس) ويتراجع الرساسيون ولكنه اصيب بالرصاص ايضا فخر الى جانبهما .

ولما تقدم الرابع للقيام بواجبه حاول الرساسيون عبثا ان يثنوه عن عزمه رحمة بالعجوزين امه وابيه ولكنه ابى الالتفات الى ضراعتهم وما زال يمشي حتى وصل الى العلم والى اخوته القتلى بجانبه ، وما كان يرفع ليلوح به لاهل رساس حتى اصابه ما

اصاب اخوته فخر صريعا مثلهم .

اما الشيخ الذي كان يسقي المجاهدين فقد عاد في مساء اليوم التالي من المسيفرة محملا على ظهر بعيره لان شظايا قنبلة اصابته من الطيارة وهو غير عالم بحديث اولاده . فانزلته زوجته وانحنت عليه تقبله طيلة ليلها وهي تدعو الله ان يعجل برجوع اولادها ليخففوا عنه الم الجراح لكن دعاءها لم يستجب واما لها لم تتحقق ، وقد انتظرتهم حتى الصباح فلم يعودوا ، فأخذ قلبها يخفق واطرافها ترتعش لان التغيب في مثل تلك الايام نذير مبين .

شعرت الوالدة برعشة الفراق بعد أمل التلاقي فأخذت تنظر في وجه الشيخ الراحل وتقبله قبلات حارة كأنها تحمله منها ما يستطيع حمله لفلذات كبدها المضطجعين بجانب استحكامات المسيفرة . وكانت في بعض الاحيان تنحني عليه وتهمس في اذنه كلاما لم يفهمه احد من الموجودين بجانبها . واخيرا خارت قواها فتمددت بجانبه صامتة من هول الموقف وشدة الالم .

جاءني اهلها الى بيت متعب بك الاطرش شيخ القرية يستنجدون بي لاسعافها ، فذهبت معهم على الفور علّي انجدها ، فبلغت الدار بعد عشرة دقائق فوجدت ذراعها الايمن تحت راس الشيخ وكلاهما جثة هامدة لا حراك بها .

حقا لقد مات رب بيت حمزة وربته واولادهما الفتيان الاربعة . ولكن روح حمزة باقية في قلوب الاجيال العربية الاتية توحي اليها كيف يكون القيام بالواجب .

نار الجهاد في حماه بعد المسيفرة :

وقد حدث عقيب معركة المسيفرة حادث ذو شأن تاريخي من الطراز الاول في هذه الثورة .

فان السيدين منير الريس والمرحوم مظهر السباعي

الضابطين المجاهدين قدما الينا من حماه الى الجبل بطريق شرقي الاردن يحملان صورة اتفاق لاجل اشعال نار الثورة امضاه بعض الزعماء امثال بني العظم والبرازي .

ومن مواد هذا الاتفاق ان تحصل مناوشات تمهيدية في اول اكتوبر من تلك السنة في الغوطة وان يتقدم الى جهات القريتين قوة من الجبل لا تقل عن المائة فارس لينضم اليها فوزي القاوقجي ومن معه من الجنود . وان يكون يوم الثورة في حماه اليوم الثاني من اكتوبر وان لا يعقد الجبل صلحا منفردا بل يكون الصلح مشترطا باسم سورية وغير ذلك من الشروط التي لا محل لذكرها الان .

قرأت صورة هذا الاتفاق فرأيت من الضروري الاسراع في قبوله لاشغال الجنود الفرنسوية ، التي كانت يومئذ في حوران ، عن الجبل خصوصا بعدما تزلزلت معنوياته من تأثير الدعاية الفرنسوية عقب المسيفرة .

ركبت وركب معي الاخوان في طلب سلطان باشا الاطرش فالتقينا به في قرية (رساس) حيث تباحثنا مليا في هذا الاتفاق وفي طريقة تنفيذ بنوده . فقر القرار على قبوله جميعا .

ولما كانت الضرورة تقضي بتطمين الاخوان بحماه بان الجبل على العهد الذي عاهدناه ، من حيث الصلح المشترك ، فقد طلبت منه أن يوقع الرسالة باسم الدروز فوقعها .

وحينئذ سلمتها للبطل نزيه المؤيد ومع مظهر بك السباعي وكلفتهما ايصالها الى الشمال ، فسافروا حالا الى الغوطة وارسلاها مع الاخ المجاهد خالد بك الخطيب .

وقد كان لهذا الاتفاق شأن عظيم جدا في دوام الثورة لان المعامع التي حدثت في (حاضر حماه) بحسب هذا الاتفاق سحبت

(غاملان) من السويداء بعدما احتلها وحالت دون اخضاع الجبل جميعـــا .

الجنرال غاملان يعود للسويداء :

بعدما احدثت الدعاية التي بثها الفرنسويون بين الـدروز عقيب معركة المسيفرة ، الزلزلة المعنوية المطلوبة ، ظـن الجنرال غاملان انه يستطيع اقتحام السويداء . ففعل ذلك بعد اسبـوع تقريبا وقد كانت نفوس بني معروف ميتة الى درجة انهم لـم يطلقوا عليه عيارا ناريا واحدا .

هذا ما شهدته بعيني وسمعته باذني في قرية (عرى) بالقرب من السويداء ، وكان معي حضرة الاخ جميل بك مردم بك . حتى ان المجاهدين لما رأونا اصروا على وجوب انتقالنا من مكاننا الـى محـــل ابعـــد .

ودخول الفرنسويين السويداء هذه المرة لم يكن له قيمـــة حربية تذكر بطبيعة الحال ، لانه كان شبيها بالاستسلام .

الجنرال غاملان يخلي السويداء دون قتال :

ان قلة المياه في الجبل واعتقاد الفرنسويين ان تكون هــذه خطة عسكرية دبرها يحيى حياتي بك لحصارهم ، ثم عودة النشـاط الى الثوار بعد معركة طفيفة قضوا بها على نحو أربعين جنديـــا مغربيا خرجوا من القلعة لورود الماء في (ام صاد) ، كل ذلك القى الرعب في قلب الجنرال غاملان وحمله على الانسحاب والتقهقـر بجنوده وبالقائد تومي مارتان ومن كان معه من المحصورين فــي القلعة ، منذ معركة الكفر الماضية . فغادرها خلسة تاركا ما كان فيها من عتاد ثقيل وسلاح كثير وجد في التراجع بحيث ترك قدور الطعام تغلي على النار .

وهكذا نرى الانتصار على جنود غاملان يوم انسحابه مــن

السويداء لم يكن عملا ايجابيا من قبل الثوار ، بل سلبيا من خوف الفرنسويين وتزلزل معنوياتهم .

بعد خروج غاملان من السويداء :

يظهر لنا أن الجنرال غاملان بعدما انسحب من السويداء لم يقنط من التغلب على الدروز في المقرن القبلي اذ صرح في بلاغاته انه ينوي احتلال (صلخد) بعد أن يؤدب بعض القرى الاخرى .

وقد قامت قوة عظيمة من جنوده تتجاوز الالاف ومعها الدبابات والسيارات المصفحة وبطاريات المدفعية . فصادمت شرذمة صغيرة من الدروز بالقرب من (المجيمر) علمتها كيف يكون الصبر على المكاره . وقد اظهر فيها المجاهد الكبير سعيد بك العاص من ضروب الشجاعة ما بقي يتردد في الافواه .

لكننا ويا للاسف خسرنا فيها بطلا مغوارا هو المرحوم نسيب بك الاطرش . ثم انها واصلت زحفها ، فدخلت قرية (عرى) حيث استسلم المرحوم الامير حمد الاطرش . ثم زحفت على قرية (رساس) وعسكرت فيها . وبقيت هناك ثلاثة ايام كاملة ضربت اثناءها البيوت وقطعت الاشجار بصورة همجية وفي اليوم التاسع من تشرين الاول سنة ١٩٢٥ ، انسحبت عند طلوع الشمس ، فلاحقها المجاهدون وعلى رأسهم الامير حسن الاطرش ويوسف بك الاطرش وسعيد بك العاص والمرحوم فؤاد بك سليم وصياح بك الحمود وغيرهم مما اضطر الجنرال غاملان الى نشر جنوده المشاة . لكن حمد بك عامر البطل المشهور لاقاهم في جهات تل الحديد .

وقد دام الحرب حتى العصر اذ اصيب العدو بانكسار شنيع ، فاضطر حمد عامر الى الانسحاب الى المزرعة حيث قضى ليلته . واشترك في هذه المعارك ايضا زيد بك الاطرش وحمزة بك

الدرويش وفضل الله باشا هنيدة الوطني الصميم والشجـــاع الباســـل .

وكانت خسائر العدو عظيمة بينها طيارتان ، وقتلاه تمـلأ السهل امام (رساس) لكنا فقدنا رجلا لا تعادله الرجال هو المرحوم حمد بك عامر وجرح ايضا فضل الله باشا هنيدة .

انسحاب غاملان من جميع الجبل الدرزي :

ولما ظهرت بوادر الثورة في سورية رأى الجنرال غاملان شدة الخطر المحدق بالفرنسويين فاضطر الى الانسحاب من الجبـــل نهائيـــا .



الثورة في حماه

سافر نسيب بك البكري من (طربا) الى جبال انصفا لتهييج عربانها الفياث وعلى رأسهم خلف النعير .

وحدثت في الفوطة في اول اكتوبر المناوشبات التي تم الاتفاق عليها لكن الثورة في حماه تأخرت الى اليوم الرابع منه .

وغني عن البيان ان حركة حماه كانت فريدة في بابها بين جميع الحركات التي حدثت في هذه الثورة من حيث تعيين الوقت واتفاق كلمة الزعماء وتطوع موظف كبير مثل الكابتين فوزي بك القاوقجي للعمل .

تقرير القاوقجي عن ثورة حماه :

وقد كتب الكابتين فوزي بك القاوقجي عن ثورة حماه ما خلاصته :

« تقرر نهائيا ان تكون الثورة مساء الاحد الواقع في ٤ تشرين الاول سنة ١٩٢٥ وقت العشاء ، فطلبت الى القومندان كوستيليه المستشار الاداري لحماه ان اخرج لتفتيش البدو بحجة منع

اضرارهم عن القرى ، فلبى طلبي . وخرجت مع مفرزة خيالة من (الاسكادرون) الذي كان تحت قيادتي ، وطفقت اطوف بين هذه العشائر وابث فيهم روح الكفاح بصورة علنية . فاتفقت معـــي المشايخ ، وقد تخصص لكل واحد منهم راتب ووظيفة يقوم بهـــا ثاني يوم الثورة في حماه . وفي مدة خمسة ايام كانت جميـــــع الاستعدادات تامة ، فلما ازفت ساعة العمل ، أعطيت التعليمات المفصلة لجميع الزعماء ، وفي نحو الساعة الثامنة مساء دخلنـــا حماه . وهاجمنا جميع المخافر وتسلمنا اسلحتها وقبضنا علـى الدرك والشرطة ثم سرنا الى دار الحكومة حيث فيها كل قـــوة الدرك وفرقة من الجيش المختلط ، فهاجمناها ايضا ، وبعـد معركة دامت حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل استولينا عليها عنوة واحرقناها وقتلنا من فيها من الجنود ثم اخذنا نستعـد لمهاجمة المواقع العسكرية الحصينة .

وفي الصباح خرج فرسان العدو من الثكنات لملاقاتنا فرددناه بخسارة عظيمة بعد معركة دامت نصف ساعة على (جسر السرايا) ثم اننا طوقنا الثكنات فبدأت المعركة تشتد والنجاح حليفنا حتى تكبد العدو خسائر فادحة وفقد اكثر من ثلثي جنده واستسـلم بعض المحافظين خارج الثكنات مع رشاشاتهم ولم يعد في طاقـــة المحصورين الدفـاع .

ثم لما وصلت طيارات العدو اخذت تلقي قنابلها على المـدن فاسقطنا منها طيارتين . وقبيل الظهر وصلت نجدات قوية تمكنت من انقاذ المحصورين بعد معارك دامية . وقد ازداد في آخر الامر عدد الاعداء زيادة عظيمة ادت الى امتناع كثيرين من وجوه حمـاه الذين جبنوا وحافظوا على الحياد عن القيام بوعودهم وعهودهم ولما اصبح الاستيلاء على الاماكن العسكرية المملوءة جنـــودا متعذرا ، قررنا الانسحاب الى خارج المدينة لنقـــوم بالحركات الثورية مشتركين مع البدو .

وكانت خسائر العدو لا تقل عن اربعماية بين قتيل وجريح في حين كانت خسارتنا خمسة وثلاثين .

وفي الليل السابع من الشهر انسحبنا الى جهة الشمال ، وحملنا عربان الموالي على مهاجمة فرسان الفرنسويين المتحصنين في مركز قضاء المعرة وبعد معركة دامت اربع ساعات قهرنا العدو وغنمنا منه ٣٥ راسا من الخيل و٤٢ بندقية وغير ذلك .

وقد خسر العدو في هذه المعركة ثلاثة ضباط فرنسويين وسبعين جنديا وخسارتنا بدوي واحد » .

(انتهى تقرير فوزي بك القاوقجي)

اخفاق حركة حماه واسباب ذلك :

ان السبب الجوهري في فشل ثورة حماه بهذه السرعة هو احجام الزعماء الاعيان الذين تآمروا على تنفيذها ، فلما ظهرت الى حيز الوجود اختبئوا في بيوتهم ليروا ما يكون من امرها فان نجحت فهم المؤسسون لها واصحاب الشان فيها ، وان فشلت فهم عنها معرضون .

ولا تخلو هذه الحركة من عبر ، فان الاعتماد على البدو كان في غير محله ، الا اذا كان الغرض من الاستعانة بهم قدح الزناد لان التجارب في هذه الثورة دلتنا بصورة عملية على ان البدو لا يصلحون للحروب الدولية التي تتطلب صبرا ، بل هم اصلح ما يكون للهبات الموقتة . لذلك قيل في الامثال العامة (مثل العرب بالصياح) .

اثر حركة حماه على المناطق الاخرى للثورة :

على ان ذلك لا يعني ابدا ان ثورة حماه لم تات بثمرة ، بل على العكس ، كانت ثمرتها من اطيب الثمار لانها ما هبت ريحها حتى

صدمت اشرعة غاملان المنشورة في جبل الدروز فاقلعت بها عنه .

وتفصيل ذلك ان الجنرال ساراي على اثر هبوب ثورة حماه طلب نصف القوة الموجودة مع غاملان على جناح السرعة . فأبى هذا وطلب اما الانسحاب كاملا او البقاء كاملا ، لكن الجنرال ساراي اصر فاضطر هذا الى الرجوع عن الجبل بقضه وقضيضه.

ثم ان هذه الثورة، في حماه، سببت تجزئة الجيش الفرنسي وارغمته على اتخاذ خطة الدفاع بعدما كان مهاجما ومكنت الثوار فيما بعد ، في المرج والغوطة من الدخول الى دمشق بذلك الظفر الذي كاد يقضي على فرنسة في سورية .



معركة الشام الكبرى

ارهاصات المعركة :

كانت المصادمات تجري في جوار نهر العاصي وحامل لواء المجاهدين فيها فوزي بك القاوقجي ، بينما كانت المعارك تدور في جوار بردى ، والبارز بين الثوار فيها حسن الخراط ، وقد لعب هذا العصامي اعظم الادوار في حروب الفوطة ودمشق .

حسن الخراط :

فمن هذه المعارك ، وهو ما اطلق عليه الثوار اسم « وقعة الزور الاولى » خرج الى الفوطة بضعة اشخاص معروفين ، منهم ابو عبده ديب الشيخ والشيخ ابو صلاح العرجا ، والشيخ نديم . وغيرهم .

فالتحق بهم حسن الخراط بعدما عاد من الجبل ، فالفوا عصابة قوية استمدت طعامها وعتادها من القرى القريبة من دمشق . فارسلت السلطة عليها قوة من الدرك الى قرية (المليحة) بقيادة الرئيس رفيق العظمة ومع عدد من الضباط المحليين ، فاشتبكت هذه القوة في (المليحة) مع الثوار ، فكانت النتيجة ان غنمت

العصابة نحو ٢٩ حصانا واسرت الضباط جميعا ، واسفر الحال عن اندحار الدرك بعد أن تركوا قتلاهم على الحضيض .

وقد كان لهذه المعركة تأثير حسن في النفوس شجع المجاهدين على دخول الشام .

في صميم المعركة :

لم يفضح الاستعمار امر كما فضحه ضرب الشام ، اذ لما صار الضرب على الاوتار الدولية الحساسة ، على الرعايا الاجانب وقنصلياتهم ومدارسهم وكنائسهم ومصالحهم الاقتصادية ، لم يعد بالامكان اخفاء الشر . وعلى ذلك فضرب الشام حادث في الدرجة الاولى من الخطورة .

وقد ادرك الثوار هذا الامر منذ الايام الاولى للثورة وعرفوا ان الحروب اذا بقيت محصورة في الاطراف استطاعت فرانسة ان تتظاهر باهمال شان هذا الجهاد المقدس .

دخول المجاهدين الى دمشق :

لا عجب ان تتواصل الرسائل بين الزعماء في اوائل الثورة لتحقيق هذه الغاية الحربية والسياسية في آن واحد . الا ان ما فشل في اغسطس (آب) تحقق في اليوم الثامن عشر من شهر اكتوبر (تشرين الاول) بدخول المجاهدين عاصمة بني أمية .

دخلوها وكان عددهم على وجه التقريب كما يأتي :

٢٠٠ مجاهد من المرج .
١٠٠ مجاهد من الغوطة .
١٠٠ مجاهد من جبل الدروز .

وعلى راس الجميع نسيب بك البكري ، ثم انضم اليهم من الاحياء (الدمشقية) اهل الشاغور ، وباب السلام بزعامة كل من

حسن الخراط ومحمود سلام وابي عبده ديب الشيخ وحسن المقبعة .

وقد بقي المجاهدون في دمشق اربعة ايام متواليات سحقوا في غضونها جميع الجنود المعتصمين في المتاريس في الشاغور والميدان واما من بقي منهم مبعثرا في المدينة وضواحيها مع من انضم اليهم من الموظفين الفرنسيين ونسائهم فقد لجأوا جميعا الى القلعة واحتموا بابراجها .

اثر دخول المجاهدين الى دمشق على الفرنسويين :

فقد الجنرال ساراي موازنته واختلط عليه الامر فلم يعد قادرا على فهم الوضعية وتقديرها بالضبط . ثم انه استشار من استشاره من الضباط الطافحين بالخيلاء العسكرية فاقروا جميعا ضرب الشام بالمدافع من القلاع .

ضرب دمشق بالمدافع :

وفي الوقت المعين فتحت هذه الآلات الجهنمية افواهها وصبت على اثمن حي من الاحياء حممها فلم يمض اربع وعشرون ساعة الا وقنابل التدمير والتحريق قد اكلت ما يربو على ستماية دار من احسن الدور تقدر قيمة كل واحد منها الوسطية بالفي جنيه على اقل تقدير ، ناهيك بما وقع من السلب والنهب بصورة لم يعهدها مثيل في القرون الحاضرة .

فقد كانوا يكسرون ابواب الحوانيت والمخازن الطافحة بالبضائع النفيسة وينقلون ما فيها ويطرقون البيوت المتطرفة ويحملون متاعها واوانيها الثمينة حتى امتلأت بيوت (....) برياش الدماشقة .

حسن المقبعة ، بلاؤه واستشهاده :

ومما هو جدير بالذكر ان بعض المجاهدين وعلى رأسهم حسن المقبعة اخذوا يومئذ خبرا بان الجنرال سارايي قدم لدمشق لزيارة قصر بني العظم في البزورية فقرروا اختطافه ، لذلك دخلوا المدينة من جهة الشاغور ، وواصلوا سيرهم في الشوارع حتى بلغوا القصر، لكن الجنرال كان قد خرج منه على جناح السرعة ، ولم يبق فيه الا بعض الجنود الفرنسويين . فأخذوا يطلقون النار على المجاهدين فقابلهم هؤلاء ، وجرت ملحمة اشتعلت النار في آخرها في القصر .

ومما يسجل بالشرف والفخر انصراف المجاهدين الى الدفاع عن الاثار الموجودة فيه حين كان الجنود المحصورون يطلقون النار على كل من راوه . واخيرا اصابوا حسن المقبعة نفسه، فخر صريعا بجانب الباب بعدما أظهر من فنون البسالة ما لا تنساه الابناء والاحفاد .

نصارى الشام في حماية المجاهدين رغم دسائس الفرنسويين :

وقد حاولت بعض الجهات ان تظهر هذه الثورة الوطنية القومية بمظهر التعصب الديني الذميم ، وربما ارادت هذه الجهات بترك (باب توما) و (الباب الشرقي) حيث يقطن المسيحيون من غير قوة مدافعة أن تلح للثوار بمهاجمتها ، لتملأ الدنيا بأخبار تعدي المسلمين على النصارى ، لكن سهمها طاش .

وقد قال مراسل (فرانكفورت غازيت) يومئذ : « ان الاحياء المسيحية التي تخلى عنها الفرنسويون في دمشق ، سلمت من النهب بفضل الزعماء المسلمين ، ويجب على فرنسا ان تسلم الان بان سورية اليوم هي غير سورية المعروفة بتعدد منازعاتها الدينية . وان الوطنية السورية حلت محل الطائفية ، وقامت تطالب بحقها المهضوم » .

وجاء في البرقيات العمومية ، ان الشائع ان الثوار لم يقوموا بما يؤاخذون عليه ، بل ان حسن الخراط ، زار محلات المسيحيين وهدأ روعهم قائلا لهم (انكم اخواننا) .

القناصل يشهدون بحسن معاملة المسلمين للنصارى :

وقد شهد التقرير القنصلي المشترك الذي وضعه القناصل في دمشق مثل هذه الشهادة وقرع الفرنسويين على ضربهم البلد من غير انذار وتركهم احياء المسيحيين تحت رحمة الثوار وذكرت كيف قام المسلمون بحماية اخوانهم في الوطن .

الصحافة الاجنبية تستنكر ضرب دمشق بالمدافع :

وتساءلت جريدة الجورنال الفرنسوية قائلة :

« هل كان صحيحا ما اذاعته الصحف الانكليزية عن الجنرال ساراي بانه اهمل العمل بقوانين الدول وهي تبليغ القناصل في دمشق قبل اطلاق المدافع على المدينة وانذار النساء والاطفال بمغادرتها وعليه تقرر ان هذا الاهمال قد حمل القناصل هناك على الاحتجاج بواسطة اقدم واحد بينهم . »

المدافع على دمشق واثرها :

وقد استمر اطلاق المدافع من منتصف يوم الاحد الى مساء الثلاثاء ولا يعرف عدد الذين قتلوا تحت الانقاض بالضبط ، وتقدر الخسائر المادية التي خسرتها المدينة بثلاثة ملايين جنية وكان عدد القتلى قليلا، لكن سيارات الفرنسويين المملوءة بجثث الجنود كانت كثيرة .

ولما راى الثوار الرعب الذي استولى على النساء والاطفال من مواصلة القنابل على الاحياء وتحليق الطيارات في السماء وضربها البيوت من غير تعيين ، غادروا المدينة على امل النزول في البساتين

التي في جوارها .

وقد كان لهجومهم على دمشق اثر محمود في الجبل اذ شعر (بنو معروف) بأخوة حقيقية تربطهم بسكان الغوطة . وان العبء الذي كان منيخا على الجنوب سيوزع على المناطق الشمالية .

الثوار يغادرون دمشق الى الغوطة :

ان ضبط المعارك التي حدثت في الغوطة ، منذ غادر الثوار دمشق حتى احتلال المقرن الجنوبي في جبل الدروز ، هي مما لا تسعه هذه الخلاصة .

وحسبنا القول هنا ان الثورة في الشمال ، ولا سيما في منطقة دمشق لم تلق الرعب في قلب الخصم فقط، بل دفعت تيار الجيش عن الجبل فاراحته من الحروب نحو سبعة اشهر تمكن الدروز خلالها من جمع شملهم والاشتراك مع جيرانهم في الجهاد القومي.

ويحسن بنا ان نشير فيما يلي الى بعض المعارك المهمة التي جرت في الغوطة وضواحيها في تلك الفترة .

وربما بلغ عدد المعارك المهمة جميعها يومئذ الخمسين .

معركة الزور :

حدثت هذه المعركة في السابع عشر من نوفمبر سنة ١٩٢٥ ، وكان عدد المجاهدين اثنين وثمانين فارسا . وقد بلغهم ان الحرب قائمة في الزور بالقرب من قرية المليحة فتقدموا اليها ، وهنا جرت معركة حامية الوطيس جدا .

قال سعيد بك العاص ، البطل الكبير :

أتت الطيارة لكشف مواقعنا فخاف الفرسان على خيولهم فربطوها في قرية (البلاط) ، وانا بقيت ومعي فرحان شرف

وسليمان بك ويوسف بك والملازم خير الدين الطيار ، ثم لحقنا بضعة رجال من البدو ليس معهم سلاح . وقد امسكنا الطريق الموجود غرب (العبارة) وسرنا في طريق المليحة مسافة ثلاثمائة متر حيث مترسنا وصادمنا العدو حتى قرب الغروب اذ نفذ عتادنا ، فاضطررنا الى الانسحاب ، وانسحب العدو أيضا . ولكن محمد بك عز الدين لاقاه في جوار طريق جرمانا وضربه ضربا مبرحا حتى ادخله دمشق .

وكانت خسائرنا فرحان بك شرف ، البطل المغوار ، وجريح اسمه ابو علي طربوش .

اما قتلاهم وجرحاهم فقد ملؤا اربع عشرة سيارة بشهادة عبد الحميد النابلسي احد رجال جيشهم .

واسباب هذه المعركة ، ان الفرنسويين خرجوا لحصار الخراط وعصابته في الزور ، وعدد افراد هذه العصابة نحو تسعين رجل وقد ابلوا خير البلاء . واظهر حسن الخراط منتهى الشجاعة حتى جرح في كتفه . وكذلك ابرز منير الريس اقداما عجيبا .

اما البلاغات الرسمية ، فقد قالت عن هذه المعركة : « دامت الحرب في المليحة ست ساعات خسر الثوار فيها مائة وخمسين وخسرنا خمسة اشخاص فقط ! » .

حسن الخراط

لم يكونوا كثيرين ، الذين اشتهروا في هذه الثورة ، اشتهار حسن الخراط ، وهذا بحق ، لان معرفتنا بالرجل واحاطتنا بالاحوال التي اكتنفته دلتنا بأجلى بيان على انه من ارباب القيمة الشخصية . وماذكرته قط ،الا وقلت لنفسي ،كم رجل كان يظهر في سورية ويكتب له التفوق والبروز لو تعهدته الفرص السانحة ولم يقضبه منجل التسوية العمومية .

لقد اختلف العلماء من قبل ، فزعم بعضهم ان أصحاب القيم الثمينة لن تحول دون بروزهم الحوائل . وقال اخرون ، تبقى القيمة الشخصية مستترة الى أن توضع في البيئة الصالحة وتتمتع بالفرصة السانحة فتنمو .

وعندي ان سيرة حسن الخراط ومن حذا حذوه من المجاهدين العصاميين من افراد الطبقة الشعبية العامة ، امثال ابي محي الدين شعبان ، تؤيد هذا القول . اذ لولا الثورة ما برزت لهم صفات يمتازون بها وانوار يتلألؤون باشعتها واظن ان مثل هذا الخبر لا يقدر في الطبقة التي ندعوها عادة (طبقة القبضايات) .

رايت حسن الخراط لاول مرة في هذه الثورة في قرية (ام ضبيب) من قرى جبل الدروز في اوائل شهر سبتمبر (ايلول)

سنة ١٩٢٥ فاذا هو رجل ربعة في نحو الخمسين من العمر ، بوجه مستطيل وجبهة بارزة وعينين شهلاوين يشتعلان ذكاء ورأس اصلع وقد خط الشيب شاربيه ورأسه. والخفة الظاهرة كل الظهور في حركاته ولعل ذلك ناشىء عن تمرنه على ضرب العصى (الشوح) وهو يعتمر بالعمامة الاغباني ويلبس القنباز وفوقه العباءة . وكان اميا لم يفش التعليم المدرسي ، وقد صرف شطرا من حياته حارسا في الاسواق وناطورا في البساتين .

ولا شك ان الباعث الاكبر الذي بعثه على الالتحاق بالثورة هو الوطنية الصحيحة . وقد حضر معارك متعددة امتاز في جميعها. منها ، معركة الزور الاولى كما قدمنا ، والثانية ، ثم وقعة النبك الكبرى التي سيرد ذكرها ومعركة الشام ، وكان كلف بمهاجمة الشاغور وضرب مخفر (الشيخ حسن) واشتهر عنه انه لم يقعد في متراس ولا احتمى بشجرة ، بل كان يحارب الاعداء واقفا على ابعاد قد لا تتجاوز مائة متر .

وقد ذكر لي احد من رآه في وقعة الزور الثانية ، انه كان يصيح في وجه الاعداء وينادي ، لا تفتشوا عني في بيوت الشام بل امام استحكاماتكم ، انا حسن الخراط .

وقد ظهرت عليه ميزات التنظيم والقيادة بحيث كانت عصابته مترابطة تأتمر بأمره وتنتهي بنواهيه . اشتراكي المبدأ ، لو تناول تفاحة ، لعض منها عضة واحدة وفرق ما بقي منها على اخوانه . على انه كان بطاشا بالخونة لا يرحمهم ، وقد علق بعضهم على ابواب دمشق .

وحدث له ان حارب في احد الايام الفرنسويين في « معمل الزجاج » فضربهم بحيلة حربية ضربة مزقتهم فتمكن من الدخول

في المعمل واخذ جميع السلاح الذي فيه مع العتاد وفرق ذلك كله على اخوانه ، فكان له خير ذخيرة استعملوها اشهرا متواصلة ولقد جرح في كتفه في معركة الزور الثانية التي وقعت في ١٨ تشرين الاول سنة ١٩٢٥ ، وقضى نحبه غدرا على ايدي اثنين من الشراكسة المختبئين وذلك في وقعة (يلدة) في الحادي والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٢٥ .

وما شدت بذكره على هذه الصورة الا لاظهر القوى المستترة في امتنا ، ولاقدم للقراء مثالا واحدا من امثلة كثيرة رأيناها في هذه الثورة المباركة .

معركة يلدة وببيلا — ٢٩ تشرين ثاني سنة ١٩٢٥ :

من اهم المعارك التي حدثت في الغوطة بعد ضرب الشام ، معركة يلدة وببيلا ، فانها القت الرعب في قلوب الجيوش المستعمرة وشلت حركاتها وحملت قيادتها على اتخاذ خطة المخافر الثابتة استعدادا للمهاجمات الفجائية المتكررة .

اما خطة المجاهدين ، فكانت طيلة تلك المدة وما بعدها اتخاذ الدفاع امام هجمات العدو من جهة وارسال قوى اخرى لتطويقه من جهة اخرى .

وبهذه الوسيلة كانوا يمزقونه شر ممزق ويفرقون بينه وبين نقلياته وذخائره ويكرهونه على الانسحاب .

وخلاصة هذه المعركة الباهرة ان نزيه بك المؤيد العظم ذهب بخمسين فارسا لقتل الخائن المعروف سليم المفتي وهو رجل ساقط . وقد قام بتاليف عصابة من المأجورين امثاله لقتال الوطنيين .

ولما وصل نزيه بك الى جوار الميدان صادم الجيوش فاستدرجها بالانسحاب الى (ببيلا) حيث جاء متعب بك الاطرش من قرية (الست) ومعه نحو ثمانين فارسا ، فجرت ملحمة عظيمة

بالسلاح الابيض ، وكان سعيد بك العاص وعلي بك الاطرش وعبد القادر اغا سكر ومن معه من الرجال ، قد سمعوا اصوات البنادق والمدافع فهبوا لمساعدة اخوانهم المجاهدين .

قال سعيد بك : كان دليلنا ابو عبده سكر ، وقد اشتدت الملحمة حتى اصبحنا نتصارع مع العدو بالقنابل اليدوية فجاء لنجدتنا محمد بك عز الدين بمشاته ودام الحرب من الصباح حتى الساعة السابعة اذ تم انهزام الجيش بقضة وقضيضه .

اما غنائم المجاهدين فأحد عشر رشاشا وعتادا لا يحصى وقتلى العدو وجرحاه ستماية علاوة على نحو مائة جثة بقيت على اقنية المياه .

وقد بلغ الحال بالمجاهدين ، أن سعيد بك العاص تعقب الاعداء بنفسه حتى القشلة العزيزية في حي الميدان ، فقتل على بابها ضابطاً من الضباط الفرنسويين المتقدمين .

ولم تتجاوز خسائرنا من قتلى وجرحى ثمانية عشر . وبقيت المدافع الضخمة تطلق قنابلها والطيارات تلقي مقذوفاتها حتى خيم الليل .

معركة حمورة ــ ١٧ ك الاول سنة ١٩٢٥ :

حملة لواء هذه المعركة السادة نزيه المؤيد وسعيد العاص وابو عبدو سكر ومحمود ابو يحيى ومنير الريس .

وقد كانت المصادمة وجها لوجه في داخل القرية (حمورة) واظهر فيها هؤلاء الرجال الافذاذ بطولة نادرة . وكاد السيد منير الريس يقبض عليه ، لو لم يشلح ثيابه العسكرية . وقد نفد عتاد المجاهدين في آخرها ولو لم يتداركهم نزيه بك المؤيد والمرحوم محمد علي الدروبي واخوان لهم آخرون ، لفعل الاعداء اكثر مما فعلوا .

على ان هذه الوقعة ستبقى شهيرة بكثرة ما اقترف فيها من الجرائم والاعتداء على الاعراض وقتل الفلاحين العزل من كل سلاح واحراق اكوام القنب بمن فيها من النساء والاطفال وهدم البيوت على رؤوس اصحابها . وقد شهد معظم هذه الحوادث السيد منير الريس وهو مختبىء في احد الحقول التي لم تصلها النيران .

وكان عدد القتلى من هؤلاء الابرياء نساء ورجالا اثنين وعشرين عدا الاطفال ، واما خسائر الجند فبلغت اثنين وستين قتيلا .

الهدوء في الغوطة :

ومما هو جدير بالتدوين، ان هذه المعركة وقعت عرضا بالنسبة الى المجاهدين ، فانهم كانوا قادمين لاغاثة قرية جوبر من الجيوش التي احاطت بها في صباح ذلك اليوم ، وهذه القرية والحق يقال ، فعلت الاعاجيب في معارك الغوطة . ولما اشتدت وطأة الشتاء وزعت قيادة الجيش الفرنسوي المخافر على القرى الاتية : دوما اوتاية ، خرابو ، والشبعة ، سكنت العاصفة في الغوطة ولم يبق للحوادث اثر يذكر الا ما تعلق بقتل المرحوم حسن الخراط اغتيالا من قبل الشركس في قرية يلدة في ٢١ ك الاول سنة ١٩٢٥ . وقتل الكولونيل (فيرن) في وقعة الشيعة المهيبة ، وقد اخفى الفرنسيون قتله سبعة اشهر .

وكان بطل هذه المعركة الظافرة الشهيد العربي الحر شوكت بك العائدي .

اسباب الهدوء في الغوطة :

وسبب هذا السكون ، ان محمد عز الدين الحلبي البطل المعروف ومن معه من الدروز الموجودين في الغوطة من جهة . والقسم الاكبر من مجاهدي الغوطة انفسهم من جهة ثانية ،

غادروا هذه المنطقة الى جبل الدروز وانسحب سعيد بك العاص ومن معه من الرجال الى النبك وجهات الشمال ، وتبعهم على الاعقاب فوزي بك القاوقجي ورجاله من الجبل .

ولم يبق في منطقة الشام غير نزيه بك المؤيد ومعه السيد ابو عبده سكر والدرخباني والمهايني وغيرهم ، وقد كان استمرارهم على العمل في هذه المنطقة بعدما غادرها من غادرها آية في الجراة وتحمل الواجب تسطر لهم جميعا ، وعندي ان هذه الصفحة من ادق الصفحات في تاريخ الثورة المباركة ، خصوصا بعدما جاءتنا التقارير المطولة من الاخصائيين طافحة بالتشاؤم مملوءة بالتذمر ، فقد قال نزيه بك في احدى رسائله :

« صممنا على القيام باعمال فجائية شديدة ، تقلق السلطة اكثر من غيرها فابتدأنا بمهاجمة الخطوط الحديدية . وفي مدة يومين قطعنا خط درعا ، شام ، بيروت . ومكثنا نحو سبعة ايام على خط بيروت كسرنا في خلالها حملتين فرنسويتين شر كسرة ، ثم بالنظر الى قلة طعامنا وفقد العلوف لخيولنا عدنا الى الغوطة . وهنا ، نظمنا شؤوننا ودعونا الاهلين للجهاد فحملوا السلاح معنا ، فكان نصيب كل قرية من المجندين عددا معينا من سلاح وعتاد ، وحدث في تلك المدة رجوع ابي عبده ديب الشيخ من الجبل فساعدنا بهذا العمل مساعدة تذكر فتشكر . واخذت جموعنا تزداد زيادة مضطردة الى ان بلغت بضعة الاف ، وهذا مكننا من تجهيز الحملات الى القلمون لشد ازر اخواننا فيها . »

ولنترك الان حديث الغوطة موقتا مدة الشتاء ولنشكر نزيه بك واخوانه على احيائهم هذه المنطقة بعدما كاد القنوط يتسرب الى القلوب من انعاشها ، ولنلق نظرة على حوادث النبك وما اليها من القرى .

الثورة في النبك

١٤ و ١٥ اذار سنة ١٩٢٦ :

حصلت في النبك قبل هذه المعركة العظيمة معارك عديدة في شهر اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٢٥ ، والفائزون فيها هم العصابات الاربع التي تجمعت في تلك الارجاء يومئذ : عصابة جبل قلمون ، وعصابة النبك ، وعصابة عكاشة ، وعصابة حسن الخراط .

وفي احدى هذه المعارك ، ارسل العدو مائة جندي مع ست سيارات كبيرة مصفحة ، بقيادة ضباط الدرك ، فصادفهم المجاهدون في البساتين وعددهم لا يتجاوز الخمسة والعشرين واسروا منهم الضابط بهيجا ، وغنموا اربعة رشاشات كبيرة ورشاشين صغيرين وعددا من سيارات الركوب .

المعركة الكبرى :

اما معركة النبك الكبرى فحدثت بعد ذلك ببضعة اشهر ، وتفصيل خبرها ان الزعماء الكبار وعلى راسهم سعيد بك العاص وفوزي بك القاوقجي قرروا اتخاذ (النبك) مركزا للثورة في جبل قلمون بعدما خمدت فيه النار من جراء الفوضى والمعاملات

الشاذة التي عومل بها .

وغني عن البيان ان مثل هذا المركز اذا اشتد ساعده تناول حمص وحماه بالتهديد الدائم ، لذلك جهز العدو في حمص حملة كبيرة بقيادة الجنرال (مارتي) الذي اشتهر بين القواد الفرنسويين بالحروب الجبلية ، وقوام هذه الحملة اربعة الاف جندي من المشاة والفا جندي من الفرسان وثمانية مدافع ، ومثلها مصفحات واعتاد اخرى كاملة منها سبعون رشاشا .

وكتب الي فوزي بك يقول :

« اما نحن فلم نجد متسعا من الوقت لاتمام ترتيباتنا بيد اننا تمكنا من جمع ثمانماية مقاتل من انحاء القلمون وقررنا ان ندافع عن النبك اولا في جهات (قارة) شمالا ثم في (النبك) نفسها وذلك لاستكشاف قوته ولضربه في مضيق (عيون العلق) ضربة مادية تؤثر في معنوياته ولا توصله الى (النبك) الا منهوك القوى » .

وفي اليوم الحادي عشر من مارس (اذار) دخل المجاهدون المشاة (قارة) والفرسان (دير عطية) لاحاطة جنود العدو من الايسر . وفي اليوم الثاني عشر اعدوا له العدة اللازمة في مضيق (عيون العلق) وقابلوه فكان في الخط الامامي سعيد بك العاص وفوزي بك القاوقجي ومعهما نحو ١٥ مجاهدا ولكنهم لم يطلقوا نارهم من عقالها الا بعد ان استبانت لهم ملامح العدو واصبحوا منه قاب قوسين او ادنى ، فصمدوا له كالراسيات وتمكنوا من صد تياره ساعتين ونصف الساعة رغم انف المصفحات التي كانت تقذف حممها مثل البراكين الثائرة ، والمدافع التي كانت تفتت الصخر وتحصد الارض ولكن المفرقعات بأيدي المجاهدين والقلوب في صدورهم كانت اشد بأسا .

ونظرا لتاخر النجدة وقلة العدد الذي انضم الى رجال الصف الاول ولكثرة الاعداء الذين تألبوا على المجاهدين من كل

حدب وصوب فقد امر فوزي بك وسعيد بك الاخوان بالانسحاب فانسحبوا بمعجزة غريبة عملتها ستائر الضباب التي انسدلت عليهم في تلك الساعة من السماء .

ومن هناك انسحبوا الى النبك حيث التقوا بالجيش فاصلوه نارا حامية من وراء استحكامات احكموا بناءها على الفن الحديث بحيث يستطيع كل واحد منها ان يدافع بنيرانه عن الاستحكامات الاخرى .

وقد ابتدات المعركة في ضحى اليوم الرابع عشر من مارس (اذار) ولم تنته الا بعد العصر اذ تمكن العدو من احتلال المستشفى الدانماركي غربي البلد .

لكن المجاهدين اعادوا الكرة فهاجموا المستشفى واحتلوه عنوة بعدما اخترقوا صفوف الفرنسويين وهزموهم شر هزيمة .

وهكذا استعادوا جميع ما اضاعوه بثلاث هجمات متوالية وربحوا خيلا وسلاحا وعتادا وافرا وخربوا مصفحتين . وكانت الخسائر في صفوفه عظيمة ظهر تأثيرها عند المساء اذ انقلب مدافعا وقد ضعفت ناره وكثر الفراغ فيه .

الا ان مواصلة القتال افقدت المجاهدين العتاد الذي ربحوه فاضطروا الى الانسحاب . ومع ان بعضهم بقي محتلا الروابي المحيطة بالبلدة حتى ١٥ مارس (اذار) الا ان الوضعية تطلبت انسحابه ايضا .

وهكذا نرى العدو الذي كان عازما على الانسحاب نهائيا قد عاد الى احتلال البلدة من جديد بعدما رأى جلاء المجاهدين عنها .

وقد اتفق الزعماء المعنيون على ان معركة النبك هذه من اكبر معارك القلمون التي ظهر فيها تفوق الثائر بنضاله واستبساله.

خسائر المجاهديـــن :

وكانت خسـائر المجاهدين في (عيون العلق) ثمانية عشر قتيلا اشهرهم فؤاد ارسلان من حمص ، والملازم ابراهيم صدقي افندي من دمشق .

خسائر العدو :

أما خسـائر العدو فقد قال سعيد بك العاص عنها : انها في اليوم الاول بلغت ثلاثة ارباع مدفعيته وفي اليوم الثاني زهاء اربعماية قتيـــل .

ابطال المعركة :

وابطال المعركة هم سعيد بك العاص وفوزي بك القاوقجي ، ومن الزعماء احمد منلا الكردي ، وابو مصطفى الحرستاني ، وابــو شريف شرف ، والقائمقام زكي بك الحلبي ، والملازم خـير الدين اللبابيدي الطيار ، ومنير افندي الريس ، وجميل العلوانـــي واخوانهم .

بطولة أهل النبك :

ومما هو حري بالتدوين ان اهل النبك حاربوا في اليوم الثاني حربا صلبا اذ انهم كانوا لا يدافعون عن الوطن فقط ، بل عنه وعن الاعراض المهددة ايضـــا .

الثَّـورة في الإقليم

احتلال حاصبيا :

بينما كانت المعارك تدور في الغوطة وفي القلمون ، كان الاقليم شعلة نار يضرمها السادة :

صياح الحمود ، وزيد الاطرش ونزيه المؤيد ، وفضل اللـه الاطرش وحمزة الدرويش ، وعلي عامر ، واسعد كنج وشكيـب وهاب واسد الاطرش ومتعب الاطرش ، والبطل الكبير المرحـوم فؤاد سليم والامير حسن الاطرش، وغيرهم من الابطال الذين لاتتسع هذه الصفحات لذكر اسمائهم ويجوز لنا بالاجمال ان نذكر ان هذه المعارك العظمى ابتدأت في اول نوفمبر (تشرين الثاني) سنة١٩٢٥ يوم كنت عائدا من جهات الجنوب وانتهت في اواخر يناير (كانون الثاني) سنة١٩٢٦ يوم كنت ذاهبا الى جهات الشرق العربي في مهمة سياسية.

سير المعركـة :

اخذ المجاهدون من جميع الجهات يتجمعون في المقرن الشمالي في اواخر اكتوبر (تشرين اول) ثم ساروا الى جهات الغرب فانشطروا شطرين ، الشطر الاول ، احتل اقليم البلان فاتخذ قصبة المجدل مركزا له وكان بقيادة زيد بك الاطرش .

القصد من احتلال الاقليم :

اولا ــ المحافظة على الاهلين من تعديات الفرنسويين بناء على الدعوة التي حملها الى زعماء الثورة اهل المجدل انفسهم في قرية (كفراللحا) في اواخر اغسطس (آب) كما تقدم معنا .

ثانيا ــ استمالة الشركس ومفاوضة الامير محمود الفاعور للانضمام الى الثورة .

واما الشطر الثاني ، فقد سافر من المجدل الى حاصبيا فاحتلها دون اقل مقاومة حربية لان قائد الحامية الفرنسوية علم بقدوم الثوار اليها وشعر بضعف قواته امامهم ، فعرض آمرهم على الشيخ حسين قيس كبير الشيوخ في البياضة راجيا منه ان يتوسط في الامور وينجيه هو وحاميته من ايدي الثوار . فلبى حضرة الشيخ طلبه وارسله مع القوة التي كان يقودها الى (النبطية) ففازوا جميعا بأرواحهم ، ودخل الثوار بقيادة حمزة بك الدرويش ونزيه بك المؤيد العظم واسد بك الاطرش وشكيب بك وهاب وغيرهم من زعماء البلدة بين اناشيد الرجال واغاني النساء.

الثوار في حاصبيا :

بقي الثوار في حاصبيا اياما تتوارد عليهم وجوه قضائي حاصبيا وراشيا واقاموا حفلة ضخمة في قصر الحكومة حضرها جموع غفيرة فخطب فيهم نزيه بك وصبري بك البديوي الباسل خطبا سياسية وحثا الناس على الانضمام الى الثورة وبينا مقاصدها الحقيقية ، وبالفعل ، اخذت اهالي القرى تظهر خضوعها وتحكم انضمامها الى الثائرين يوما فيوما .

وحدث ان وفدا من مسلمي (جديدة مرجعيون) ومسيحييها عرض خضوعه وطلب الى القواد ان يحتلوا (الجديدة) حالا لان العدو اخلاها فسار المجاهدون وعددهم بضعة الاف اليها وصادف حمزة بك الدرويش في طريقه سيارة فركبها مع ستة اشخاص من

دروز حاصبيا . وعندما وصل الى مفرق الطريق الموصلة الى قرية كوكبة ، اعترضة وفد من أهالي هذه القرية برئاسة خوريها فدعاه الى تناول الغداء في القرية فلبى حمزة الدرويش الدعوة غير ان اهالي قرية (كوكبة) كانوا منشقين شقين ، منهم قسم موال للسلطة الفرنسوية وقد امدته بالسلاح والعتاد ، وسوست له ان يقاوم الثوار . والقسم الثاني كان مواليا للثوار وهو الذي دعاهم الى تناول الطعام .

ولما وصل حمزة الدرويش الى القرية ، قابله القسم المعادي من الاستحكامات بالرصاص ، فخر ثلاثة من رجاله قتلى ، فنادى حمزة باعلى صوته : « يا قوم لا تطلقوا علينا الرصاص ، لاننا ما اتينا هذه البلاد لمحاربتكم بل لمحاربة الفرنسويين المستعمرين واني اقسم لكم بشرف الدروز وشرف هذه الثورة المباركة اننا لا نمسكم بسوء واننا نعتبر هؤلاء القتلى فداء عن الوطن ، فكفوا عن الرمي ، وتأكدوا انكم اذا اردتم مقاومتنا ، انكم لخاسرون . »

فلم يلبوا طلبه ، بل داوموا على اطلاق الرصاص على حمزة وعلى الجموع القادمة . فهاجت تلك الجموع وماجت كالبحر الزاخر وهاجمت القرية ، وبأقل من نصف ساعة غدت القرية اثرا بعد عين وقتل من الاهلين عدد عظيم من جملتهم الخوري ، وكان قتله برصاص اهل قريته .

ثم عاد الثوار بغنائمهم الى حاصبيا وبعد بضعة ايام سارت قوة كبيرة بقيادة حمزة الدرويش ونزيه العظم قاصدة «الجديدة» ولما وصلت الى مفرق طريق « ابل السقي » التي تبعد عن «الجديدة» نحو نصف الساعة ، اعترضها اهالي القرية ومعظمهم من المسيحيين ودعوها الى تناول الطعام في القرية ، فلبت الدعوة ، وباتت تلك الليلة فيها ، وفي اثناء السهرة قدم احد شيوخ القرية يحمل كتابا مرسلا من (بطرس كرم) الى زعماء الثوار وكان كله

شتائم ووعيد وتهديد . وبطرس كرم هـذا هو احد اللبنانيـين المتفرنسين جلبتـه السلطـة الفرنسية لمرجعيون على رأس عصابة من المتعصبين لتكسب الثورة صبغة دينية ، فلم تجز هذه الحيلة على الزعماء، بل انهم في الحال قرروا عدم التعرض (لجديدة مرجعيون) وكتبوا كتابا لطيفا الى بطرس كرم يفهمونه فيه ان الثورة ليسـت ثورة دينية وان الثوار لا يرغبون في قتال المسيحيين ، وانهـم سيفادرون (ابل السقي) ولا يتعرضون للجديدة كيلا تكسب الثورة الصورة الدينية التي يتطلبها الفرنسويون .

وبعد ارسال هذا الكتاب الى بطرس كرم ، عاد الثوار الـى حاصبيا فوجدوا زيد الاطرش وسائر الزعماء قد قدموا اليها من الاقليم مع قواتهم ، فقصوا عليهم حقيقة الموقف فوافق الجميع على عدم التعرض (لجديدة مرجعيون) واتصل الخبر ببطرس كرم فتوهم ان الثوار يخشون بأسه فتحـرك فيه حس الانتقـام ، وارسل قوة الى (برغز) وهي مزرعة درزية صغيرة تخص (آل شحي) لكي تحرقها ، فكمن لها شكيب وهاب ، ولما وصلت طليعتها المؤلفة من ستة عشر رجلا الى قرب القرية ، قبض عليهم شكيب وهاب واخذ سلاحهم واطلق سراحهم قائلا لهم : «يا اخواني ،اذهبوا وبلغوا جميع اخواننا المسيحيين اننا لا نريد بهم شرا واننا لا نرغب في محاربتهم ، بل نود مقاتلة الفرنسويين . »

فذهبوا الى اخوانهم وقصوا عليهم الخبر ، فلم يرجعوا عن غيهم بل هاجموا القرية، فقابلهم شكيب وهاب ومن معه بالرصاص، وفي الحال اتصل الخبر بزعماء الثوار في حاصبيا فامتطوا ظهـور خيولهم واقبلوا على (برغز) بسرعة هائلة ، فلما رآهم (بطرس كرم) وقومه ولوا الادبار الى (جديدة مرجعيون) وانضموا الى الحامية الفرنسوية التـي وصلت اليها حديثـا ، وتحصنوا في الـزور والاستحكامات فتبعهم الثوار ودار بينهم قتال عنيف دام نحـو سبع ساعات ، وانتهى بنصر المجاهدين وانخذال العدو وفـراره

الى صيدا .

ولم يقتف الثوار اثر المنهزمين لانهم دخلوا حدود لبنان الصغير الذي قرر الثوار عدم التعرض له . وعليه اكتفوا بنسف جسر (الخرادلة) وعادوا بعد ذلك الى مقرهم (حاصبيا) .

وقد اشترك في هذه المعركة قسم كبير من اهل (العرقوب) وفريق من عرب الامير الفاعور .

احتلال راشيا واحراق قلعتها :

ولما عاد الثوار الى (حاصبيا) علموا ان معركة كبيرة وقعت بين دروز (راشيا) وبين حاميتها ، فهرع قسم منهم بقيادة السادة حمزة الدرويش ونزيه المؤيد العظم واسد الاطرش وغيرهم من الزعماء الى راشيا ، فتحصنت الحامية في قلعة (ال شهاب) وتحصن معها معظم مسيحيي القرية . ولما ابصروا جموع الثوار قادمة نحوهم قابلوها بالرصاص ، فهجمت الجموع واحتلت القرية، وبقي الجند متحصنا في القلعة ودام الحال على هذا المنوال بضعة ايام واخيرا قرر الثوار مهاجمة القلعة فانقسموا الى اربع فرق واحاطوا بالقلعة من جميع اطرافها ، وعهدوا الى السيد نزيه المؤيد العظم بدخولها فقام بمهمته احسن قيام وتمكن من الوصول الى اسفل السلالم بواسطة خرق جدران الدور الموصلة اليها .

ووضعت السلالم على السور فتسلقها الثوار ودخلوا القلعة عنوة ببطولة نادرة تفوق الوصف . وأحرقوا قسما كبيرا منها وقتلوا عددا عظيما من المحاصرين الذين لم يفروا ولم يختبؤا في الاقبية الارضية ، والذين حال الليل دون الوصول اليهم ، وقد استسلم اليهم كثير من المسيحيين فلم يمسوهم بسوء بل اطلقوا سراحهم حالا بعدما استولوا على اسلحتهم .

وفي الصباح أتت نجدات كبيرة من الجند مجهزة بالمدافع والدبابات والمصفحات ، ثم حلقت الطائرات فألقت على الثوار

مقادير كبيرة من المفرقعات مما اضطرهم الى ترك البلد والاعتصام بالجبـــال .

حينئذ دخل الجنود القرية فقتلوا جميع من وجدوهم وفي مقدمة الجميع ، كان الشيخ نعمان وجميع افراد عائلته .

استشهاد فؤاد بك سليم :

هذه خلاصة مختصرة لمعارك الاقليم الكبرى ذكرتها بصورة اجمالية ولما كنت عازما في اواخر تلك الايام على زيارة المناطـــق الجنوبية لتنفيذ بعض المهام السياسية سمعت في دار الوطنـــي الكبير والبطل الشهيد المرحوم فضل الله باشا الهنيدي زعيم قرية (المجدل) خبرا قضت له المضاجع الا وهو خبر مصرع المجاهـــد الممتاز واللوذعي المفادي ، المرحوم فؤاد سليم .

ان انسى لا انسى قدوم هذا البطل الى الجبل متطوعا فـــي اواسط شهر سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٢٥ بعدما اقتحم الاخطار وخاض المناطق المحظور عليه المرور فيها ، فكان اول من رأيته في الجبل من القادمين من المناطق الاخرى بعد اخواننا .

قص علي يومئذ كيف استطاع اقتحام صحراء التيه والمرور بفلسطين وشرقي الاردن مع كثرة العيون والارصـــــاد وحرص السلطات المتنوعة على منع المتطوعين من الالتحاق بالثورة فشكرت له مساعيه وحمدت له وطنيته ثم رأيته ملازما للقيادة العامـــة يتحمل اعباءها ويتحمل وعث السفر وشقاء المعيشة غير حريص على التفوق بل جعل نفسه داعية واداة منفذة .

ان هذا الا احتماء وراء شخصية باهرة وشجاعة نادرة وعقل راجح ، وهو الذي كلف بنشر الرسائل الوطنية البليغة في الاقليـــم باسم القيادة العامة وبعنوان : « الدين لله والوطن للجميع . »

وافاه أجله من قنبلة اصابته عرضا وعفوا في احدى الطرق

في الاقليم ، فخر صريعا يتخبط بدمه .

وبعد فترة ابتدأ تراجع الثورة في تلك الانحاء .
ان اسم فؤاد سليم هو من الاسماء التي ستوضع في اوائل اسماء المرشحين لنيل الاولية في جهاد الميدان من بعد القائد العام. وهو لا شك مقرون دائما بالفحول امثال حمد البربور وفوزي القاوقجي وفضل الله هنيدي ونزيه المؤيد وصياح الحمود ، وزيد الاطرش وسعيد العاص ، وشوكت العائدي وحمد عامر وشكيب وهاب وعبد القادر سكر ، وابي محي الدين شعبان ، وعادل نكد وتوفيق هولو ونسيب الاطرش وسليمان العقباني وزين مرعي جعفر ومحمود ابويحيى واسعدكنج ومحمد شرف ومحمد عزالدين الحلبي وسلمان الاطرش والامير حسن الاطرش والامير عز الدين الجزائري، وغيرهم من كبار الرجال الذين لا تتسع لهم هذه العجالة للاحاطة بهم ولذكر اسمائهم .

وحسبنا ان نقول هنا ان العقل الراجح اذا انضمت اليه الشجاعة النادرة وكان الاخلاص حلقة الوصل بينهما تمثل امامنا شخص شهيد الوطن ، فؤاد سليم .

معركة السويداء

في ٢٥ نيسان سنة ١٩٢٦

بعدما فشل غاملان في هجومه على الجبل في سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٢٥ واضطر الى سحب جنوده الى الشمال عقيب الثورة في حماه ، نشر على الملأ ان سبب هذا الفشل هو قلة الماء فقال ان الجيش الصغير يعجز عن اقتحام تلك البلاد ، والجيش اللجب يموت فيها من العطش .

ثم اخذ في ذكر الخطط التي ينوي تطبيقها سريعا من احتلال صرفد في الجنوب وبناء القلاع في الغرب الى اخر ما هنالك من الكلام .

لكن الواقع هو ان الفرنسويين خافوا مغبة الحوادث في الشام وحمص وحماه وحلب ، فأرسلوا جنودهم الى تلك الارجاء سدا للذرائع ، خصوصا بعدما بدرت البوادر في الفوطة ، وهبت العاصفة في حماه .

ثم مرت الاشهر الطوال والجبل خال من الجنود الا على الحدود في بصرى الشام وبصرى الحرير وازرع . ولولا قنابل المدافع من بعض هذه القلاع وزيارة الطائرات المتوالية للقرى وخصوصا للسويداء حيث التدمير كان فظيعا ، لقلنا ان الجبل

منذ اوائل اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٢٥ حتى اواخر نيسان سنة ١٩٢٦ كان في حالة سكون نسبي .

غير ان ذلك لا يعني ان المجاهدين في الجبل اخلدوا الى السكينة طيلة هذه المدة ، بل انهم خاضوا غمار الموضوعات السياسية في مؤتمرات عقدوها في قنوات وعتيل وشقة ودامة عقيب دعوة دو جوفنيل السلمية ، واحتلوا اللجاه ليهددوا السكة الحديدية في حوران ويقطعوا على الفرنسويين خط الرجعة .

اثر دعاية دو جوفنيل في الجبل :

ومما هو حري بالتدوين ، ان الدعاية الجوفنيلية اثرت اثرا ظاهرا في الجبل ، حتى ان بعض الزعماء الكبار انتدبوا الشيخ اسماعيل عز الدين من اهالي (السويداء) ليحمل كتابا الى القومندان (كوستيلير) في درعا وفيه الشروط التي يطلبونها وقد عاد المندوب الى السويداء في اليوم الرابع عشر من يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٢٦ فقال :

« قابلت كوستيلير في درعا وعرضت عليه الرسالة فاجابني لا اسمح أبدا ان يكون هنالك في الجبل زعيم . وان هذه المفاسد هي من الدكتور شهبندر وهو رجل (فرماسون) لا دين له . والشروط التي نطلبها هي ان تعيدوا جميع الاسلحة الفرنسية وتؤدوا ثمن الخيل الاميرية التي بعتموها في شرق الاردن ، وتعيدوا بناء القلعة وسائر دور الحكومة الى حالها السابق وتضعوا سلاحكم في محل تأمنون عليه وتأتوا خاضعين بعد اخراج الدكتور شهبندر من الجبل ، ولا بأس ان تجتمعوا للمذاكرة ولكن على شرط ان تضعوا على صدر رسالتكم اشارة خضوعكم ثم توقعوا عليها لا بصورة فردية بل بعدد كبير من الرجال ، منعا للزعامة التي تأباها فرانسة . وكان احد رجال الدروز الكبار موضوع نقده الخاص ، وفي النهاية قال كوستيلير : « ولا بد من استدعاء جميع

العصابات التي تعبث بالامن خارج الجبل ، وانني لا اضمن العفو عن احـد » .

افساد خطة كوستيلير :

كان الدروز يوم عودة الشيخ اسماعيل عز الدين في (شقة) للمداولة في الشؤون فرأيت الفرصة سانحة لاطلاعهم على نيـات الفرنسيين ، فأرسلته اليهم قبل تفرقهم فلقيهم في اليوم الثانـي وقص عليهم هذا الحديث الفظ الخالي من كل ادب وحنكة .

فبلغت الحماسة في رؤوسهم ذرى المفارق حتى ان فضل‌الله باشا هنيدي حلف يمينا غموسا ان لا يسمح لاحد من الهنيديات الذين هم على اقل اتصال بالفرنسيين بالبقاء في الجبل ومن ثـم اتخذ المجتمعون قرارا بان يذهب كل فرد من كل بيت معروف في قرية (ذيبين) ليحرقوا بيت فارس الاطرش و (للمجيمر) ليحرقوا بيت سليمان عبده الاطرش وهما رجلان قد خانا العشيرة وعبثـا بالوطن وقد تنفذ القرار هذا فيما بعد ، ثم انهم تحالفوا علـى الاستمرار في الحرب بصورة جدية .

ثم ان هذه الخطة التي ارتكبها القومندان كوستيلير هـي الثانية من نوعها ، الا اذا كان هو وحزبه من طغاة العسكريـين قاصدين دوام الثـورة .

والخطيئة الاولى هي ما مر معنا من امتناع الجنرال ساراي من مقابلة الزعماء .

قرار المجتمعين في الجبل :

وكان من نتائج هذا الخطأ الفادح ان تقرر في (شقة) ايضا ان تقدم ربع محاربيها بالتناوب للاستمرار على الثورة وان يشتمـل الحريق بيوت غير من ذكرنا امثال نجيب عامر وتركي عامر وعبـد الكريم نصر ، وان يكتب الى كوستيلير كتاب يليق بكلامه ويشمل

مطاليب الثورة .

ثم تقرر تأليف لجنة لادارة الجبل وبحث في قضية حملة الغوطة بقيادة فوزي بك القاوقجي بحثا مستفيضا .

ويظهر لي ان العامل المؤثر في تصلب الفرنسويين هو (اندريا) وغاملان في الدرجة الاولى .

ثم اننا عقدنا في السويداء مساء الاثنين الواقع في ١٨ يناير (كانون الثاني) جلسة للتفاضل بين حملة تذهب الى الغوطة او حملة تذهب الى اللجاه وحوران ، فترجحت لدينا هذه باكثرية الاصوات للاسباب التالية :

للقرب وخطورة النتائج والسرعة الضرورية والاستغناء عن الرواتب الضرورية لمثل حملة الغوطة ، وقد ذهب المجتمعون الى ان حملة حوران اذا كتب لها النجاح ، تريح الغوطة وتخفف الوطأة عن سائر المناطق الشمالية .

وبينما كنا نسير في تنظيم الثورة على هذا النحو كان كوستيلير يتآمر مع ظاهر القنطار وابراهيم الاطرش على اغتيالي . واول من كشف لي الغطاء عن ذلك (....) اذ ان لوالد صهرها ، ابراهيم بك الحاصباني اتصالا مباشرا بالمتآمرين وقد قصت علي الحديث في اليوم التاسع عشر من يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٢٦ وذكرت لي مقدار المال الوافر المعروض لتنفيذ هذه المؤامرة .

وفيما بعد ذكر لي ابو محمد نسيب صخر ان ابراهيم الاطرش المذكور وعده بخمسماية ليرة ذهب عثماني اذا هو استطاع ان يسهل دخول داري ليلا وفتح باب حجرتي فأبى .

تنظيم العمل في الثورة :

وكان همنا في تلك الايام منصرفا الى تنظيم مناطق الثورة

ووضع اسس الاتفاق بدلا من الفوضى ومقاومة الخونة مقاومة عنيفة ، بيد انه من دواعي الاسف ان تكون عادات البيوتات والثارات في الجبل مانعة من تنفيذ هذه المساعي وايقاع القصاص الصارم في هؤلاء الاسافل ..

وكان من نتائج هذه المساعي الاتفاق على كتابة عهد امضاه مشايخ عرمان وملح وامتان والهوية وقيصمة والحريسة وابو زريق وشعف دبهم وتل اللوز وطليلين ، وفيه يقسمون بان يتخذوا .

١ ـ الامتناع عن الشر وعلى اتيان الخير .

٢ ـ على التبرؤ من كل من يراسل العدو او يقابله .

٣ ـ على تأديب من تثبت عليه الشبهة «بفرشه» اي بسط داره للنهب وهدر دمه .

٤ ـ على التآخي التام والتعاون اللازم في الداخل والخارج .

٥ ـ تنفيذ هذا العهد منوط بفتيان الوطن الغيورين .

وكان الاخوان في السويداء يضعون يومئذ لهؤلاء «الفتيان» قانونا يتمشون عليه .

مغادرتي للسويداء :

غادرت السويداء في اليوم الحادي والعشرين من يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٢٦ للاجتماع باحد المندوبين السياسيين الوطنيين خارج مناطق الثورة في الجنوب ، فمررت على ام الرمان حيث التقيت باصحاب العهد يوقعونه من مشايخ هذه القرية الحرة ، وكان لا بد من مروري في طريقي الى الجهات على القرى الملاصقة ببصرى الشام حيث العدو متحصن بخيله ورجاله فتقدم الفتيان لحراستنا وعلى رأسهم جاد الله بك البربور فأخذوا يعدون على ظهور الصافنات الجياد ، امام سيارتنا الى ان ادخلونا قريتي

(صاد) و (سمج) الموحشتين ، ثم في قرية (طيسيا) الخالية من السكان وجدنا اثار الفرنسويين وعسسهم وكيف كانوا يقطعون السبيل على المارة .

هذه كانت احوال الحدود بيننا وبين الاعداء وعلى مثل هذا الخراب كانت القرى المجاورة .

الشركس :

ولقد لقيت في قرى جماعة «الششن» في الجنوب من حسن الوفادة وكرم الضيافة والعطف والتبرؤ من اعمال الشركس المتطوعين في خدمة المستعمرين ما يسجل لهم بمداد الفخر .

ان «الششن» والحق يقال ، على جانب من الشعور الحي وقد ذكروا لي ان كثيرا من الشركس فيبلاد القفقاس كانوا يخدمون في جيش القيصر الروسي لسحق الحركات الوطنية وهذا ما يتفق مع سيرتهم في الاناضول ايضا يوم تطوعوا في خدمة اليونان المغتصبين لسحق الترك الوطنيين . ولابد ان هذه النزعات ستحدث ألما جارحا في نفوس الشاعرين منهم بدخائل الامور .

حركة مجحم الشعلان :

ومن الحوادث المؤلمة التي حدثت في غضون هذه الرحلة ان مجحم الشعلان ممن يدعون التدين على الطريقة الوهابية هاجم الازرق على ارض تدعى البقعاوية صباح سفري من السويداء فاغار على نحو خمسين بيتا من عرب المساعيد رعيان الدروز في حين كانت البلاد من اقصاها الى اقصاها تتفاءل بقرب مجيء المتدينة لمساعدة المجاهدين .

وقد احدث بعمله هذا تأثيرا سيئا تلافاه الاخوان في فلسطين بالكتابة الى المراجع الايجابية .

ومما هو حري بالتدوين ويدل على اشتراك سكان البادية في

العطف على هذه الثورة الا ما كان نادرا في شذوذه ما احبرني عنه (حديثة الخريشة) شيخ الخرشان ومثقال باشا الفايز شيخ صخر بقولهما ان الغزوات هذه السنة كانت نادرة جدا بالنسبة الى السنين الماضية ، لان البدو حرموا على انفسهم الغارة على هذه البادية خشية ان يصادموا فيها المجاهدين او يسلبوهم حلالهم .

عقاب الجواسيس :

واتفق لي يوم عودتي الى السويداء من رحلتي الى الجنوب ١٢ فبراير (شباط) مساء ان الدرك قطع يدي الجاسوسين شفيق التزاز وصويصي الشنيبلي اللذين لعبا اخطر الادوار في الخيانة بعد ثبوت الجرم عليهما . فأذاع (رويتر) و (هافاس) كما اذاع المسيو دو جوفنيل امام عصبة الامم فيما بعد ، انني انا الذي قطعت اليدين من غير شك ، مع ان التنفيذ جرى في غيبتي ، ولو كنت حاضرا لمنعته لا لان الجاسوسين المذكورين لا يستحقان قطع اليد بل لانهما يستحقان خلع الرقبة .

وقد اخطأ الدرك ومن اشار عليه بهذه الرحمة التي كانت آلة للدعاية في ايدي الفرنسويين .

مؤتمر في « دامة » :

وفي المنتصف الثاني من شباط تم الاتفاق بيننا وبين سلطان باشا على الزحف على اللجاه فأخذت الجموع تحتشد من كل مكان ، وفي مساء الخميس الواقع في الخامس والعشرين من الشهر المذكور عقدنا جلسة تاريخية في اللجاه داخل قرية « دامة » في بيت شبيب بك القنطار حضرها عدد كبير من الزعماء :

سلطان باشا وعبد الغفار والمرحوم الامير حمد وصياح بك الحمود وسليمان بك وفضل الله بك من الطرشان ومن العوامرة علي بك وهائل بك والامير عادل ارسلان ، وتوفيق بك هولو حيدر

وعلي بك عبيد وجابر بك الصغير وغيرهم لاجل البحث في الدعـوة السلمية التي نشرها دو جوفنيل ، فتقرر ارسال جواب مؤلف من ست مواد معروفة ، الا انه كان شديد اللهجة جدا وخاليا مـــن المرونة السياسية المطلوبة ، وفي ختامه طلب الجلاء عن سوريـــة عقيب المجلس التأسيسي بشهرين والامضاء : الشعب الدرزي .

وهذا خطأ فادح ايضا ، اطلع المسيو دو جوفنيل على هـــذا الجواب فنشر في الصحف بيانا مختصرا اشد منة ذكر فية : ان لا سلم ولا مفاوضة الا بعد ان يخضع الثوار ويلقوا سلاحهم . ويعد قرار مؤتمر دامة هذا وبيان دو جوفنيل عليه طورا جديدا في تاريخ الثورة السورية ، انقطعت من بعده الوسائل السلمية ، ولم يعـد امام سورية للوصول الىحقها المغصوب الا الاستمرار علىالحرب.

هل كان بالامكان لولا قرار دامة يا ترى الوصول بالمفاوضة الى حل سلمي . وهل كان دو جوفنيل صادقا في اظهار ميولـه الصلحية ومؤمنا بالبيانات التي نشرتها الصحف عنه يوم كــــان قادما الى سورية . وهل ثبت فيما بعد انه كان قبيل تعيـــين (بونسو) خلفا له من اقرب التوسيعيين الى القضية السورية مودة، وانه الوحيد الذي اظهر عطفا او تظاهر به ؟

هذه اسئلة ليس من المستطاع الجواب عنها الان بل تترك الى الاجيال القادمة وربما عرف عنها اخواننا في اوروبا ومصـــر اكثر منـــا .

الزحف على اللجاه :

وفي صباح الجمعة الواقع في السادس والعشرين من شهر فبراير المذكور غادر المجاهدون قرية (دامة) الى لب اللجاه في حوران فاحتلوا من غير مقاومة تقريبا قرية (حبدل) وسائر القرى الاخرى وانهزم من امامهم طلال ابن ابي سليمان واحمد الفصين

وغيرهما من الشيوخ الذين ابتاعتهم الدولة المستعمرة بالمال ، والدراهم البخسة .

ومن ذلك اليوم اصبح اللجاه في قبضة الثوار الى نحو المنتصف من شهر نيسان اذ استعد الجنرال (اندريا) للزحف على السويداء .

وغير نكير ان الفرنسويين اهتموا اشد الاهتمام لسقوط اللجاه بيد المجاهدين وعرفوا ان اتصالهم بحوران لاسيما بقلعة بصرى الشام ودرعا اصبح مهددا لان قرية خبب الواقعة على السكةالحديدية الحورانية لم تبعد عن«صور اللجاه» غير ساعتين.

بيد ان العربان في اللجاه ، الا القليلين منهم ، وقفوا انفسهم في خدمة الفرنسويين فكانوا عقبة في سبيل الثورة كؤدا ، ولا انكر ابدا الخطأ الذي ارتكبه بعض المجاهدين بقتلهم اخا طلال المذكور مما ادى الى حرب بحوران بين العربان وبين المجاهدين ، سمعنا طلقات نيرانه في قرية «صور» ومن المؤسف كثيرا ان يقع على مهاجري الاقليم ثأر هذا القتيل .

فقد رأيتهم في قرية «لبين» وهي من قرى اللجاه في مساء الجمعة الواقع في ٩ من شهر نيسان (ابريل) بحالة تفتت الاكباد وذلك بعدما اكتسحت ديارهم الجيوش المستعمرة ومن ورائهم شراذم المأجورين والمتعصبين .

نهاية الثورة

« لم يتناول الدكتور عبد الرحمن شهبندر في مذكراته المراحل الاخيرة من الثورة السورية (١٩٢٥ ـ ١٩٢٦) على اننا نرى لتمام هذا الموضوع التاريخي ان نشير الى هذه المراحل بلمحة موجزة يقف منها القارىء على الظروف القاسية التي عاشها المجاهدون السوريون بعد ان تمكنت قوى الاستعمار الفرنسي من كبح نشاطهم الوطني المسلح والجأتهم الى مغادرة الاراضي السورية ليعيشوا حياة الضنك والبؤس والتشريد في منطقة الازرق من بلاد الشرق العربي (المملكة الاردنية الهاشمية حاليا) .

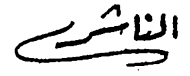
خاتمة المطاف :

احتل الفرنسيون السويداء على اثر معركة ضارية مع المجاهدين من السوريين وبني معروف يوم ٢٥ نيسان سنة ١٩٢٦ استمرت طوال النهار والليل اشتركت فيها الدبابات على الارض والطيارات في السماء ، واضطر المجاهدون الى الانسحاب الشرق، فنزل سلطان باشا الاطرش واخوانه على مكان يقال له «عين الخشبة» كما نزل الدكتور عبد الرحمن شهبندر واخوانه بقرية « سالة » .

وفي سالـة عقدت عدة اجتماعات بـين الزعيمين الاطرش والشهبندر واتفق الرجلان الكبيران على الاتصال بالمرحوم الملك فيصل الاول وتسليمه مذكرة بمطالب البلاد لعرضها على المراجع المختصة في اوروبا وقد تم الاجتماع فعلا بين الزعماء السوريـين والملك العربي وعقد الجميع جلسة بالقرب من القياسة على طريق بغداد الى الجنوب من القريـة المذكورة شهدها بالاضافـة الى الدكتور شهبندر والملك فيصل كل من سلامة بك الاطرش والامير حسن الاطرش وعلي بك المصطفى الاطرش ونزيه بك المؤيد العظم وعلي ذوقان بك الاطرش وكذلك رستم بك حيدر وتوفيق بـك السويدي وتحسين بك قدري .

وفي اول اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٢٦ غادر الدكتـور شهبندر جبل الدروزلاخر مرة وبرفقتهسلطان باشا الاطرشونسيب بك البكري فتعشوا خلسة في بيت شيخ «العانات» وهي قرية على مرمى الرصاص من معسكر الفرنسيين في تل الخضر .

وفي اخر الليل واصلوا سيرهم الى الازرق فبلغوه صبيحـة اليوم التالي وكان يوم الاثنين ١٤ (كتوبر) تشرين الاول سنة١٩٢٦ .



* * *

المُلحق

مُذكرة الشهبندر إلى وزارة الخارجية الفرنسية

وفي ختام هذه المذكـرات فاننا نسجل المذكرة الصاخبـة التي كتبها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الى الحكومة الفرنسية بباريـس .

وقد تضمنت نصوصها شرحا ضافيا للعوامل المباشرة التي ادت الى اثارة الخواطر وازدياد النقمة الشعبية ثم اندلاع نيران الثورة الوطنية التي انطلقت شرارتها الاولى من معاقل جبل الدروز ثم ما لبثت ان عم لهيبها المقدس اكثر البلاد السورية واستمرت نيرانها متأججة في الجبال والوديان والسهول اكثر من سنتـين دون فتور ولا انقطاع . والتهمت آلافا من الارواح البريئة التي قدمها الشعب السوري المجاهد قربانا مقدسا على مذبح الحرية والكرامة والاستقلال . وكانت معاركها الضارية صفحة وضاءة مشرقة من صفحات النهضة العربية في كفاحها ضد الاستعمـار الفرنسي الغاشم في الشرق .

الناشر

نص المذكرة التي قدمها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الى وزارة الخارجية الفرنسية يبسط فيها اسباب الثورة السوريـة واغراضها .

اتشرف بان ابسط لسعادتكم اسباب الثورة التي نشبت

اخرا في جبل الدروز والنتائج المنتظرة منها والحالة الحاضرة في سائر انحاء سورية :

بعد وفاة سليم باشا الاطرش سنة ١٩٢٣ عين المندوب السامي الفرنسوي الكابتين كاربيه حاكما على الجبل خلافا للاتفاق المبرم مع الدروز ، وهذا الموظف الذي اشتهر بسوء السيرة في حياته الخاصة والعامة ، واعتمد على فريق من الموظفين الذين فسدت اخلاقهم .نهج في الجبل سياسة الارهاب والتنكيل فبدلا من ان يدير شؤون البلاد عمد الى دس الدسائس والتفريق بين ابناء البلاد .

واليكم مقتطفات من وثيقة طويلة قدمت رسميا الى الجنرال ساراي في ٦ يونيو (حزيران) سنة ١٩٢٥ عن اعمال الكابتين كاربيه :

١ ــ كان عدد من رجال الجندرمة المسلحين بالعصي مخصصين لاهانة الناس وضربهم تنفيذا لرغائب الكابتين كاربيه ورجال حاشيته بدلا من ان يقوموا بالواجبات المفروضة عليهم .

٢ ــ اعتقل حامد قرقوط من اعيان قرية ذيبين مدة خمسة اشهر من دون سبب ولا محاكمة ، وكان يهان ويضرب في الصباح والمساء لاقل وشاية من احد الجواسيس .

٣ ــ جلد المدعو حسين كابول من قرية (رعية اللحف) حتى مزق لحمه لانه اهمل ان يحيي الكبورال «ديوشيل» في اثناء مروره على الطريق العام .

٤ ــ اعتقل المدعو وهبة العشعوش وضرب ضربا مبرحا في السويداء لانه رفض ان يؤجر منزله .

٥ ــ اطلق الكبورال (ديوشيل) عدة طلقات من مسدسه على محمد بك الحلبي مدير العدلية العام ، ولم ينل اقل عقاب على

عمله الجنائي هذا .

٦ ـ اعتقل المدعو حسين صديق ١٥ يوما لانه لم يذهب لاستقبال الكابتين كاربيه ، وفرضت غرامة على القرية قدرها ٢٥ جنيها ذهبيا لانها لم تستقبله استقبالا فخما . وقد فرضت مثل هذه الغرامة على قرية عرمان للسبب نفسه .

٧ ـ اعتقل فهد بك الاطرش قائمقام صلخد وضرب ضربا مبرحا دون تحقيق بناء على وشاية بسيطة من احد الجواسيس.

٨ ـ فرضت غرامة على سكان السويداء قدرها عشر جنيهات لضياع قطة الليوتنان (موريل) .

فهذه الحوادث وامثالها والافتئات على حقوق البلاد ، كل ذلك حمل الاهلين على الثورة ، ويخطىء من يعتقد ان الوطنيين وحدهم هم الذين اثاروا حركة الاحتجاج هذه .

فان المعتدلين انضموا اليهم . وقد الف وفد وذهب لبث شكواه وتقديم عريضة تتضمن رأي الجبل ومطالبه .

ورفض الجنرال قبول هذا الوفد ، رفضا فيه كل معاني الاحتقار والتهديد ، فزاد بعمله هذا غير المنتظر هياج الافكار الناشىء عن ادارة الكابتين كاربيه ، ولم تقتصر السلطة على الاحتقار والتهديد ، بل جردت على الجبل الهادىء المسالم حتى تلك الساعة قوة قوامها بضع مئات من الجند بقيادة القومندان (توما مارتان) الذي اسديت اليه نصائح كثيرة بالعدول عن سياسة الشدة ومعالجة المشكلة باللطف واللين ، ولكنه لم يرد ان يستمع شيئا . وقد استهل عمله باعتقال عدد من الزعماء تمكن من اعتقالهم لقربهم منه وارسلهم الى المنفى ثم وجه قسما من قوته للقبض على زعماء اخرين ، وكان ذلك فاتحة الثورة ، اذ لم يبق احد امينا على حياته او على ممتلكاته .

ولكن القوة هذه ، ابيدت في الكفر يوم ٢٢ يوليو (تموز) سنة ١٩٢٥ قبل ان تحقق امنيتها . ولم تشأ السلطة ان تعد هذا العمل انذارا كافيا ، بل واصلت مغامراتها التي انتهت بنكبة المزرعة في ٢ اغسطس (آب) سنة ١٩٢٥ و ٣ منه ، على الرغم من النصائح التي اسديت الى ولاة الامور ، وكانت نتيجة هذه السياسة ابادة بضعة الاف من الجنود الفرنسويين المساكين . ولا تزال القوات الفرنسوية تصادف الصعوبات عينها حتى يومنا هذا .

ولا تزال الثورة التي نشبت في جبل الدروز تتسع نطاقا حتى اوشكت ان تعم سورية كلها . وهذه نتيجة لازمة لسياسة الضغط والارهاق التي وضع اساسها الجنرال غورو ، وسار عليها خلفاؤه من بعده .

اما قواعد هذه السياسة فهي :

١ ــ جمع كل انواع السلطة في يد المفوض السامي .
٢ ــ خنق كل الافكار الحرة .
٣ ــ استغلال البلاد واهلها من غير ابقاء على شيء .

وقد اعتزلت العناصر الوطنية المتنورة العمل ردحا من الزمن ، متوقعة فشل هذه السياسة من جهة وانتهاج طريق اخرى تكفل للبلاد حقوقها وتحقق الآمال التي اعربت عنها بلسان الجماعات التي فوضتها من جهة أخرى .

على انه لم يطرأ أي تعديل جوهري ، مع ان النتائج جاءت سيئة جدا . وكانت البلاد التي بدأت تنتعش بعد الحرب قد وقعت في أزمة اقتصادية ومالية لا مثيل لها ، فلم تفعل السلطة شيئا لتخفيف هذه الازمة بل وجهت كل مساعيها لاستغلال دافعي الضرائب بفرض رسوم وضرائب جديدة ، وحسب القارىء ان يلقي نظرة اجمالية على احوال التجارة والصناعة والزراعة

ليدرك حقيقة الازمة الاقتصادية والمالية التي عانتهـا البـلاد بين سنتي ١٩٢٠ و ١٩٢٥ ، فان الثروة العامة نقصت نقصاً عظيمـا بينما كانت الضرائب تزداد على نسبة أعظم .

وقد اتضحت الغاية المنشودة حينئذ ، وهي اقناع البرلمان والحكومة في فرنسا واقناع العالم كله بان سورية أخذت تثري وان الدليل على ثروتها كثرة الضرائب المفروضة عليها .

واذا صرفنا النظر عن الحالة السياسية ، ونظرنا الى الحالة الاقتصادية لم نرها احسن منها لان المفوض السامي ظل مصدرا لجميع انواع السلطات ، من تشريعية وتنفيذية وقضائية . ولـم يكن للمجالس التمثيلية التي منحوها البلاد سنة ١٩٢٣ اقـل سلطة . وقد اصبحت الحكومـة المحلية شبحا يمثل المفـوض السامي أكثر مما يمثل البلاد .

واشتد الاستياء ، واصبح عاماً فقامت البلاد غير مرة تحتج على هذه الحالة التي كانت تسير عليها الى الفوضى التي هي فيها الان . وقد افهم ولاة الامور ان طريق الحل الوحيد ، هو تأمـين سيادة سورية بأنتخـاب مجلس تأسيسي ينظم دستـور البلاد ويضع اساس علاقاتها الودية مع المحافظة على حقوق سوريـة ومصالح فرنسة في وقت واحد ، على ان يكون هذا الانتخاب حرا.

لكن هذه الرغائب لم ترق الموظفين الذين تعودوا ارضـاء شهواتهم من دون مراقبة ولا مسؤولية . فان بعض كبار الموظفين الفرنسويين وجدوا في البلاد خدما مخلصين ، فألفوا معهم شركة لاستغلال السكان على حساب فرنسا وسورية استغلالا يجنون كل فائدته لانفسهم ، وقـد صادفت هذه الشركة نجاحاً عجيبا في جميع مشروعاتهـا الخاصة ، وهكذا اذن تتحققـون ، ان قمتم بتحقيق دقيق ، ان كثيرين من هؤلاء الموظفين جمعـوا ثروات طائلة وتركوا في البلاد آثارا من مساوئهم وفضائحهم لا يمكـن

تصديقهـا .

وان الكابتين كاربيـه وحمـدي الجـلاد الذي بقي مديـرا البوليس اربع سنوات ونصف السنة هما في سوريـة من اكبـر الشواهـد على ذلك .

ولما تحقق الوطنيون السوريون ان الحالة تسير من سيء الى أسوأ ، قرروا تأليف حـزب باسم «حزب الشعب» فأفرغـت السلطة قصارى جهدها لمنعهم من ذلك ، ولم يحصلوا ، الا بعـد جهد جهيد ، على ترخيص الحكومة لهم بالاجتماع في شهر مايو (ايار) سنة ١٩٢٥ .

والتفت اكثرية سكان البلاد حول هذا الحزب ، كما ثبـت للمسيو «اوغست برونه» في أثناء قيامه بالمهمة التي انيطت بـه في سورية في شهر يوليو (تموز) سنة ١٩٢٥ .

وقد سار هذا الحزب على الطريق المشروعة لتحقيق الاماني الوطنيـة وحاول ان يقنـع الجنـرال ساراي وكبـار الموظفـين الفرنسويين بان الوطنيين السوريين ليسوا اعداء لفرنسة ولكنهم يريدون خدمة بلادهم بتأمين حريتها وحقوقها المهضومة واقامـة نظام وطيد فيها على قاعدة الاماني الوطنية لا المنازعات الطائفيـة التي لا تزال تسير بها حتى الان الى الخراب والدمار .

وحاولت الحكومة المحلية ومن ورائها كبار الموظفين فـي المفوضية السامية ، غير مرة ، ان يخنقـوا معارضة «حـزب الشعب» لاسباب خاصة .

ولما نشبت الثورة الدرزية للاسباب التي بسطتها آنفا، تمكنت السلطة من انتهاز الفرصة للانتقام من حزب تألف لتحقيق برنامجه بالوسائـل المشروعـة .

وقد قبض على كثيرين من اعضاء «حزب الشعب» وابعدوا

بلا سبب الى جزيرة ارواد حيث عوملوا أسوأ معاملة وتمكن آخرون من الفرار قبل فوات الاوان .

وضاعف هذا العمل الفجائي غير المعقول الصعوبات القائمة في البلاد ، وكانت انذارا بالجلاء . وكانت السلطة بالتجائها الى مثل هذه الاعمال القاسية غير المشروعة قد اهاجت سخط الاهالي الناقمين ، واقنعت اكثرية الوطنيين السوريين بان الوسائل السلمية المشروعة لا تؤدي في حال ما الى تحقيق آمال شعب من الشعوب ، وان دعاة الوسائل السلمية يكونون دائما ضحايا القوانين التي يريدون احترامها .

وهكذا اخذت بؤرة الاضطراب تتسع بالتدريج اذ لا يعلم احد ماذا يحدث في الغد اذا لم تبذل المساعي لمعالجة المشكلة بالحكمة والعدل .

وارى من واجبي ان اقول قبل أن اختم هذا الكتاب :

ان فرنسة لن تحافظ على نفوذها في هذه البقعة من بقاع الشرق بقوة السلاح ، وانما تستطيع ان تفعل ذلك بانتهاجها سياسة المسالمة واعترافها بحقوق سورية المشروعة . واستطيع أن أوكد لكم أن أكثرية الشعب السوري على استعداد التفاهم مع فرنسة على قاعدة سيادة سورية القومية مع المحافظة على مصالح الفرنسويين .

وتفضلوا في الختام ، بقبول فائق احترامي

الدكتور شهبندر



الموضوع	الصفحة
تعريف	٥
اقسام الكتاب	٧
القسم الاول : مذكرات الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في السجن عام ١٩٢٢	٩
مقدمة	١١
كراين في سورية	١٥
الشهبندر في سجن القلعة	٧٤
المحاكمة وأسرارها	١١٦
يوم المحاكمة	١٢٠
السجن في قلعة بيت الدين	١٣١
القسم الثاني: مذكرات الشهبندر عن الثورة السورية	١٤٧
تمهيد	١٤٩
إبتداء الثورة	١٥٥
إعلان الثورة	١٥٨
الثورة في حماه	١٨٠
معركة الشام الكبرى	١٨٤
حسن الخراط	١٩١
الثورة في النبك	١٩٧
الثورة في الإقليم	٢٠١
معركة السويداء	٢٠٨
نهاية الثورة	٢١٧
الملحق :	٢١٩
نص مذكرة الشهبندر الى وزارة الخارجية الفرنسية	٢٢١

٦٧/٢٧٠٠/١٠٩٩